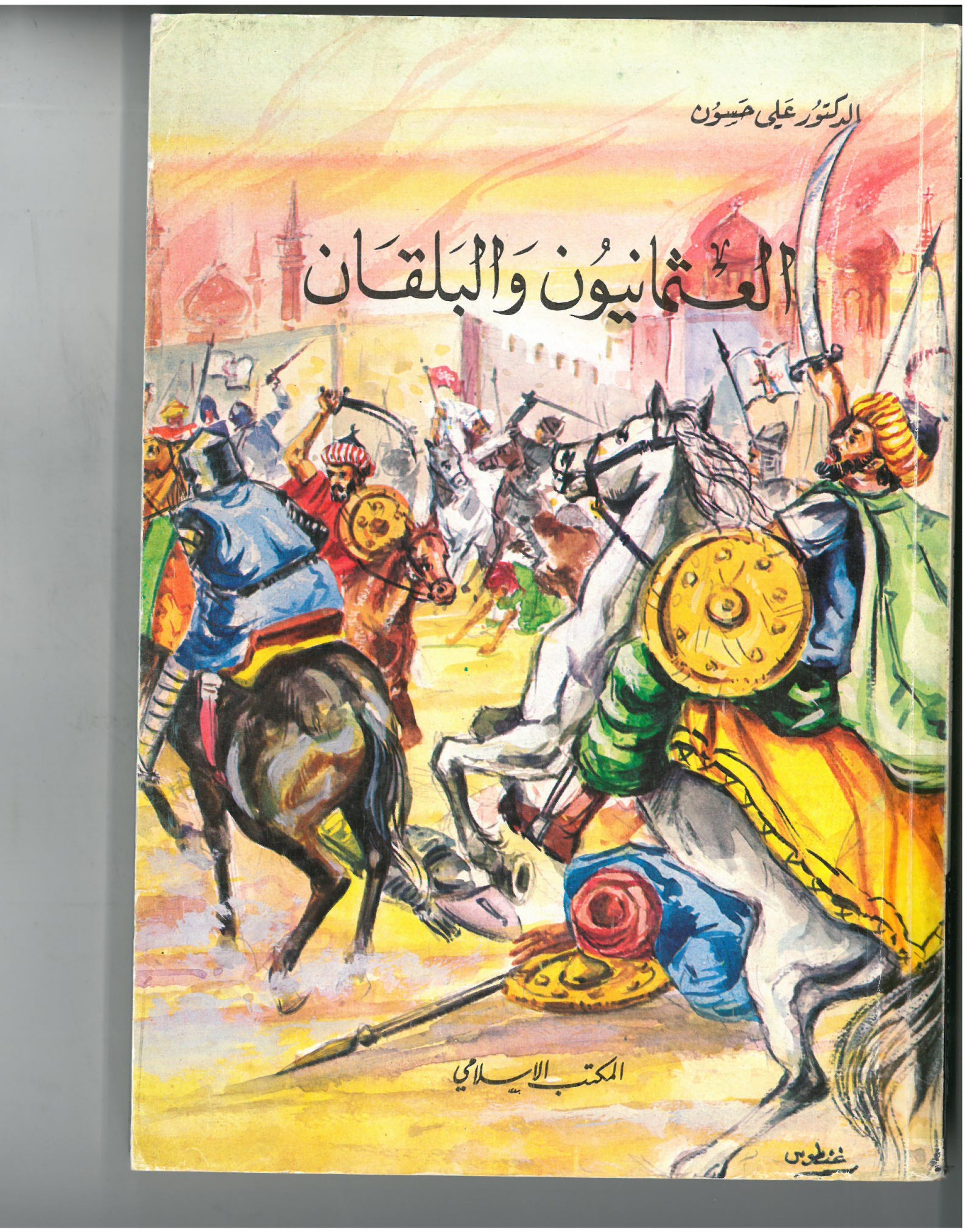
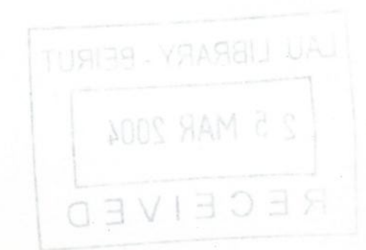

الدكتور علي حسون
العثمانيون والبلقان
المكتب الإسلامي

الطبعة الثانية
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م




المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

## مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد فهذا كتاب «العثمانيون والبلقان» الثالث الذي أصدره في سلسلة تاريخ الدولة العثمانية، بعون من الله وتوفيقه. ولم يكن قصدي، عند الكتابة في التاريخ العثماني، عرض الوقائع التاريخية، بقدر الإهتمام في أخذ العبر، والوقوف عندها. والإتعاظ من أحداث الماضي غير البعيد. فالتاريخ لا يقرأ للمتعة أو التسلية. وما هو إلا دروس تتلقاها الأجيال في مسيرة الزمان. وتقف على مزالق الطريق، وتطّلع على خفايا الأحداث، وتشمر عن ساعد الجد والعمل، وهي تعرف كيف تتخطى الصعاب وتتجاوز العثرات.

وحسب المنهج الذي سلكته في كتابيّ السابقين، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، والعثمانيون والروس، أنتهج الخط ذاته في هذا الكتاب المتواضع. وقد قسمته إلى تسعة أبواب بدأتها بإعطاء لمحة عن تاريخ البلقان في العصور الوسطى وعن الظروف التي هيئت للفتح العثماني وأسباب هذا الفتح. وأفردت جانباً واسعاً لفتح القسطنطينية والحوافز ونتائج هذا الفتح. كما أنني بحثت في الإدارة العثمانية في البلقان ثم انتقلت كي أتوسع في بحث أسباب التوقف العثماني وكيف بدأت على إثره الحركات المضادة والثورات الإنفصالية تطل برأسها بعد دخول دور الانحطاط العثماني. ثم كيفية ظهور

الدول البلقانية والجهود التآمرية التي قامت بها روسيا والغرب معاً لفصم عرى الدولة وسلخ الولايات العثمانية الواحدة تلو الأخرى. وتطرقت أخيراً لأحوال البلقان وعلاقاته مع الدولة العثمانية عندما كان نجمها يأفل. واستعرضت بعض الحروب والصدامات العسكرية التي أدت في النهاية إلى سلخ البلقان وانهيار الدولة العثمانية نتيجة السياسة الأوروبية والروسية من جهة وانحطاط الدولة وتدهور الأوضاع الداخلية فيها من جهة أخرى. وقد عملت ما في وسعي بما توفر لدي من مصادر، كي أجعل قارئي الكريم يحس مدى الحملة الشرسة التي تعرضت لها الدولة العثمانية التي وقفت في بداية عهدها سداً منيعاً في وجه الأطماع الصليبية بل ارتدت إلى عقر دار الصليبيين وهددت روما وحاصرت فيينا. كما أنني وضعت أمام أنظار القارىء المتدبر، حجم المعاناة التي ابتلي بها المسلمون بعد أن فترت همة القادة وتقاعست عزائمهم عن الجهاد. وكيف كان العثمانيون يخوضون الحروب الصليبية مع الأعداء لإخراجهم من أوروبا، وكيف تحقق معظم ما أرادوا لضعف المسلمين. وأخيراً لا بد من اعتذاري للقارىء الكريم عن ما يصدر عني من أخطاء غير مقصودة. وأرجو من الله العلي القدير أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين.

٣ رمضان ١٤٠٥ هـ

٢١ أيار ١٩٨٥ م



# الباب الأول

## لمحة تاريخية عن البلقان

البلقان حتى الفتح العثماني

١ ـ اليونان بين القرنين السابع والخامس عشر الميلادي.

٢ ـ بلغاريا.

٣ ـ العرب والكروات.

٤ ـ رومانيا وألبانيا.

## لمحة تاريخية:

ما هي البلقان؟ وماذا تعني هذه الكلمة؟

إن إصطلاح «بلقان»، يرجع إلى أصل لغوي تركي يعني كلمة «الجبل» ومنذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي، شملت هذه العبارة، أشباه الجزر الثلاثة، الواقعة في شرقي أوروبا، والمتداخلة مع البر الأوروبي الرئيسي، وهي تطلق اليوم على بلاد: اليونان، ألبانيا، يوغوسلافيا، بلغاريا، ورومانيا. هذه الأقطار التي تشترك في وحدة جغرافية وتراث سياسي امتد طيلة خمسة قرون من الحكم العثماني تقريباً.

ومنذ العصر الحجري القديم، استوطن البشر هذه البلاد. ولا يعرف حتى اليوم كيف جرى ذلك، وكيف استمر هذا الإستيطان.

ومن خلال الأبحاث التي جرت، تبدو واضحة صناعات إنسان نياندرتال التي يرجع تاريخها إلى الحقبة التاريخية الممتدة من عام ٧٠ ـ ٤٠ ألف سنة قبل الميلاد. أما بقايا الإنسان الحديث، التي احتوتها الكهوف وطبقات الاستيطان الأرضية، والقطع الحجرية التالية للعصر الجليدي التي خلّفها جامعوا الطعام في استعمالاتهم الشخصية، فهي توحي باستمرارية الحياة الحضارية حتى مرحلة إنتاج الطعام.

امتازت مدة العصر الحجري الحديث، بتزايد الاستيطان، والإعتماد على

ترويض الحيوان والنبات، فتهيأت فرص أفضل للدراسات الإحصائية الجيدة. ويمكن التحدث منذ ذلك الحين، عن حضارة بلقانية أكثر دقة.

شكلت بلاد البلقان، مع شرقي أوروبا الوسطى، مركز الحضارة الأوروبية القديمة. ومنذ حلول الأعوام الواقعة بين ٧٠٠ ـ ٣٥٠٠ قبل الميلاد، جرى التأريخ للقارة القديمة. وفي الألف السادس قبل الميلاد، اكتشف السكان القدماء استعمال النحاس. كما شكلوا تجمعات سكانية، تحولت في غالب الأحيان إلى مدن صغيرة، مارسوا فيها اختصاصات حرفية. ثم تشكلت المؤسسات الدينية والحكومية، واستنبطت المخطوطات الكتابية.

قسمّ المؤرخون، الحضارة الأوروبية القديمة، إلى خمس مجموعات حضارية هي:

١ ـ الحضارة الإيجية والبلقانية المركزية: وهي تشمل الحضارة في العصر الحجري الحديث. وتتألف في وقتنا الحاضر، من اليونان ويوغوسلافيا، باستثناء ساحل الأدرياتيك، والجزء الجنوبي الشرقي من المجر، وغربي رومانيا في العصر الحجري النحاسي.

٢ ـ حضارة الدانوب الأوسط، وهي تبدي تشابهاً مع الأدرياتيك.

٣ ـ الحضارة الأدرياتيكية. وهي تشمل صناعة الفخار المطلي، على ضفتي الأدرياتيك. وتتضمن بعض المراكز في جنوبي إيطاليا، ودانيلو في دالماشيا.

٤ ـ حضارة شرقي البلقان. ووجد هنا ثلاث مجموعات هي: «هامانغيا» على ساحل البحر الأسود، «كارانوڤا» في تراقيا، ثم معظم قاطني مكدونيا الحديثة وبلغاريا ورومانيا.

٥ ـ حضارة مولداڤيا وأوكرانيا الغربية، حيث تشكلت حضارة «كوكوتني»[1] أي تريبولية في روسيا، بعد الحضارات المحلية الحجرية الحديثة.

---

(١) الحضارات الأوروبية القديمة. برزت في اوكرانيا بين نهري سيريت وبوغ، وامتدت إلى الدنيبر، حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م.



وتشهد تجمعات بقايا الحضارة، على استمرارية المجتمعات الزراعية. وفي إقليم الدانوب، مارس السكان أشكالاً زراعية بدوية متنقلة. وشيدت المنازل إما حول بناء مركزي، أو بشكل صفوف متوازية. وتألف البيت النموذجي من أعمدة خشبية، تدعمه مواد الجص والطين ونبات القصب، وكانت هذه المنازل على شكل شبه منحرف» يغوص قليلاً في الأرض، عكس ما كانت عليه بيوت إقليم البحر الأبيض المتوسط، المتسم بالجفاف، والمؤلفة من الطين والفخار في الجدران، والحجارة في الأساس.

## البلقان في القرون الوسطى حتى الفتح العثماني:

عندما تحطمت الإمبراطورية الرومانية الغربية، ومع استيطان القوط الألمان في إيطاليا، في العقود الأخيرة من القرن الخامس الميلادي، عادت البلقان للخضوع إلى سيطرة امبراطورية القسطنطينية الشرقية. ولكن الغزو البربري الذي جرى في ذلك القرن، ترك البلاد في حالة من الخلخلة البشرية، فانجذبت إليها موجات مستمرة من السلاف المستوطنين الجدد.

واستقر هذا الشعب الهندو أوروبي، في وادي «ڤيستولا العليا» وسط بولندا، إبّان الهجرة ما قبل التارخية، التي جلبت معظم أسلاف أوروبا الحديثة من آسيا. وشيدت القبائل البربرية حكمها بسهولة، على شكل نظام قبلي قومي سلاقي وسياسي. وأصبح السلاف غير الرحل، الذين مارسوا الزراعة بأسلوب متطور نسبياً، والذين اعتنوا بالصيد وتربية الدواجن، فريسة سهلة بين أيدي موجة بدوية قوية نشيطة ومتحدة، انتشرت عبر شرقي أوروبا، وفرضت حكمها على النظام السلافي الذي مارس نوعاً من الديموقراطية.

ونتيجة لذلك، انتشرت قبائل السلاف، في جنوبي روسيا وبانونيا ـ المقاطعة الرومانية السابقة، التي تشكل جزءاً من النمسا الحديثة وهنغاريا ويوغوسلاڤيا الشمالية ـ. وبعد السيطرة الاستعمارية، ومن هاتين المنطقتين،

بدأ السلاف حركتهم المضطردة الرسوخ في البلقان.

عبرت المجموعات السلاڤية، حوض الدانوب الأسفل، بحلول سنة ٥١٧ م. وهاجمت تراقيا ومكدونيا وتيسالي، ووصلت إلى أبيروس. وتحرك الآخرون في المقابل إلى زاوية البلقان الجنوبية الغربية، باتجاه ساحل دالماشيا. وهكذا لم تترك محاولات الإمبراطور البيزنطي «جوستينان الأول»، ومناوراته العسكرية، في كافة أرجاء امبراطوريته، كفاية من القوات تذود عن حدود وادي الدانوب في منطقته.

وحاول المتنفذون في القسطنطينية، تحييد الذراع الشمالي الشرقي لفكي الكماشة السلاڤية التي تحاصر البلقان، بمنحهم السلاف في الدانوب الأسفل، وضعاً يقدمون بموجبه حراس حدود للإمبراطور. ومع ذلك فقد أصبح السلاف بحكم التابع للآڤار ـ تلك القبائل التركية البدوية الحديثة ـ التي ظهرت جنوب السهوب الروسية.

وحاول الآڤار ـ وهم أقرباء الهون ـ إتباع أساليب أسلافهم. وطردوا فلول القبائل الجرمانية من سهل «بانونيا». وأقاموا دولة جديدة، لم تلبث أن فرضت سيطرتها على المستوطنين السلاف، في تشيكوسلوڤاكيا الحديثة والبلقان، وشمالي الدانوب الأسفل جنوبي روسيا.

ومارس الآڤار، وتابعيهم من السلاف، حملات النهب والسلب في البلقان. وتقدموا شيئاً فشيئاً، حتى تمكنوا من الوصول، والسيطرة من ثم على العديد من الأراضي جنوب قمة «بيلوبونيس»(١). واقتربوا كثيراً، أثناء تحركهم شرقاً، من جدار تراقيا الضخم، والخط الدفاعي الأول، للإمبراطورية البيزنطية.

إن تدمير البلاد، من قبل الغزاة المنتصرين، يبدو طبيعياً، عندما تنتصر

(١) تقع شبه جزيرة بيلوبونيس الجبلية الضخمة في اليونان. تبلغ مساحتها ٢١٤٣٩كم٢، اشتق اسمها من بيلوبوس نيسوس، أي جزيرة البطل الأسطوري بيلوبوس.



شريعة الغاب. فالمنتصر الجديد، شيد مستوطناته السلاڤية الدائمة، على أنقاض القرى المدمرة. ولم يتمكن جيش بيزنطة، من صد الجيوش السلاڤية الآڤارية، ومهاجمتها، إلا عندما انسحب من جبهات أخرى. وانبرى لقتالها في شبه الجزيرة البلقانية بعد عام ٥٩١ م.

ولم يبشر الوضع الجديد، بكثير من الأمل والرجاء. فسرعان ما ثارت القوات البيزنطية المنوط بها دحر قوات الآڤار إلى ما خلف الدانوب عام ٦٠٢ م. واضطر امبراطور القسطنطينية، إلى دفع الجزية للآڤار نتيجة الإضطرابات الخطيرة. وكان السلاف في الوقت ذاته، يتحركون دون معارضة أو مقاومة تذكر، عبر كافة أرجاء البلقان، ويعيدوا استيطانها من جديد. ويحتمل تبقي بعضاً من السكان الزراعيين الأصليين، من بين أولئك المستوطنين، رغم لجوء العديد منهم، إلى ما حول المدن البيزنطية المحصنة، وخاصة الناطقين منهم، باللاتينية والإغريقية، على طول الساحل، حيث ضمنت سلامة هذه المدن.

وأوشكت «سالونيك» ـ وهي رائدة مدن مكدونيا، وثاني أغنى مدن الإمبراطورية البيزنطية ـ أن تسقط بأيدي السلاف لمرات عدة. وسقطت «سينفيدونوم» أي ـ بلغراد ـ و«نيسوس» أي « نيش ـ و «سارديكا» أي ـ صوفيا ـ و «سيرميوم» أي ـ أي سريم في يوغوسلاڤيا. وهي القلاع الحامية لحدود أوسط الدانوب، بأيدي الآڤار والسلاف، من جراء الحصار المحكم.

وتوقف الحكم البيزنطي نهائياً عن تلك المناطق. وأسقطت المقاطعات البلقانية، من أيدي الامبراطور «هرقل»، فتقدم بالمال الوفير لخان الآڤار، كي يصون عاصمته القسطنطينية، قبل أن يكون قادراً على تحدي التهديد الفارسي الجاثم فوق حدود امبراطوريته من الجهات الشرقية.

وقام الفرس والآڤار بهجوم ثنائي عام ٦٢٦ م. وجرى حصار القسطنطينية وكادت أن تسقط لولا مناعة الأسوار الأسطورية وورادع القوة البحرية. وفشل الهجوم تبعاً لهذه المعطيات. وبدأ من ثم الإنحطاط السريع

لكلا الدولتين. فالضعف كان قد حلّ بالآفار من قبل، عندما هددهم الإمبراطور هرقل في تشيكوسلوفاكيا بدعوته اثنتان من أقوى القبائل من وراء جبال الكربات ومن الصرب للاستيطان في أراض يحكمها الآفار شمال غرب البلقان. وثار الرعايا السلاف في تشيكوسلوفاكيا، وتمكنت هذه القبائل المدعومة من الأسطول البيزنطي، وبعض المدن المتبقية على ساحل دالماشيا، من السيطرة منذ البداية على دالماشيا، ومن ثم على أراضي كرواتيا وصربيا بيوغوسلافيا الحديثة، التي امتزج سكانها بالمستوطنين السلاف القدامى. وسنقوم الآن بإعطاء لمحة عن التاريخ البلقاني الوسيط:

## ١ - اليونان بين القرنين السابع والخامس عشر الميلادي:

لم يكن الدمج الذي جرى إبتداء من منتصف القرن السابع الميلادي، في جنوب البلقان وخاصة في تراقيا، اليونان، جنوب مكدونيا، يقتصر على المظاهر الحياتية البيزنطية، بل تعدى إلى جوانب أخرى، تفشت في أرجاء العالم الناطق بالإغريقية. كان أهمها الإشعاع الثقافي البيزنطي، فطرق أبواب السواحل الإغريقية، وحول المستوطنين الجدد إلى أتباع للنصرانية الإغريقية. وقدم الموظفون البيزنطيون، مع تقدم المؤسسات الكنيسية البيزنطية، وأسهم سكان القرى الناطقين بالإغريقية التي احتلها السلاف، في توفير ارضية خصبة. وتجمع القادمون الجدد في أماكن عدة، وشدت من أزرهم الحملات العسكرية التش شنت ضد المتمردين السلاف ومحاولات سكان آسيا الصغرى بقصد التوطين.

تجلى الإحتواء البيزنطي لجنوبي البلقان، في تشييد الوحدات المنظمة داخل أراضي «سكلاڤينيا» فالمؤسسات الإدارية المنظمة، وجدت في نهاية القرن السابع الميلادي، منتشرة في تراقيا وجنوب شرق إقليم بلاد اليونان الرئيسية.

أما في «بيلوبونيس» و«مكدونيا» فإن العمل في إقامة شبكة من الوحدات الاستعمارية انتهى في نهاية القرن الثمن الميلادي. ومن ثم غطت جنوب



البلقان وشمالي الأبيروس وجنوبها وألبانيا ونيكوبوليس(١)، في القرن الذي تلى.

إن ما يعرف اليوم باسم بلاد اليونان، أصبح من الوجهة التاريخية والإقليمية تاريخاً للامبراطورية البيزنطية، واتصف بخاصتين: نمو القبائل السلافية المنعزلة في الجبال عرضياً، والتعرض للهجوم البلغاري الصربي الأوروبي الغربي.

وتعرضت اليونان للأخطار، وتجلت مخاطر الغرب ضدها، في تعرض شمالها للنهب والسلب من قبل البلغار والصرب فيما بعد، وفي تحرك شهية الأطماع النورمانية الصقليّة، كخطوة متقدمة نحو القسطنطينية عاصمة بيزنطة.

وغطت شبكة الوحدات الاستعمارية جنوب البلقان وأكمله. ولم يمض وقت طويل حتى شن النورمان ثلاث حملات أتبعت برابعة قبل الحملة الصليبية التي بدأت عام ١٢٠٢ م عبر الأراضي اليونانية وكانت مقدمة ودلالة تنظر بالخطر المحدق في تلك البلاد.

وحكم اللاتين القسطنطينية عام ١٢٠٤ م. ولم يجد قادة الفرنسيين والإيطاليين سوى قليل من العناء في فرض سطوتهم على معظم يونان وقتنا الحاضر.

ونصب «بونيفيس»(٢) ملك «مونتفيرات» ملكاً على سالونيك، فأوجد هناك الدويلات التابعة مثل دوقية أثينا التي اشتملت على «آتيكا» و«بوتيا» وإمارة Achaea(٣) التي انجزت البيلوبونيس. وحكمت «ڤينايس» معظم الجزر اليونانية، والعديد من الموانيء الرئيسية.

---

(١) مدينة قديمة تقع في غربي اليونان. كانت في يوم من الأيام عاصمة الإقليم الساحلي وجنوب أبيروس.

(٢) هو أحد قادة الحملة الصليبية الرابعة [١٢٠٢ - ١٢٠٤] (٥٩٨ - ٦٠٠ هـ). أصبح ملكاً على سالونيك وكرواتيا وتيسالي وجزءاً من تراقيا، بعد استيلاء الصليبيين على القسطنطينية.

(٣) وهي آخيا اليونانية الحديثة. تقع على الساحل الشمالي من البيلوبونيس. ولكنها في الماضي احتوت جنوب شرق تيسالي.

وبحلول الحكم اللاتيني، سيطرت حكومة يونانية في المنفى على غرب البلاد وأقامت دولة أبيروس.

وتوسعت حكومة أبيروس، ومدت نفوذها شرقاً وشمالاً ووصلت حتى سالونيك عام ١٢٢٤ م وكانت سلطتها ضعيفة على ممتلكاتها الجديدة، وبذا ضاعت معظم الأراضي وانتقلت لمصالح البلغاريين، أو لقبضة الأمير البيزنطي المنفي في «نيسيا» بآسيا الصغرى والذي احتل سالونيك.

واضطر حكام أبيروس وتيسالي تقديم التبعية للامبراطور البيزنطي المعادي. ومن ثم الإندماج.

ومضت ثمانون سنة، أشرفت في نهايتها دول اليونان المستقلة على النهاية. واعترفت بنظام حكم القسطنطينية حتى القبائل الألبانية المنتشرة عبر اليونان في منتصف القرن السابق. وامتدت أراضي بيزنطة لتحد دوقية أثينا الخاضعة للعصابات المرتزقة الرحالة عام ١٣١١ م (٧١٠ هـ).

واستعاد البيزنطيون حكم القسطنطينية عام ١٢٦١ م، وحصلوا على موطيءقدم لهم في أقصى الجنوب. ثم مدوا نفوذهم فوق كامل التراب اليوناني. وسيطرت بيزنطة بحلول عام ١٣٤٠ م على كامل بيلوبونيس، عدا بعض الموانيء الخاضعة للبنادقة. ودعيت المنطقة بإمارة روما البيزنطية. وعين لها حكام ونواب للملك من قبل القسطنطينية. ولمدى جيل كامل، فرضت طاعتها على أثينا ـ الدوقية اللاتينية ـ وعلى معظم آتيكا[1].

وبدأ التغير يهز أرجاء البلقان مع أربعينات القرن الرابع عشر. وتورط الأمبراطور البيزنطي في الحروب الأهلية، وتعرضت البلاد لهجوم صربي كاسح، اخترق معظم مكدونيا واليونان ووصل حتى خليج كورنيت.

وفي هذه الآونة، أقام العثمانيون، أولى مستوطناتهم الدائمة في أوروبا،

(١) آتيكا: مقاطعة يونانية قديمة تقع في الوسط وإلى الشرق من البلاد. أهم مدنها الرئيسية أثينا. يحدها البحر من الجنوب والشرق.



كما سنرى. وخضعت اليونان في خلال مائة عام تلت تدريجياً للكيان العثماني. ووقعت المدن اليونانية الأوروبية الواحدة تلو الأخرى بأيدي العثمانيين. واحتل الأتراك موره عام ١٤٦٠ م.

## ٢ ـ بلغاريا:

تعرضت قوة الآفار للضعف في القرن السابع الميلادي. وخضعت بلاد البلقان بالتالي لنوع جديد من التهديد مارسه البلغار هذه المرة. فمن هم البلغار؟ إنهم خليط من الدم الهوني والتركي، شكلوا فيما سبق جزءاً من امبراطورية الهون في روسيا. وبدأت قبيلتهم تعبر الدانوب بعد التخلص من سلطان الآفار. واستعادت بعض الأراضي والمياه من يد بيزنطة وحققت نصراً مؤزراً.

وتمكن البلغار بقيادة (أسباروخ) خانهم الكبير، من وضع أيديهم على شريط من الأراضي يمتد بين نهر الدانوب وجبال البلقان. وسرعان ما تم إخضاعها للسلاف. وتشكل كيان الدولة الجديد من حفنة من النبلاء البلغار الأتراك المتنفذين. وفرضوا سيطرة قوية على السكان. وعززوا مركزهم بحيث طالبوا الامبراطور البيزنطي بالجزية. فكانت بلغاريا عاملاً رئيسياً وفعالاً في التاريخ البلقاني.

وحلّ عام ٧٩٦ م (١٧٩ هـ) وذاق الآفار الهزيمة المرّة على أيدي شارلمان، ثم لم يستعيدوا عافيتهم. وتوسعت رقعة ـ الدولة البلغارية ـ إلى المدى الأوسع. وانتزعت (سارديكا) أي صوفيا ـ القلعة الحصينة من أيدي البيزنطيين. وحاصرت أدرنه.

وثارت بيزنطة لهزيمتها المنكرة. ورد البلغار بعملية معاكسة أودت بحياة الامبراطور البيزنطي. ثم لم يمضي إلا سنين، حتى تمكن الخان البلغاري (كروم) المتصف بالشجاعة والهمجية والدهاء المتحضر، من غزو مكدونيا ونهب ١١٠٠ رطل من الذهب منها، وهي التابعة للدولة الرومانية الشرقية، وأحرق

صوفيا ونهب ضواحي القسطنطينية. وكال الإمبراطور البيزنطي (نقفور) له الصاع صاعين وأحرق عاصمته. ولكن تمكن كروم من ايقاع الجيش اليوناني في كمين نصبه في أحد ممرات الجبال، وقتل نقفور واتخذ من جمجمته قدحاً لشرابه. وحاصر القسطنطينية عام ٨١٣ م (١٩٧ هـ) وأحرقها.

وعادت الامبراطورية البيزنطية تستعيد قوتها بحلول عام ٨٦٤ م (٢٥٠ هـ). ثم تمكنت من إجبار الحاكم البلغاري الجديد «بوريس الأول»[1] [٨٥٢ - ٨٨٨ م] (٢٣٩ هـ - ٢٧٤ هـ) على قبول المعمودية من الإرساليات التبشيرية، وإنشاء فرع للكنيسة البيزنطية. وأن يصبح الدين النصراني البيزنطي دين بلغاريا الرسمي. وبذلك انفتح المجال أمام طوفان المد الثقافي البيزنطي، واعتنق البلغار النصرانية.

وعندما حاول قدامى الأتراك الارستقراطيين، التصدي لهذه الموجة البيزنطية، انبرى لهم الخان (بوريس) الذي دعي ميشيلاً بعد تنصره. وسحق معارضتهم بدعم من السكان السلاف. واصبحت تلك البلاد سلافية الطابع، بيزنطية الثقافية. وشهد ابن بوريس وخليفته المدعو (سيمون) [٨٩٣ - ٩٢٧ م] (٢٧٩ - ٣١٥ هـ) قمة المجد في التاريخ البلغاري الوسيط. فهو يعد أعظم ملوك النصارى في زمانه. وقد وسع رقعة بلاده لتشمل أراضي الصرب والأدرياتيك. وشن عدة حروب ضد بيزنطة ولقب نفسه امبراطوراً وحاكماً مطلقاً لجميع البلغار واليونان.

أما عاصمته [برسلاف][2] فأصبحت أكبر مدينة في البلقان كلها.

---

(١) وهو أعظم حكام بلغاريا في القرون الوسطى. قام بدور كبير في تحويل السكان إلى النصرانية. وأوجد أول كنيسة وطنية وأول تراث أذلي سلافي، تبنى العقيدة الأرثوذكسية تمرد خصومه الوثنيين. اعتزل الحكم والحياة السياسية عام ٨٨٩ م (٢٧٥ هـ) ليصبح راهباً. طرف ابنه المتعاطف مع الوثنيين بإقصائه عن العرش عام ٨٩٣ م (٢٧٩ هـ) واستبدله بإبنه الآخر سيمون. توفي في برسلاف عام ٩٠٧ م وكرمته الكنيسة الأرثوذكسية.

(٢) برسلاف: مدينة تقع شرقي بلغاريا عند سفح جبال بريسلاف. استوطنها الأتراك منذ القرون الوسطى. ثم دعيت فيما بعد اسكي استانبول - كانت عاصمة بلغاريا تحت حكم سيمون.



ويصفها أحد معاصريه بأنها من أعجب ما تقع عليه العين، مليئة بالقصور الشامخة الكثيرة الزخارف. ويبدو أن الجيش البلغاري الذي لا يهزم، سيطر على معظم البلقان. وتوسعت رقعة الدولة وامتدت من البحر الأسود حتى بحر الأدرياتيك، ومن الدانوب الأوسط حتى شمالي اليونان.

أما الإمبراطورية البيزنطية في أوروبا فقد انكمشت رقعتها، وانحصرت في تراقيا ومكدونيا الجنوبية واليونان والجزر وشريط ضيق يمتد على ساحل الأدرياتيك. وتعرضت لهجمات البلغار بشكل مستمر. وطوق الجيش البلغاري القسطنطينية عام [٩١٣]م (٣٠٠ هـ). وأجبر حكومتها البيزنطية على تتويج (سيمون) كقيصر ليصبح الإمبراطور الوحيد في بيزنطة. ولكن حلمه سرعان ما تبدد.

إن التوجيه البيزنطي الشرقي، يبدو واضحاً في إصلاحات سيمون الداخلية التي نفذها في بلغاريا.

**فأولاً**: تحولت دولته التي يمثل الأتراك فيها نسبة قليلة، إلى دولة مركزية دينية لقيصر بيزنطي جديد.

**وثانياً**: جرى تقليد النظام الإداري البيزنطي من القمة إلى القاعدة نزولاً حتى كافة الألقاب الرسمية والحفلات والأزياء، وحتى الفلاحين فقد أكرهوا على أشكال من العبودية الريفية البيزنطية، في أراضي النبلاء البويار الكبار.

**وثالثاً**: أدخل سيمون التغييرات الهامة، في محاولة لحماية الكنيسة واكتسابها إلى صفه وشجعه الأكليروس - رجال الدين المسيحي - الناطقين بالسلافية. وبدأ بجعل اللغة السلافية، لغة الطقوس الدينية الكنسية، بين صفوف رعاياه في بلغاريا. وهذا ما سمح له باستبدال الطقوس اليونانية عند خواص رعيته.

**ورابعاً**: فإنه جعل للكنيسة البلغارية، بطريركية مستقلة، تتلاءم مع

دولة يحكمها قيصر. وبذا أصبح للشعب البلغاري. رمزاً دينياً وسياسياً يمثل الوحدة الوطنية. وتحولت العاصمة البلغارية الجديدة (بريسلاف) إلى مركز ثقافي بيزنطي، يهيمن عليه القيصر.

**وخامساً:** فقد اعتمد الطراز الغربي في التغييرات الكنيسية وغيرها. فكانت عاملاً في جلب السياح والزائرين من جهة، ومنافساً فنياً للقسطنطينية ذاتها.

**وأخيراً:** قام الحاكم بعملية دعم وتأييد، لمشروع تفسير وترجمة النصوص والطقوس الكنسية البيزنطية، والأدب والكتابة والأعمال القانونية، وصاغها في قالب جديد، معتمداً اللغة السلافية.

وهكذا، نثر القيصر، بذور ثقافة سلافية بيزنطية وحدوية عبر الأراضي البلقانية، انطلقت من (بريسلاف). ولم يلبث أن جابهته المعارضة. ورفض العدد الغفير من الرعايا ما اصطنعه وفرضه من دولة وكنيسة وثقافة، وتشكل إتحاد ضم جبهة روحية عريضة، قامت قواعدها على مبادىء نظرية من التقى والورع وهي ما دعي باسم طائفة (البوجوميل)[1] الرافضة لكل مادي باعتباره

(١) البوجوميل أعضاء فرقة دينية ازدهرت في البلقان بين القرنين العاشر والخامس عشر للميلاد. كان انبثاقها حوالي منتصف القرن العاشر من بلغاريا. اندمجت فيها الأفكار المثنوية والمانوية الحديثة. وأثرت فيها بعض الفرق الأرمنية والتي انتشرت أيضاً في آسيا الصغرى، واحدى الحركات السلافية المحلية الهادفة الإصلاح باسم الإنجيلية النصرانية والكنيسة الأرثوذوكسية البلغارية بأتباعها الجدد.

نعتت هذه الطائفة بهذا الإسم نسبة لمؤسسة الحركة القس «بوجوميل» الذي استندت تعاليمه على الثنائية الكونية التي تدعي بأن العالم المرئي الظاهر مخلوق من الشر. وهكذا فقد عارض اتباعه التجسد، ورفضوا الفكرة النصرانية من جانبها المادي. ورفضوا التعميد، كما احتقروا الصليب والمعجزة والكنائس الضخمة المشيدة، ونظام الكهانة، والتنظيم الأرثوذوكسي الكنسي العام. وأدانوا المناسبات الرسمية التي يقترب فيها الإنسان من المادة وخاصة الزواج وأكل اللحم وشرب الخمر.

انتشرت طائفة البوجوميل، خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، في العديد من أقطار أوروبا وآسيا الخاضعة للحكم البيزنطي، وأدت انحرافاتها الهرطقية عن الكنيسة اضطهاد =



شراً، وتحول نصف الفلاحين إلى مسالمين.

وهرع القيصر لتشكيل إتحاد داخلي في وجه الخطر الجديد. ولكن الحركة الفتية البوجوميلية هزت أركان ائتلافه، وانتشرت في البوسنه وصربيا. وازداد مركز القيصر ضعفاً واضمحلت هيبته. فغادر بلغاريا وهي تغط في حالة من الفوضى ولا تقوى على مجابهة ما خبأ القدر لها من نكبات عندما دق أبوابها خطر الهجوم البيزنطي عام ٩٧١ م (٣٧٠ هـ) واستردت صربيا استقلالها.

وازداد تدهور الأحوال سوءاً، فقام الإمبراطور (جون الأول) ينتهز الفرصة ويلحق بلغاريا الشرقية بممتلكاته، ويعيدها إلى أحضان الامبراطورية اليونانية عام ٩٧٢ م. وألغى الكنيسة البلغارية وبطريركيتها. وحمل القيصر أسيراً إلى القسطنطينية.

ومضت خمس سنوات على انتصارات جون الأول. وانفجرت إثرها ثورة في مكدونيا ثم تشكل كيان بلغاري جديد يقارب ما كانت عليه الحال في عهد سيمون. وقاد الأبناء الأربعة لأحد أبناء حكام المقاطعات الثورة. ونصبوا

= اتباعها بشكل عنيف. فقد شهدت القسطنطينية حرق قائدهم أمام الجماهير ووضع ١١٠٠ رجل من الاتباع في غياهب السجون.

توسع انتشار الطائفة غرباً في النصف الثاني من القرن الثاني عشر. واضطر الحاكم الصربي ستيفان نيمان الدعوة لاجتماع عام بقصد التشهير بها. والأمر المهم هو امتداد الطائفة إلى البوسنة، حيث عدّل السكان موقفهم هناك وعرفوا باسم (باتارين) أو الدين البوسنوي. واعتنق الحكام والنبلاء العقيدة ثم تطورت في أواخر القرن الثاني عشر وحتى القرن الخامس عشر إلى حركة وطنية.

كان للحركة إفرازات أتث في ايطاليا وفرنسا. وفي أوائل القرن الثالث عشر، شكلت الجاليات المثنوية في جنوب أوروبا شبكة امتدت من البحر الأسود حتى المحيط الأطلسي.

واستمرت قوة البوجوميل حتى أواخر القرن الرابع عشر حيث أخمدت وذبلت بعد شمول الحكم العثماني وانقلب إلى الإسلام الكثير من أتباعها في البوسنة والهرسك ولا تزال آثارها باقية حتى اليوم.

أصغرهم قيصراً. وجعل عاصمته (أوهريد)[1] وبعث الكنيسة البطريركية الوطنية.

ومن أوهريد العاصمة، تمكن صموئيل من حكم الإمارات الصربية (تيسالي وأبيروس) ومعظم ألبانيا ومكدونيا عدا سالونيك. ولكن الحرب الطويلة نشبت ضد بلغاريا عام ١٠١٤ م. وتولى قيادتها الامبراطور البيزنطي [باسيل الثاني]. وسمل أعين ١٤ ألف جندي بلغاري من الأسرى. وترتبت على هذه المجريات نتائج كبيرة وخاصة تسارع الإنحلال في جسم الإمبراطورية البلغارية الأولى.

وخضعت البلقان لمدة قصيرة للإدارة الامبراطورية اليزنطية من جديد. وقسمت الدولة الصموئيلية إلى أجزاء. وأعيدت الأقسام التي حكمها صموئيل. والتي تقع اليوم في يوغوسلاڤيا، إلى أمرائها المحليين. وادارو البلاد كإقطاعيين بيزنطيين. أما الإمبراطور التالي، فقد الغى الامتيازات التي فرضها سابقه. وأخيراً، ونتيجة السخط والاستياء الذي ولدته الآلام المتصاعدة من ربقة الحكم البيزنطي. ولمآسي الحروب وويلاتها وخاصة الحملات الصليبية، ولغياب الإدارة المركزية القوية في القسطنطينية، فقد برزت أوضاع جديدة أدت إلى قيام الدولة الامبراطورية البلغارية الثانية.

وقاد الانبعاث البلغاري الجديد، الأخوان [بطرس] و[آسن] إلى السلطة. وتمكنا من مسك زمام الأمور في بلغاريا، وهذان الرجلان يرجعان إلى أصل ڤلاشي. وينحدران من سكان [داسيا][2] الرومانيين القدماء. وسرت

(١) أوهريد مدينة رائعة المنظر تقع في مكدونيا بيوغوسلاڤيا، على الشاطيء الشمالي الشرقي من بحيرة أوهريد. ترتبط بخط حديدي وطريق بري وجوي مع سكوپيا. تمتاز بالزراعة وصيد الأسماك والسياحة.

(٢) كانت داسيا في القديم تتألف من المنطقة المشتملة على مرتفعات الكربات وترانسلڤانيا. أما اليوم فهي تقع في شمال ووسط رومانيا الغربية. والداسيون مارسوا الزراعة واستخرجوا من مناجم البلاد الفضة والذهب. وتكلموا اللغة العامية التراقية ثم تأثروا حضارياً بجيرانهم.



ثورتها كسريان النار في الهشيم. وخاصة في أوسط وشرق البلقان. وأجبر البيزنطيون الإعتراف بالثورة وببلغاريا الامبراطورية المستقلة التي يحكمها قيصر البلغار [آسين]. وسمح بتعيين اسقفية مستقلة لعاصمة البلغار الجديدة في [تورنوڤو].

وحاول قادة البلغار إعادة أيام سيمون. وأن يجعلوا [تورنوڤا] مركزاً ثقافياً جديداً. وشيدوا صرح الكنائس الضخمة والصوامع والأديرة، وأقاموا الندوات الأدبية المزدهرة، التي مست صميم التطور الحضاري في مدينة القسطنطينية.

ولم تستطع الحملات العسكرية، ولا الدعاية المضادة لحكم أسين، أن ترجع حكم بيزنطة إلى ربوع بلغاريا. ولا أن توقف التوسع غرباً. فأصبحت بلغاريا أقوى قوة في جنوب أوروبا، عندما نشبت الحروب الصليبية واستولى اللاتين على القسطنطينية عام ١٢٠٤ م.

وفي خضم بحر من الأزمات المتعاقبة المتوارثة، نعت امبراطورية البلغار الثانية القيصر [إيفان آسين الثاني] أحد أعظم حكامها. وبموته اقتربت نهاية الامبراطورية. ثم شق جيش مغولي طريقه عبر تلك البلاد وهو يأكل الأخضر واليابس فدمر اقتصادها. وفرض عليها الجزية الفادحة طوال تسعة وخمسين عاماً.

وأخيراً تحطمت بلغاريا كقوى كبرى. وانتقص الصرب واليونان من أطرافها. وعاشت صراع النزع الأخير من جراء النزاعات. وتمخضت عن تركة إرثية مشوشة خلّفها قياصرة ذووا قناعات سياسية مختلفة. ودعا الكومان والأتراك الحاملو ذكريات الطبيعة البدوية، البدو من وراء الدانوب كي يقووا جيشهم ويعززوا مركزهم، وتضافرت أخيراً عوامل التهديد الخارجي، وآلام الانتكاس الداخلي، في فتح الطريق للقوة الإسلامية الناشئة، وتقدم الحكم العثماني بين عام ١٣٩٣ ـ ١٣٩٦ م (٧٩٥ ـ ٧٩٨ هـ) وفتحها وجعل الدين لله.

## الصرب والكروات:

استوطن الصرب والكروات البلاد المعروفة اليوم بيوغوسلاڤيا. وتحركت الكنيسة الغربية، ودعت ارسالياتها التبشيرية لتحول أهالي (إيلاير كروم)[1] إلى النصرانية. وتقدمت البعثات المسيحية صوب دالماشيا وكرواتيا، واتبعت بأفواج من النبلاء الوافدين من امبراطورية الفرنجة.

وتحرك فرسان (شارلمان)، ليأكدوا ادّعاءهم لغربي البلقان. وهكذا تشكلت جبهة ثقافية غربية هادفة، غرضها فصل كرواتيا ودالماشيا عن الكيان البيزنطي الشرقي.

وسيطر الفرنجة على هاتين الولايتين. وقام الأسطول البيزنطي بتسيير دوريات خفر للسواحل الأدرياتيكية، في الوقت الذي امتدت فيه سطوة الامبراطورية البلغارية النامية حتى غربي بلغراد.

ولجأ الكروات والدلماشيون إلى إيجاد نوع من التوازن مع الفرنج، فتحالفوا مع المدن البيزنطية الساحلية في وقت اخفقت فيه ثورة البانونيين الكروات.

كان (زديسلاف) آخر مؤيد للبيزنطيين في كرواتيا. ولم يمهله (برانمير) الاقطاعي الفرنجي فرصة التحرك وسرعان ما قضى على حكمه عام ٨٧٩ م (٢٩٥ هـ(. ولم يكن بمقدور الأباطرة الرومان الفرنج ضمان سلامة دالماشيا بشكل أفضل من السابق. وعاد دوق الكروات الدلماشيين (توميسلاف) كولي للعهد إلى روما عام ٩٢٥ م (٣١٢ هـ). وجلب الاقطاعيين إلى مملكة كروات بانونيا. ونجح في تنظيم الدفاعات المحلية المقامة في وجه الامبراطور البلغاري [سيمون]. وبذا زهت مملكة كرواتيا طيلة القرن الحادي عشر. وتولى الحكم

(١) تشكل اللاريا، الجزء الشمالي الغربي من البلقان. استوطنها الأليريون منذ القرن العاشر قبل الميلاد إضافة إلى الهند وأوروبيون. وتوسعت في قمة مجدها من نهر الدانوب حتى خليج أبراسيا على الأدرياتيك وجبال شار بيوغوسلاڤيا.



(زڤونومير)[1]، آخر ملك كرواتي وطني ١٠٨٩ م الموافق (٤٨١ هـ) وسرعان ما جرى اغتياله. وعين النبلاء زوج اخته الملك (لاديسلاس الأول) حاكم هنغاريا كي يشغل العرش الكرواتي الشاغر. وجرى الأخذ بهذا التقليد في عهد خليفته وأخيه (كولومان). واتخذ هذا التقليد صفة الاستمرار عام ١١٠٢ م. الموافق (٤٩٥ هـ).

وهكذا أصبح ملك هنغاريا ملكاً على كرواتيا. ومثل هنا باسم نائب الملك. أما المدن الساحلية الباقية بأيدي الكرواتيين فاحتفظت بامتيازات خاصة. ومع ذلك لم تمس التقاليد والأعراف الكرواتية بأذى يذكر. واستمر حكم البلاد من قبل مجلس محلي يديره الرؤساء المنحدرون من أصل كرواتي «زوباني» استقدموا منذ القرن السابع واستمرت القيادة الزوبانية تمارس دورها، فتبت في الأمور الهامة، وتشكل المجالس الملكية والجمعيات الوطنية، وتضمن بعض التقاليد الكروانية القديمة؛ رغم كون الوضع السياسي يرجح إلى كفة الجانب الأوروبي المركزي أكثر من البلقان.

تميز التاريخ الصربي عن التاريخ الكرواتي بأقصى الفروق. فالصرب استوطنوا المناطق الأكثر عمقاً في الجنوب والشرق عند قدومهم في القرن السابع، وانصهروا إلى أقصى الحدود بسبب السلاف سكان ما يعرف اليوم باسم صربيا.

واستمر الغموض في أركان النظام السياسي للمنطقة حتى منتصف القرن التاسع الميلادي بظهور الزوبان الكبير (فلاستمير). وهو الذي وحدّ بعض القبائل الصربية أمام خطر الهجوم البلغاري المهدد. وتطلع «ڤلا سبتمير» إلى

(١) زڤونومير هو ملك كرواتيا. ولد عام ١٠٧٦ م (٤٦٨ هـ). وحكم عام ١٠٨٩ م الموافق (٤٨٢ هـ). نال الدعم من التحالف السياسي الكرواتي اللاتيني البابوي ضد القوميين المتطرفين. ولكن الصراع ضده أدى إلى اغتياله ونشوب حرب أهلية وخضوع كرواتيا للمجر. تقلد التاج البابوي من قبل الباب غريقوري السابع. وأثناء تنظيم البابا اوربان الثاني الحملة الصليبية الأولى، طلب منه المساهمة في القتال ضد المسلمين السلاجقة.

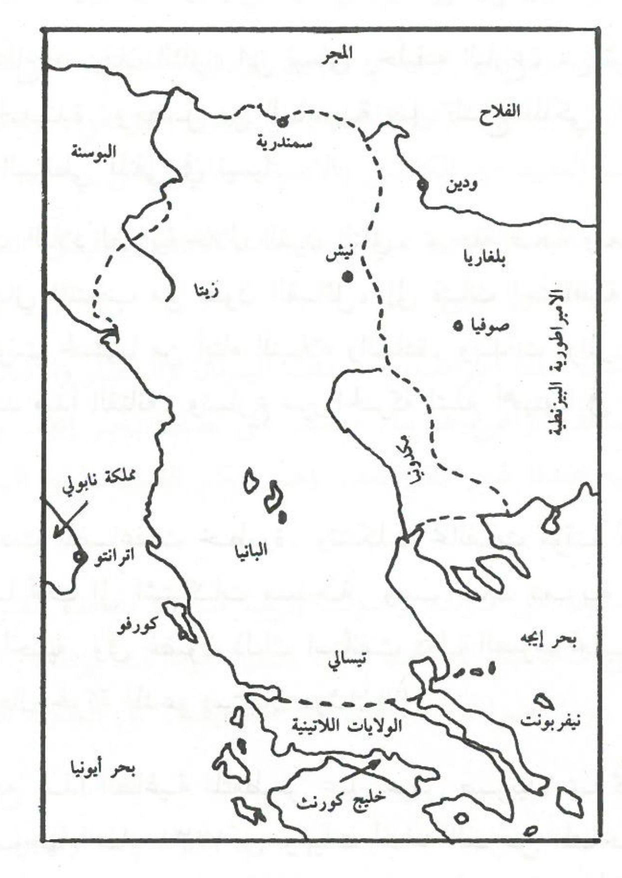
الدعم البيزنطي. وهذا ما يفسر النشاط التبشيري المنظم بين أوساط الصرب، والـذي ساهم في جر صربيـا إلى حظيـرة الحضـارة البيـزنـطيـة، رغم انتشـار النصرانية اللاتينية تلقائياً بين صفوف الكـروات. وفي داخل الأرض الصربية، يبدو اقتصار التأثير البيزنطي على الدعوة إلى النصرانية فمعظم البـلاد انصهرت في بوتقة الامبـراطوريـة السيموينـة البلغاريـة في بدايـة القرن العـاشر. واستمر الحكم الزوباني المحلي كحكم اقطاعي قيصـري اكثر من امبـراطوري بيـزنطي. فالحكم البلغاري الذي أقيم مرة فيـها مضى، يبدو أن إخمـادة قد تم. وتشـابه الأمر بالنسبـة للكنيسة الصربية القليلة الخبـرة، فهي كانت تخضع للبطريـركية البلغارية.

ثم تفسخت امبـراطـوريـة البلغـار بمـوت قيصـرهـا «سيمـون». فتجلت الوحدة الصربية لبعض الوقت تحت الحماية البيزنطية. ومع ذلك فـإنها سرعـان ما انهارت، وانفسح الطريق لقوى الإقطاع الضيقة النظر، التي لم يأفل نجمها إلا بأيدي القيصر البلغاري الجديد «صموئيل».

وهـزم صموئيـل أمام جحـافل البيـزنـطيين عـام ١٠١٤ م (٤٠٤ هـ)، وخضعت صربيا مـرة أخرى لسـطوة التاج البيـزنطي المتـرنح. ومـارس الإدارة حكـام محليون. وبـدأت المشاكـل تطل بـرأسها من جـديد. وأعلن أمـير زيتـا (الجبـل الأسود) ارتـداده عن السلطة البيزنـطية عـام ١٠٣٦ م. وبـدأ يحتـوي الإمارات المجاورة. وتوسع حكمه بحلول عام ١٠٧٧ م فـاستحق التاج الملكي وابتلع معظم الإمارات الصربية تحت امرة «قسطنطين بودوين». وإثر حرب أهلية مات بودوين عام ١١٠١ م فسقطت الـدولة الصـربية، وانتقـل المركز السياسي إلى (راشكـا) في الشمال الشـرقي. ومضت بـرهـة من الـزمن، تسنم بعـدهـا (ستيڤان نيمانيا) مقاليد العرش تحت لقب الزوبان الكبيـر. وأسس أسرتـه التي استمرت في السلطة لأكثر من قرنين من الزمان.

إن مـوت الامبراطـور البيزنـطي «عمانـويل كـومينيـوس» عـام ١١٨٠ م (٥٧٥ هـ)، أذن بميلاد الامبراطورية النيمانية، ولم تعد بيزنطة في وضع يمكنهـا






مملكة الصرب في عهد دوشان عام ١٣٤٠ م.

من إعادة سيطرتها على صربيا. واعتزل (ستيڤان نيماني) معتكفاً في أحد الأديرة عام ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) بعد أن أمضى فترة من الوقت هيمن خلالها على مملكة زيتا الحيوية والأدرياتيك، واعترف به من قبل بيزنطة كحاكم محلي.

واستطاع «ستيفان الثاني» ابن نيماني وخليفته البارع، من ترسيخ الدولة الصربية الجديدة. وحصل من البابوية على التاج الملكي. واعترف به الامبراطور البيزنطي المنفي في نيسيا.

ومرت البلاد الصربية خلال القرن التالي، بمرحلة صعبة ومعقدة للغاية، وتحول الزوباني المنتخب من بطون القبائل، إلى فئات اجتماعية منغلقة على نفسها، تكونت لحمتها من أبناء النبلاء والسادة. وبدأت بوادر الانتفاضات الفلاحية ضد مبدأ القنانة. وتسارع سير الحركة لتبلغ أهميتها في القرن الذي تلي.

وازدادت المضاعفات خطورة. وتشكلت تحالفات مؤقتة أثناء ذلك. وسرعان ما أدت إلى اشتباكات مسلحة. وصراعات دموية على السلطة وتداخلات أجنبية. وفي غضون ذلك استأنفت دولة الصرب تجميع الأراضي. وانفسح المجال لحركة المدعو «ستيفان دوشان»[1].

وتربع هذا الطاغية المتغطرس على عرش صربيا، بما كسبته أيدي المترفين والوجهاء عام ١٣٣١ م. وتهيأت أمامه الفرص المتاحة. واستغل الحرب الأهلية التي شغلت بيزنطة آنذاك. فجنى أكبر المكاسب. وتمكن عن طريق الدهاء والقوة دفع حدود بلاده قدماً باتجاه الجنوب. وابتلع مكدونيا - عدا المنطقة المحيطة بسالونيك - ومعظم ألبانيا.

(١) وهو ابن ستيڤان أروش الثالث. وهذا اللقب الذي أطلق عليه يعني «الروح» كان في عهد والده ولياً للعهد ثم خلفه بعد أن شنقه. وحكم بلاد الصرب بقبضة حديدية لمدى جيل كامل. كان بشع المنظر، عملاقاً. سيطر على البوسنة وألبانيا وأبيروس وايتوليا ومكدونيا وتساليا وغيرها. ونقل عاصمة ملكه من بلغراد إلى «سكبلجه».



وتوج دوشان بحلول عام ١٣٤٦ م (٧٤٧ هـ)، قيصراً من قبل بطريرك الكنيسة الصربية الجديد، وبدعم من بطريرك البلغار التابع للامبراطور الصربي الجديد، وتمكن من السيطرة على أبيروس وتيسالي.

كان (ستيفان دوشان) بارعاً في شؤون الإدارة والحكم. فنمّى التجارة، وأعلن قانوناً شاملاً. وجعل الإدارة المدنية على الطراز البيزنطي. ونعم رعاياه بالرفاهية. وأوقف العديد من الكنائس والأديرة، وناصر الفن.

وفي عهده استأنف الكتاب تسطير صفحات الأدب التقليدي الذي دشن من قبل (سانت ساقا) فيما مضى.

ومات دوشان مخلفاً امبراطورية شملت اليونان والبلغار والألبان فضلاً عن الصرب. فضاعف أراضي صربيا. وسيطر على نصف بحر إيجة. وكان لا يزال نصب عينيه هدفاً غير محقق بعد. وهو حكم القسطنطينية الذي كان يحضّر له.

ومضت سنون على موته، وتحولت إثرها صربيا المتحدة القوية التي استمدت قوتها من شخصيته إلى اتحاد ممالك صغيرة وإمارات بيزنطية. ولم يكن العدو هذه المرة هو الإمبراطورية البيزنطية الضعيفة، بل الدولة العثمانية الفتية.

وبقيت الآمال متعلقة بمملكة البوسنة الصربية، بوصفها الرائدة المحتملة للبلقان. ولكن الأخيرة عانت من مخاطر جسام لأسباب منها:

١ - كنيستها الراديكالية البوجوميلية المتهرطقة.

٢ - قرابتها من الهنغار.

وأخيراً وقعت مكدونيا بأيدي العثمانيين عام ١٣٧١ م (٧٧٢ هـ). ثم جاءت نهاية دول البلقان النصرانية، عندما اكتسح السلطان مراد عام ١٣٨٩ م (٧٩١ هـ)، القوى الصليبية التي قادها الأمير الصربي - لازار - في معركة قوصوه بصربيا كما سنرى في حينه. وتقبل القادة البلقانيون الحكم العثماني الواحد تلو

الآخر. واستولى الأتراك على أقوى وأمنع الحصون في صربيا والبوسنه عام ١٤٦٣ م (٨٦٧ هـ).

### ٤ - رومانيا وألبانيا:

استوطن الرومانيون أو الفلاخ، كما كانوا يدعون، شبه الجزيرة البلقانية منذ القدم. ويمثل الفلاخ، سكان تراقيا اللاتين، الذين استوطنوا (داسيا) الرومانية القديمة. فبعد انسحاب الجيش الروماني من داسيا عام ٢٧١ م، هاجر العديد من سكان سهل الدانوب، إلى داخل إقليم ترانسلفانيا الجبلي. وعاشوا هناك حياة الرعاة البدو، في منجاة من الهجران البربرية اللاحقة في القرن الثاني عشر للميلاد.

ثم تحرك العديد منهم إلى داخل السهول في مكدونيا وتراقيا ودوبرودجيا[1] لاحتلال وطنهم الترانسلقاني من قبل المجر. وما لبثوا أن لعبوا دوراً مهماً بعد تأسيس الامبراطورية البلغارية الثانية بقيادة القيصر البلغاري والفلاخي (إيفان آسين الأول).

يرجع الكيان الروماني، وخاصة ڤالاشيا (أرض الفلاخ) من الوجهة التاريخية، إلى أوائل القرن الرابع عشر للميلاد. وفي حينه تحرك عدد ضخم منهم منطلقين عبر جبال الكربات، إلى السهول العظيمة أسفل الدانوب. واتحدت بسارابيا مع بعض سكان الامبراطورية البلغارية الثانية من الفلاخ، تحت قيادة أميرهم، وتشكلت في وادي (بروت)[2] - مولداڤيا -، الإمارة

---

(١) منطقة تاريخية تقع في شرق أوروبا؛ يحدها الدانوب غرباً والبحر الأسود شرقاً. تخضع للتجزئة السياسية بين بلغاريا ورومانيا. استعمرها الإغريق والرمان والبيزنطيين واجتاحها القوط والهون لعدة مرات. شهدت مسرح عمليات حربية عديدة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بين العثمانيين والروس.

(٢) يجري فيه نهر بروت الذي يرفد الدانوب ويشكل الحدود الشرقية لرومانيا مع الإتحاد السوڤيتي يتلقى النهر مياهه التي يغذيه بها روافد عدة في الكربات الشرقية ومولداڤيا.



الرومانية الثانية عام ١٣٤٩ م، بقيادة (بغدان). وهو الحاكم العسكري الذي عمل سابقاً لدى الحكومة المجرية.

وكانت مولداڤيا - البغدان - كأختها ڤالاشيا - الأفلاق - نتاج الهجرة الفلاخية من ترانسلڤانيا. فالحكومة الهنغارية شجعت عمل الإرساليات الرومانية الكاثوليكية بين صفوف السكان الرومان الارثوذكس الشرقيين. ثم اعترفت الحكومة البيزنطية بالإمارات الرومانية. وعين أساقفتها لدى ڤالاشيا ومولداڤيا. وجرى تبني انماط الحكم التقليدية والبيزنطية باستثناء نظام (فوجفود). الحاكم العسكري المنتخب من العائلات الحاكمة، وطبقه البويار الارستقراطية في كل ولاية.

كان على سكان رومانيا، مواجهة قوتين في آن واحد. الأولى تضغط من الخلف وهي بقيادة حكامهم الهنغاريين السابقين، والأخرى قوة إسلامية ناشئة، هي الدولة العثمانية.

وتمكنوا في البداية من ايقاف الهجوم الثاني. ولكنهم منوا بالهزيمة المنكرة بعدذلك، وخضع الحاكم العسكري الفلاخي للحكم العثماني.
واتخذت البغدان موقف الحياد بين الأفلاق والسلطان العثماني. فاحتفظت بالاستقلال لوقت أطول. ولكنها كانت ضمن من يقدم الجزية للمسلمين بحلول عام ١٤٥٥ م الموافق (٨٥٩ هـ).

إن تاريخ ألبانيا سار بخط مواز لتاريخ رومانيا. ويرجع معظم سكانها إلى بقية الأليريين القدماء الباقية ممن لجأوا إلى الجبال الحصينة على طول الساحل الادرياتيكي أثناء الهجرة السلاڤية الكبيرة إلى البلقان في القرن السادس الميلادي.

وعاش الألبان حياة الرعاة لقرون عدة، وهم لا يكادون يفقهون شيئاً من أمور السياسة. وخضعوا لحكم بيزنطة نظرياً وليس عملياً لوعورة بلادهم.

وجرى التنافس بين دول البلقان منذ القرن العاشر حتى الرابع عشر

الميلادي، بهدف السيطر على ألبانيا وساحلها الهام. وتورط البلغار والصرب وحكام ايطاليا المختلفين ودولة أبيروس اليونانية والامبراطورية البيزنطية والبندقية في هذا الصراع. وهاجر الألبان في أقصى الأرض شرقاً وغرباً هرباً من حمامات الدماء.

ونمت الخلافات بين سكان الشمال الرومانيين الكاثوليك، وأبناء الجنوب، اتباع المذهب الأرثوذوكسي الشرقي. وأخيراً تسلمت حكومات محلية يقودها وطنيون زمام السلطة بعد هروب العديد من ملاك الأراضي اليونان.

وسقطت البلاد فريسة الفوضى والإقطاع. بعد انسحاب القوات الأجنبية، وتقدم العثمانيون وفتحوها مع حلول عام ١٣٨٥ م (٧٨٧ هـ) وتقبل القادة والرعية الإسلام والسيادة العثمانية.



# الباب الثاني

## الفتح العثماني للبلقان

١ ـ أسباب التوسع العثماني

٢ ـ مقدمه تاريخية

٣ ـ على مسرح الأحداث

معركة قوصوه

معركة نيكوبلي

معركة ڤارنا

## ١ ـ أسباب التوسع العثماني :

### لمحة تاريخية :

شهد العالم الإسلامي، إبان القرن الحادي عشر للميلاد، تحرك موجة من القبائل التركية من أواسط آسيا، قاصدة جهة الغرب، فسجل لها التاريخ ، بعد اعتناقها الإسلام، أكبر الأدوار عندما شيدت دولة مترامية الأطراف، اشتملت ضمن حدودها، بلاد فارس والعراق وسوريا وآسيا الصغرى. وقاد «سلجوق» زعامة القبائل وهو ابن الأسرة التي تنحدر من قبيلة الغز التركمانية التي استقرت عند الأطراف السفلية لنهر سيحون قبل أن تعتنق الإسلام.

وقام المقاتلون التركمان، من أقارب السلاجقة، وبدافع الجهاد المقدس ضد البيزنطيين، باحتلال المقاطعات الأسيوية للامبراطورية البيزنطية غرباً حتى بحر إيجة.

وبعد المعركة الحاسمة، التي انتصر فيها المسلمون عام ٤٦٤ هـ، الموافق عام ١٠٧١ م، على جموع البيزنطيين المحتشدة قرب بحيرة (وان) شرقي تركيا. والمعروفة باسم معركة (ملاذكرت)[1]، وبعد هزيمة جيش بيزنطة، وأسر

---

(١) ملاذكرت: تقع بلدة ملاذكرت قرب بحيرة وان الواقعة شرقي تركيا. وفيها جرت المعركة الفاصلة بين المسلمين بقيادة السلطان السلجوقي (ألب أرسلان) والبيزنطيين بقيادة امبراطورهم =

امبراطورها (رومانوس الرابع)، اكتسب القائد التركي المسلم «ألب أرسلان» شهرة واسعة في كافة أرجاء العالم الإسلامي ونشأت ظروف جديدة بعد هذه المعركة. وثبّتت القبائل التركية المسلمة أقدامها في بلاد آسيا الصغرى، بعد تدميرها تحصينات الحدود البيزنطية. واحتلت شرقي ووسط الأناضول، بعد أن تهاوت ثغور بيزنطة أمام المسلمين.

وفي أحد المعارك، قتل (قطلمش) أحد أنسباء ألب أرسلان في ساحة القتال. وشن سليمان ابن قطلميش هجوماً جريئاً على أراضي بيزنطة في شمال آسيا الصغرى. وانتزع بعض البلاد من ايدي أعدائه. وهدد طريق بيزنطة عندما اتخذ (نيقيه)[2] مقراً له. ولكن هذه القاعدة الأمامية، لم تلبث أن خسرها المسلمون، أثناء الحملة الصليبية الأولى. واستمر سليمان جاهداً في محاولة التوسع شرقاً. واستولى على انطاكية عام ١٠٨٤ م ولكنه قتل أثناء هجوم شنه على حلب عام ١٠٨٦ م الموافق (٤٧٨ هـ).

واستمر ابنه «قليج أرسلان» في تنفيذ خطة والده. واقام قاعدة جديدة في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى. وأخيراً تمكن من إرساء دعائم منطقة

---

= «رومانوس» [وهزم الروم وأسر الأمبراطور وأحضر بين يدي السلطان فقال له ألب ارسلان: ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيت؟ فقال: دعني من التوبيخ وافعل ما تريد. فقال السلطان: ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني؟ فقال: أفعل القبيح. قال له: فما تظن أنني أفعل بك؟ فقال إما أن تقتلني، وإما أن تشهرني في بلاد الإسلام. والأخرى بعيدة، وهي العفو، وقبول الأموال، واصطناعي نائباً عنك. قال: ما عزمت على غير هذا. ففداه بألف ألف دينار. وأن يرسل إليه عسكر الروم أي وقت طلبها. وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم. واستقر الأمر على ذلك وأنزله في خيمة. وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها. فأطلق له جماعة من البطارقة، وخلع عليه من الغد. فقال ملك الروم: أين جهة الخليفة فدُل عليها. فقام وكشف رأسه. وأومأ إلى الأرض بالخدمة. وهادنه السلطان خمسين سنة، وسيره إلى بلاده، وسيّر معه عسكراً أوصلوه إلى مأمنه. وشيعه السلطان فرساً»]. الكامل في التاريخ لابن الأثير- مجلد رقم ١٠ ص ٦٧.

(٢) تقع هذه القاعدة الأمامية غربي تركيا اليوم، عند بحيرة إزنيق.



جديدة لنفوذه في الشرق ثم توفي عام ١١٠٧ م أثناء تقدم جنوده إلى الموصل في أحد المعارك.

وأسس مسعود بن قليج أرسلان، دولة إسلامية في قونية، حيث خضعت هذه المدينة للحكم الصليبي أربعة عشر يوماً فقط. وأرسيت فيها بعد دعائم الدولة الجديدة على أيدي «قليج أرسلان الثاني» ابن مسعود. وهو الذي كبّد الإمبراطور البيزنطي «مانويل» الهزيمة الساحقة أثناء عدوان بيزنطي جديد. ومن ثم أرغمه على إقرار صلح.

ثم ضعفت دولة سلاجقة الروم، وتفسخت في عهد أبناء قليج أرسلان الثاني. واستغل «كيخسرو» وابنه «كيكاوس» ضعف الامبراطورية اللاتينية في بيزنطة، وبسطا نفوذهما على جهات الجنوب والشمال، وانفتحت بلادهما أمام التجارة العالمية، وازدهرت اقتصادياً وعمرانياً.

ولكن المال والترف والرفاه أغرى السلاجقة وانغمسوا في مهالكها، وتراخوا عن الجهاد. وأعلن الشعب سخطه على أمرائه المتفسخين إبان عهد «كيخسرو الثاني» عام ١٢٣٩م. واكتسحت موجة من المغول آسيا الصغرى. وسرعان ما انهزم كيخسرو الثاني في «قوز طاغ» أمام جحافلهم. ولكنه تمكن آخر الأمر من انقاذ استقلاله وتوفي فيما بعد.

وتنازع عز الدين وركن الدين ولديه على الحكم من بعده. وتوسط هولاكو بينهما مثلما يتوسط اليوم أعداء الإسلام في ارتدائهم مسوح الحمل بين قادة بعض المسلمين.

ورسم لهما هولاكو خطاً يفصل بين ممتلكاتهما يمر بمحاذاة نهر «قيزيل إرماق»[3] كما يرسم اليوم الأعداء حدود بلادنا الواحدة ويحركوا النعرات من الخفاء.

---

(٣) وهو المسمى قديماً بنهر خالصي. وأطول نهر في تركيا. ينبع من جبل قيزيل شمال وسط الأناضول ويصب في البحر الأسود بين مدينتي سينوب وصمون يتجه إلى الجنون الغربي في البداية. ثم يمر بمدن (زارا) و (سيواس). ثم يتحول إلى الشمال مشكلاً هلالاً كبيراً والتواءات عدّة.

وحاول عز الدين، التحالف مع إخوانه في العقيدة مماليك مصر، فحرمه الأعداء من ممتلكاته. واخضع أخاه ركن الدين لرقابة مغولية صارمة من قبل المغولي «بروانه»[٤] الذي لم يلبث أن خلع ركن الدين ونصب نفسه وصياً على ابنه غياث الدين. وما هي إلا مدة قليلة حتى قضي على استقلال السلطنة السلجوقية.

ولنا في التاريخ دائماً أكبر العبر. فالتتار عندما علموا بأن المسلم التركي، يمد يده لأخيه المسلم المصري، بعدما ذاقوا الهزيمة في مصر، فإنهم سرعان ما تخلصوا من أحد الطرفين انتقاماً ونصبّوا أنفسهم في مركز الخصم والحكم. والتاريخ يعيد نفسه.

وانبعثت روح الجهاد مرة أخرى في الثغور، إثر طوفان المد المغولي المدمر. وأذكى أوارها علماء المسلمين ومشايخ الطرق الصوفية. وأحيوا فكرة الجهاد ضد بيزنطة المنهمكة في استعادة سلطانها على البلقان.

واجتاح الأتراك آسيا الصغرى من جديد. وتشكلت دويلات عدة من قبل أمراء الغزاة كالقرمانيين والحميديين وصاروخان...

ورفع العثمانيون راية النضال ضد بيزنطة بين المجاهدين. فأسلافهم ينحدرون من قبيلة (قايبي) التي دخلت الأناضول مع القبائل الأخرى إثر معركة ملاذكرد السالفة الذكر. فبعد موت سليمان بك، زعيم هذه القبائل قرب حلب عند نهر الفرات غرقاً، تحول ابنه الثالث (أرطغرل) مع مائة أسرة إلى آسيا الصغرى. وفي طريقه شاهد جيشين يقتتلان ويشتبكان في صراع عنيف. فمال بدافع النخوة ونصرة الضعيف جانب الأضعف. وكتب النصر للمستضعف. وعلم فيما بعد أنه جيش علاء الدين سلطان قونيه. وكافأ علاء الدين ظهيره الجديد مستنقعات الحدود مع بيزنطة عند وادي الفرات الغربي

---

(٤) هو عامل مغولي.



و(قره صو)[٥] وجبلي (طومانيج)[٦] و(أرمني طاغ). وخوله سلطة توسيع ممتلكاته على حساب جيرانه النصارى.

وانتقل عثمان ابن أرطغرل المولود عام ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) من (سكود) إلى (فلانجتون) وجعل اسمها (قره جه حصار). وتسلم منطقة الجهاد والسيف بوصفه غازياً. واستأنف الحرب ضدّ بيزنطة. والتحق المجاهدون من كافة أرجاء آسيا الصغرى في صفوفه كما دعمته القبائل التركية، والتحقت جماعات العلماء والتجار والصناع بجيشه.

والتحقت القبائل التركية في عداد قوته أفواجاً وباستمرار. وازداد توسعه بشكل مفاجىء، ووصل حتى شواطىء بحر مرمره والبحر الأسود وبلدة يني شهر[٧] عند مخاضة نهر سقاريا. وأقطع ابنه أورخان بلدة «قره جه حصار» من جديد، في وقت انشغال المغول بالقضاء على سلاجقة قونيه.

وجه عثمان ومن تولى بعده، هجماتهم نحو الأراضي البيزنطية المحاذية للبسفور وبحر مرمره غرباً. فأصبح العثمانيون القوة الرئيسية التي تصون حمى الإسلام في هذه البقعة من العالم. وساعدهم فساد شبكة دفاعات العدو البيزنطي، والمشكلات الإقتصادية والاجتماعية والدينية التي كانت تنخر في جسم بيزنطة، فضلاً عن ميزات المسلمين الروحية والتنظيمية وحب الجهاد.

بدأ العثمانيون يدخلون بوابة التاريخ من أوسع الأبواب تحت قيادة عثمان الأول وخليفته اورخان وابنه مرادخان الأول. واحتلوا أراضي بيزنطة غربي الأناضول أولاً ثم البلاد الواقعة في جنوب شرق أوروبا ثانياً. ولم تجر أعمال عسكرية إزاء الإمارات التركية الشرقية، إلا ابتداء من عهد السلطان العثماني بايزيد الأول.

---

(٥) مدينة صغيرة تمتد مسافة ١٠ كم على طول البحر الأسود. على مصب نهر سقاريا.

(٦) تقع مدينة طومانيج، غربي مدينة أسكي شهر وجنوبي بحيرة إزنيق شمال غربي الأناضول.

(٧) وهي بلدة تقع جنوب بحيرة إزنيق شمال غرب الأناضول.

بعد هذه المقدمة التاريخية البسيطة، نعود للتكلم عن اسباب التقدم العثماني في البلقان بعد أن ألممنا ببعض الظروف التاريخية والحضارية الملابسة.

### ١ ـ عامل الجهاد في سبيل الله:

إن حركة الإسلام تستلهم الواقع دائماً. وهي لا تكتفي بالتبليغ والبيان في مجابهتها العوائق المادية. ولا تستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد.

وهكذا جاء الإسلام مجاهداً لإزالة الطواغيت من الأرض كي يعبد الله وحده. فلا إجبار على اعتناق عقيدته بل إزالة للعوائق التي تحول بين الإنسان وهذه العقيدة.

ولجأ الإسلام إلى مقاتلة الأنظمة التي تحول دون ذلك أو قهرها على دفع الجزية وإعلان الاستسلام. سواء اعتنقت تلك العقيدة أم لم تعتنقها وبكل حرية.

إن الخلط بين منهج الإسلام في قوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾ وبين منهجه في تحطيم القوى المادية التي تحول بين الناس وبينه، جعل حصر الجهاد في الإسلام، بما يسمونه اليوم بالحرب الدفاعية. أما الجهاد فهو أمر آخر يكمن في طبيعة الإسلام ودوره في العالم وأهدافه.

وهكذا قام الإسلام بتحطيم أنظمة البشر الجاهلية، ليحل محلها النظام الرباني. فالحاكمية لن يتولاها رجل دين، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة. ولكن الحكم والأمر أولاً وأخيراً لشريعة الله.

ولكن الطاغوت لا يسلم بذلك ولا يقنع بمجرد التبليغ والبيان. ويبقى هذا الإعلان، إعلاناً حركياً واقعياً لا فلسفياً نظرياً.

إن هذا الإسلام، ليس موضوعه اعلان تحرير الإنسان العربي أم التركي أو غيره، بل موضوعه الإنسان ككل. ومجاله الأرض الرحبة، فالله رب العالمين يهدف إلى رد العباد إلى شريعته. وبذا كان لا بد من توجيه الضربات للقوى السياسية التي تعبّد الناس لغير الله، أي التي تحكمهم لغير شريعته، فتحول



بينهم وبين الانعتاق الحر والبيان الموجه للناس. وبذلك يكون الدين كله لله.

وفي الإسلام، يمكن أن تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام. الذي يقوم على أساس العبودية لله وحده، ولو لم يعتنق بعض أفراد هذه الجماعات عقيدة الإسلام.

من هذا التلخيص، يمكن ادراك حقيقة الإنطلاق الحركي للإسلام، في صورة الجهاد بالسيف إلى جانب اللسان والبيان. فهو لم يكن دفاعياً بمفهوم ضيق. بل دفاع عن الإنسان ذاته ضد ما يقيد حريته من معتقد وتصور وأنظمة.

ومن هنا يمكن أن نواجه حقيقة دوافع الإنطلاق الإسلامي في الأرض بالجهاد. ونواجه طبيعة الإسلام ذاتها. وهي إعلان تحرير الإنسان من العبودية للعباد، وتقرير ألوهية الله وحده، وربوبيته للعالمين. وتحطيم أنظمة الطغيان البشري، وإقامة نظام الشريعة الإسلامية الربانية.

إن وقائع الجهاد، لم تكن لصد العدوان عن وطن... بل لإزالة العقبات المادية بالقوة، كي يتمكن الإسلام من مخاطبة قلب الإنسان وعقله حراً طليقاً. وقد تجلى تقرير الألوهية في الأرض وتحقيق منهج الله عز وجل في الآيات القرآنية العديدة:

﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾.

﴿وقالت اليهود عزير ابن الله. وقالت النصارى المسيح ابن الله. ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل. قاتلهم الله أنّى يؤفكون﴾.

﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم. وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً. لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾.

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم. ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾.

هذه المبررات هي التي كانت ماثلة في نفوس الغزاة المسلمين. دون أن يسألوا عن دوافع الجهاد. فلم يقولوا أخرجنا لنصد عدوان الروم أو الفرس. ولم يخطر ببالهم توسيع رقعة البلاد أو الاستزادة من الغنيمة. لم يجذبهم جمال بحر إيجه ولا طبيعة جزره. ولم تغرهم ثغوره وموانئه كما سحرت الأقوام القديمة فانجذبت نحوه.

كان المسلمون يقولون: ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد، إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ولا ننس أن المسلم كان قبل خوض الجهاد في المعركة، يخوض الجهاد الأكبر في نفسه مع الشيطان، مع الهوى والشهوة والمصلحة والعشيرة والشهرة.

وباستلهام هذه المبادىء الرشيدة، تحرك المسلمون في أصقاع الأرض، ونصب أعينهم الوصول إلى تحقيق ما أمرهم به الله، ولم يكن يخطر ببالهم الجهاد حباً بالتوسع والغزو المادي الرخيص كما ذكرت، بل من أجل الإستشهاد في سبيل الله، ولتكون كلمة الله هي العليا في الأرض وكان العثمانيون من بين الأتراك الذين حملوا راية الجهاد ضد بيزنطة. وحققوا النجاح الكبير كما أسلفت. فهذا السلطان العثماني مراد الأول وهو يحضر لمعركة (قوصوه) التي جرت بين جيشه وجموع الصليبيين، يدعو الله تضرعاً وخشية، أن ينصر المسلمين ولا يهزمهم ويقول: «يا رب، إنني أريد الاستشهاد دوماً من أجل جند الإسلام. وقبل أن تجعلني غازياً يا رب، دعني أموت من أجل مرضاتك دائماً». وأشارت آخر كلمات هذا القائد المسلم العظيم إلى تلهفه لأن يهب حياته استشهاداً في سبيل الله وهو يبتهل إلى الله سبحانه ويتضرع. وقد استجاب الله نداءه.

وهذا محمد الفاتح الغني عن البيان. نقرأ في وصيته لإبنه قبل موته:



«إعمل على نشر الدين الإسلامي. فإن هذا واجب الملوك على الأرض... وسّع رقعة البلاد بالجهاد. إن الدين غايتنا، والهداية منهجنا، وبذلك انتصرنا».

إن القسطنطينية كانت على درجة كبيرة من التحصين. وصمدت أمام الفاتحين مئات السنين. والجهاد في سبيل الله لا يقتصر على بقعة بعينها. وهكذا تطلع العثمانيون صوب فتح أوروبا قبل فتح القسطنطينية. وقبل انهاء غزو الأناضول، في وقت كان المسلمون في الأندلس يتعرضون لأشد المحن التي شهدها التاريخ عندما هددت عقيدتهم في عقر دارها. ولأن العثمانيين كما يروي بعض المؤرخين قد تطلعوا إلى اقتحام البر الأوروبي فتحاً كي ينقذوا إخوانهم في العقيدة.

ومن هنا اندفعت الدولة العثمانية الحديثة العهد بالإسلام، يدفعها التمسك بالدين والحماس له. سباقة إلى الجهاد في سبيل الله. وجعل الأتراك العثمانيون الجهاد هدفاً أسمى يرمون إلى تحقيقه.

**٢ ـ محبة الإسلام والإلتزام بمبادئه وقيمه:**

وهو يلتقي مع العامل الأول. وهو من أكبر العوامل التي شهرها السلف في وجه الباطل. وعن طريقه تمكنوا من فتح معظم العالم المعروف آنذاك. وباستلهام قيم هذا الدين، وتطبيقها على أرض الواقع العملي، من القمة إلى القاعدة، نعم المجتمع الإسلامي بروح العدالة والمحبة والأخوة الحقه. وانطلقت كتائبه تسيح في الأرض تمتشق الحسام والكتاب الكريم. وخرت جبابرة الأرض صرعى في وجهها.

إن الالتزام بأوامر الشرع الحنيف، هو المثل الأعلى للقيادة الإسلامية وديدنها. ولنقرأ الآن بعض ما جاء في كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، حول سيرة أحد القضاة العثمانيين: «... كان من بين علماء

السلطان بايزيد، العالم الكبير، الملا شمس الدين محمد بن حمزة الفناري[8]. وقال ابن حجر العسقلاني. كان الملا الفناري، ماهراً في اللغة العربية، ونال علوماً في علوم البيان والتفسير وتجويد القرآن أيضاً، واشترك في العديد من فروع المعرفة. وكان بيته بين المدرسة وقصر السلطان بايزيد خان... ويحكى أنه خلف عشرة آلاف من الكتب، يروى أنه شهد السلطان المذكور عنده يوماً بقضية فرد شهادته. فسأله عن سبب رده. فقال إنك تارك للجماعة. فبنى السلطان قدام قصره جامعاً، وعين لنفسه فيه موضعاً. ولم يترك الجماعة بعد ذلك...».

**وهذه قصة أخرى من المصدر ذاته:**

«أعطى السلطان مراد، للشيخ أحمد ابن اسماعيل الكوراني[9]، مدرسة جدِّه السلطان الغازي مراد ـ أي الأول ـ. بمدينة (بروسا)[10]، ومدرسة جدّه بايزيد خان وكان السلطان محمد ابن مراد خان، في ذلك الزمن أميراً ببلدة (مغنيسيا)[11]. وقد أرسل إليه والده عدداً من المعلمين ولم يمتثل أمرهم. ولم يقرأ شيئاً. حتى أنه لم يختم القرآن، فطلب السلطان المذكور رجلاً له مهابة

---

(٨) ولد في صفر من عام ٧٥١ هـ. كان يجيد اللغة العربية وعلوم القرآن وله عدة تصانيف درس في مصر. كان والده حمزة الفناري من تلاميذ الشيخ الشهير صدر الدين القونوي. درّس في بروسا وتولى القضاء هناك. توفي عام ٨٣٤ هـ.

(٩) درس في مصر الفقه والحديث والتفسير. وشهد الناس بفضيلته. ولاه السلطان محمد خان قضاء بروسا عام ٨٦٢ هـ وقلده منصب الفتوى... له تفسير القرآن العظيم المسمى «غاية الأماني في تفسير السبع المثاني». تخرج على يديه العديد من التلامذة. كان يخاطب السلطان والوزير باسمه. [illegible] نقي السلطان يسلم عليه ولا ينحني له... ولا يذهب إليه يوم عيد إلا إذا دعاه. توفي رحمه الله عام ٨٩٣ هـ في القسطنطينية ودفن هناك.

(١٠) مدينة تقع إلى الجنوب من بحر مرمره وتدعى بورصه وهي إلى الجنوب من يالاوا. تمتاز بينابيعها المعدنية ومساجدها مثل مسجد أورخان و«أولو جامع» و«ياشيل» جامع» أي الجامع الأخضر. ومتاحفها وآثارها.

(١١) مدينة تقع شمال شرقي إزمير وقريبة منها.



وحده. فذكروا له المولى الكوراني. فجعله معلماً لولده. وأعطاه بيده قضيباً يضربه بذلك إذا خالف أمره. فذهب إليه. فدخل عليه والقضيب بيده. فقال أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري. فضحك السلطان محمد خان من هذا الكلام. فضربه المولى الكوراني في ذلك المجلس ضرباً شديداً، حتى خاف منه السلطان محمد خان. وختم القرآن في مدة يسيرة. ففرح بذلك السلطان مراد خان. وأرسل إلى المولى الكوراني أموالاً عظيمة.

ثم إن السلطان محمد خان لما جلس على سرير السلطنة، بعد وفاة أبيه المرحوم، عرض للمولى المذكور الوزارة. فلم يقبل وقال. إن في بابك من الخدام والعبيد، إنما يخدموك لأن ينالوا الوزارة آخر الأمر. وإذا الوزير من غيرهم، تنحرف قلوبهم عنك فيختل أمر سلطنتك...».

وهكذا جذبت نفوس القادة محبة الإسلام وانصتوا إلى إتّباع هدايته. فصقلت هذه النفوس وصنعت الأعاجيب.

كانت الأيام المجيدة الطيبة، أثناء حكم السلاطين الأوائل. فخفضت الضرائب أو كادت تنعدم. ولم يضطهد أهل الذمة غير المسلمين، ولم يجر الاستيلاء على أموالهم أو ثيابهم أو مواشيهم أو أبنائهم أو بناتهم أو بيعهم، ولم توقف رهينة. وكان الحكام «البادیشاه» غير جشعين، فكل ما يدخل أيديهم ينفقونه دفعة واحدة، ولم يكونوا يعلمون شيئاً عن الكنوز.

كان السلاطين خجولين أمام العلماء، ملتزمين بما يوعظون به من كلام الله. أما إذا اقترفت الرعية ذنباً من الذنوب فإنهم كانوا لها بالمرصاد ـ أي أولئك العلماء ـ وللحكام. وعندما لا تطاع كلمتهم فإنهم ـ يهجرون الحكام وبذا لم تدر لهم الرعية ظهرها ـ أي لأولئك الحكام ـ.

مقابل هذه المآثر التي لا تحصى، أحب العثمانيون سلاطينهم وأخلصوا لهم الوفاء. تعلقوا بهم إلى درجة التقديس أحياناً. لم يخطر ببال فرد خلال سبعة قرون الإنقلاب على حكومته. كيف لا؟ فالسلطان لا يجرؤ على مخالفة الشرع. وهو يستفتي أولي الأمر المختصين في الأمور الدينية وسائر شؤون

الدولة، كي يحصل على رضاء الله تعالى، وكسب تأييد الرعية.

إن الحوافز كانت مفتوحة أمام الجميع بلا تفرقة. وحقوق المواطنين متساوية أمام السلطان. الذي يرعى شؤون افراد دولته بعناية. ويؤكد المساواة التي ينادي بها الإسلام. وهذه المزايا وأمثالها، التي سار على نهجها السلاطين الأوائل، كانت عاملاً في توسيع رقعة البلاد وامتداد الفتوح ونشر الأمن. فالدافع الديني تبدو معالمه واضحة، وخاصة عندما يستنفر السلطان جنده للجهاد. فقوة الدولة هي قوة الإسلام. وفتوحات الدولة هي فتوحات الإسلام.

### ٣ ـ الإعداد العسكري والقيادة الحكيمة:

يقول الله عز وجل: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم. . .» صدق الله العظيم.

إن العامل المعنوي، يحل المرتبة الأولى في تحقيق النصر بلا شك. وهذا لا يعني إغفال الإعداد العسكري والمالي. إن المدفعية العثمانية عرفت منذ القديم بشكل جيد. وخصت بأعظم العناية. فمحمد الثاني جلب صناع المدافع والمدربين والأخصائيين بهذا الفن من ألمانيا والمجر. ومنذ عهد بايزيد الثاني، عرف الجيش العثماني فرقة المدفعية الخاصة «طوبجي» والتي بلغ عدد أفرادها ألف رجل في عهد سليم الأول.

وتكونت فرقة مدفعية جبلية مزودة بما تحتاج إليه من قوافل التموين منذ عهد سليمان القانوني. ولا يزال المدفع العظيم، الذي استخدمه الفاتح عند فتح القسطنطينية، مثار إعجاب ودهشة، في كافة أرجاء العالم آنذاك.

وتميزت خفة الحركة والمهارة، بشكل جلي عند سلاح الفرسان. الذي شكل نواة الجيش في البداية. وأعطى أعظم الثمار في الفتوحات. فالتسليح الخفيف المؤلف من القوس والنشاب والرمح الخفيف والسيف القصير والمجن الصغير والمخضرة الحديدية في بعض الأحيان لعب دوره.



ولجأ العثمانيون، إثر انتصار البنادقة عليهم في «غاليبولي»[١٢] عام ١٤١٦ م (٨١٩ هـ) إلى إنشاء أسطول بحري لعب دوراً فعالاً في عهد السلطان محمد الفاتح.

إن دقة التنظيم الذي تجلّى، في اختيار وتدريب الجند الانكشارية، يعد من أفضل أنواع التدريب التي عرفها العالم آنذاك. فهم دائماً رهن إشارة السلطان، وتحت تصرفه. فهو الذي ربّاهم وعلمهم ورقاهم. فكانوا مخلصين مطيعين. خاف العدو سطوتهم. ولم يقف أمامهم شيء.

إن النظام والهدوء، ساد فرق الجيش العثماني، وامتاز جنده بالطاعة والخضوع لأوامر القيادة وبالصبر على الشدائد.

وتمكنت القيادة الحكيمة، التي حرصت دائماً، على إحقاق الحق ونصرته، من إذكاء شعور عام بالمساواة لدى الرعية. تلك المزايا التي سار على نهجها السلاطين الأوائل، فكانت عاملاً من عوامل توسع الدولة. وهكذا فإنهم كانوا كالأرواح في ارتباطهم ببلادهم. ولم يضحوا فقط بأنفسهم، بل بفلذة أكبادهم وإخوانهم، من أجل سلامة بلاد الإسلام، ومن أجل استقرار الأمن والنظام. وهذه أعلى مراتب التضحية. فالإدارة المركزية القوية، في عصر كثرت فيه الصراعات على السلطة بين الأشقاء، قوّت مركزهم القيادي، في وجه الفتن المحلية والحروب الأهلية. ومكنتهم من توجيه قوتهم الكبرى، إلى صدور أعداء الإسلام، ورفع راية الجهاد خفاقة عالية.

### ٤ ـ بساطة العيش وحياة البداوة:

يقول ابن خلدون في مقدمته: «. . . وأهل البدو، دائماً يحملون السلاح، ويتجافون عن الهجوع إلا غراراً في المجالس وعلى الرحال وفوق

(١٢) بلدة تقع على الشاطيء الشمالي الغربي من مضيق الدردنيل.

الأقتاب. . . وقد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية، يرجعون إليها متى دعاهم داع، أو استنفرهم صارخ». ويقول أيضاً «إنهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأمم. بل الجيل الواحد تختلف أحواله في ذلك باختلاف الأعصار. فكلما نزلوا في الأرياف وتفنقوا النعيم. وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم، نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وجدارتهم. . . وإذا كان الغلب للأمم إنما يكون بالإقدام والبسالة. فمن كان من هذه الأجيال أعرق في البداوة وأكثر توحشاً، كان أقرب إلى التغلب على سواه إذا تقاربا في العدد، وتكافآ في القوة العصبية. . . ويقول عن هؤلاء إنه ليس لهم وطن يرتافون فيه، ولا بلد يجنحون إليه. فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء. فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم، وما جاورهم من البلاد. ولا يقفون عند حدود أفقهم، بل يظفرون إلى الأقاليم البعيدة، ويتغلبون على الأمم النائية. فلذلك تكون دولتهم أوسع نطاقاً، وأبعد من مراكزها نهاية. . .».

ويقول عن العثمانيين في تاريخه، وهو أقرب عهداً بنشأتهم من غيره. «. . . وغلب هؤلاء التركمان، على ما وراء الدانوب، إلى خليج القسطنطينية، ونزل ملكهم مدينة (بورصا) من تلك الناحية. وكان يسمى أورخان بن عثمان جق. فاتخذها داراً لملكهم. ولم يفارق الخيام إلى القصور. وإنما ينزل بخيامه في بسيطها وضواحيها».

وهكذا كانت حياة هذا الشعب البدوي، في غاية البساطة. فلم يفتن بمباهج الحياة ومادياتها. ولم ينغمس في الترف والمفاسد التي ترافق اضمحلال الحضارات. ولم تفسده المدنية أو تسكره الانتصارات، بل استفاد أولئك القوم من تلك الحضارات التي سادت أيامهم. فأخذوا منها أحسن ما فيها. واقتبسوا جيدها وتركوا رديئها. لقد أخذوا من الحضارة العربية، النظام الديني والإجتماعي، ومن الثقافة الفارسية أشياء وأشياء. ومن الإغريق والبلقان، بعض النظم والتقاليد. فاكتملت لديهم صفات القوة وتزودوا بمؤهلاتها.



### ٥ ـ الموقع الجغرافي:

ذكرنا سابقاً كيف شغلت إمارة آل عثمان، في بداية أمرها، مناطق الحدود المتاخمة للقسطنطينية من جهات الشرق. وكيف صرفوا النظر مبدئياً عن فتحها لمناعة تحصينها. وتحولوا إلى الإلتفاف حولها وبناء العلاقات الحسنة المرحلية معها.

إن أورخان العثماني كان على علاقة حسنة مع الامبراطور البيزنطي «يوحنا السادس كانتاكوزين»[١٣] وعندما طلب الأخير المساعدة ضد منافسه «يوحنا الخامس باليالوج»[١٤] انتقل بالتالي سليمان ابن أورخان طبقاً لخطة متفق عليها، إلى تراقيا على سفن بيزنطة عام ١٣٤٥ م لتأمين دعم خليفه.

أما موقع الإمارة العثمانية الجغرافي، فقد مكنها من فتح أحضانها ملجأ للغزاة المسلمين الذين تدفقوا إليها باستمرار بعد كل موقعة. وقيض الله سبحانه لمحمد الثاني فتح القسطنطينية، فزادت قوة الدولة العثمانية الناشئة، وتيسرت فرص الاستفادة من الموقع الجغرافي والحيوي الجديد. ومن شبكة المواصلات المؤدية إلى المدن الرئيسية في الشام والعراق. فتحقق الإمداد بيسر وسهولة، بالعلماء والتجار والصناع. وبالتالي المساهمة في ازدياد قوتها وتنظيمها وقوة الدولة بصورة عامة.

إن فتح (أدرنه) واتخاذها عاصمة الدولة العثمانية، أمّن المركز المسيطر

---

(١٣) ولد هذا الامبراطور البيزنطي عام ١٢٩٢ م الموافق (٦٩١ هـ). وتنازع على العرش الامبراطوري مع يوحنا الخامس باليالوج. وعندما ترك القسطنطينية ليحارب الصرب في تراقيا خلعه خصومه وبقيادة أمه واودعوه السجن. ثم خرج من السجن وتولى الحكم ومن ثم تحالف مع العثمانيين وزوج ابنته للسلطان العثماني أورخان. استعاد القسطنطينية في شباط عام ١٣٤٧ م (٧٤٨ هـ) بمساعدة العثمانيين توفي عام ١٣٨٣ م.

(١٤) ولد عام ١٣٣٢ م. وتولى حكم بيزنطة من عام ١٣٤١ م (٧٤١ هـ) حتى عام ١٣٩١ م (٧٩٣ هـ). تميز حكمه بالحروب الأهلية وتزايد التوسع العثماني في بيزنطة. وعندما نشب صراع بين يوحنا كانتاكوزين الوزير الأول في حكومة اندرونيكوس الثالث، ربح كانتاكوزين المعركة لفترة. توفي عام ١٣٩١.

إدارياً وعسكرياً على تراقيا. فهي القلعة الرئيسية بين القسطنطينية والدانوب. وتتحكم بطريق الحملات العسكرية عبر جبال البلقان. وتكفل قدرة الاحتفاظ بالفتوحات الأوروبية. وتؤمن وسيلة التوسع الأكبر نحو الشمال.

### ٦ ـ تفكك دول البلقان:

على الرغم من التحالف الذي تم بعد موت الإمبراطور «ستيفان دوشان» عام ١٣٥٥ م (٧٥٦ هـ) بين ملك هنغاريا وقيصر بلغاريا، إبان الحملة الصليبية الأولى ضد العثمانيين ـ فإن خلفاءه الضعاف الذين توارثوا الحكم من بعده، انقسموا على أنفسهم.

وعندما حاول الامبراطور البيزنطي «يوحنا الخامس» متظاهراً بقبول الوحدة الكنائسية بين روما وبيزنطة، جلب المساعدات الأوروبية الغربية، فإن النتيجة كانت زيادة الإنقسام والفشل في تلقي المعونة. وعجل الزمن في إلحاق الهزيمة بهم ـ أي الحلفاء ـ في شيرمن عند نهر ماريتزا على يد السلطان مراد.

كان اليونان الكاثوليك، يمقتون الرومان الكاثوليك. وفي جزيرة كريت، كان البنادقة يضغطون على اليونان الكاثوليك، ويعملون السيف في رقابهم.

أما البابا أربان الخامس، فقد انضم إلى بترارك في تهنئة امير البندقية على حماية الكنيسة الواحدة عام ١٣٥٠ م. ونفر الشعب وصغار القساوسة. من كل محاولة لإعادة توحيد المسيحية اليونانية واللاتينية. وكره الحكام اليونان أكثر من الأتراك. وآثر البعض الخضوع للمسلمين الذين لا يفرضون ضرائب أكثر مما يفرضه الحكام المسيحيون كما أن اضطهادهم للهرطقة أقل. وهم لا يضطهدونها على الإطلاق ويسمحون بأربع زوجات.

إن الحرب الأهلية التي تورط بها الامبراطور البيزنطي في القرن الرابع عشر، عرضت اليونان للهجوم الصربي، وتحطمت بلغاريا كقوة كبرى بموت إيفان آسين الثاني، ودب الصراع بين قياصرها، وانقضّ الكومان والأتراك عليها واستنجد الشعب بالعثمانيين.



إن المترفين والفسقه والإنتهازيين الذين كانوا ينخرون في جسم صربيا، هم الذين مهدوا لحكم طاغية صربيا دوشان. وهو الذي قبض على البلاد بيد من حديد تكسرت بموته، وانهار حاجز الخوف الناجم عن شدة جبروته. وأشرفت دولة الظلم على الانمحاء والهلاك.

ويبقى اخيراً نزاع سكان ألبانيا. بين الرومانيين والكاثوليك في الشمال، والأرثوذوكس الشرقيين في الجنوب، الذي اسقط البلاد فريسة للفوضى والإقطاع فاستبدل الله بهم أقواماً خيراً منهم يحبهم ويحبونه.

### على مسرح الأحداث:

فتح السلطان مراد الأول الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه أورخان، بلاد أدرنه وفيليبه وزاغرا[١٥] القديمة. وربح الجولة في معركة «سربا زنديني» وسحق القوات الصليبية. ثم ألحق أراضي قره بيك عام ١٣٦٥ م (٧٦٦ هـ)، إلى جسم الدولة العثمانية واحتل خير أبولو[١٦] وقرق لارلي[١٧] وبيناز حصار وڤيزا[١٨]. والحقت مملكة بلغاريا بالدولة العثمانية عام ١٣٧٠ م الموافق (٧٧١ هـ).

ثم كانت انتصاراته المهمة في معركة شيرمان[١٩]. واستسلمت صربيا بعد أربع سنوات فقط ولم تمض سوى ثلاث سنين حتى استولى على (نيش) وكوتاهيه[٢٠]. ثم فتح صوفيا عام ١٣٨٢ م (٧٨٤ هـ). والتحق أبناء جندلي

---

(١٥) بلدة تقع شرقي بلغاريا قرب الحدود التركية.

(١٦) قرية صغيرة تقع اليوم في الجانب الأوروبي من تركيا الحديثة غربي استانبول.

(١٧) تقع شرقي مدينة ادرنه في تركيا الأوروبية.

(١٨) تقع غربي البحر الأسود في تركيا الأوروبية. تبعد عن البحر حوالي ٤٠ كم.

(١٩) قرية صغيرة جداً أو موقع صغير على نهر ماريتزا «نهر مريج».

(٢٠) كوتاهيه: مدينة اشتق اسمها من كوتيوم المدينة التاريخية. بها قلعة بناها البيزنطيون وجددها السلاجقة والعثمانيون. تقع في وسط الأناضول الغربي. شمال غربي أفيون وجنوب غربي اسكي شهر.

برعايا الدولة في العام التالي. وحوصر الجزء الشمالي من ألبانيا وفتح نهائياً عام ١٣٨٥ م.

وبعد سنة من هذا التاريخ حدثت الحرب مع القرمانيين. ثم أصبحت بلاد سلسترا[٢١] زشتوقي، نيكوبلي، بلقنا[٢٢]، لوفشا[٢٣]، دلي أورمان ودوبردجه من رعايا الدولة العثمانية. ثم حدثت أخيراً معركة قوصوه Kosovo[٢٤] الشهيرة:

### معركة قوصوه:

انتهز الصرب فرصة غياب السلطان مراد في آسيا، وقاموا بمحاولة شن هجوم على العثمانيين. وتصدى القائد العثماني (حاجي إيلبكي) عند (شيرمن على ضفاف نهر ماريتزا لهم وكبدهم أفدح الخسائر. وأدت بهم هزيمتهم الشنعاء، التخلي عن ممتلكاتهم في مكدونيا.

وتقدم العثمانيون إثر ذلك. واحتلوا صوفيا ونيش عامي ١٣٨٥ - ١٣٨٦ م (٧٨٧ - ٧٨٨ هـ). واستطاع القائد خير الدين باشا، توجيه قوة من غاليبولي واحتل مكدونيا، وشيد الجامع الكبير (اسكي جامع). ثم تمكن بمعاونة (آنوس بك) الذي التحق بخدمة سليمان فتح (كوملنجه). وفتحت (سري) التي تنازع عليها الصرب والبيزنطيون إضافة إلى سالونيك.

وأثار توغل مراد في بلاد البلقان مخاوف القيصر البلغاري (شيشمان) وبادر لعقد صلح مع الصرب والبوشناق.

---

(٢١) سلسرا: مدينة تقع اليوم إلى الشمال الشرقي في بلغاريا عند الحدود البلغارية الرومانية.

(٢٢) بلقنا: بلدة تقع شمالي بلغاريا جنوب قلبعة نيكوبلي المحاذة لرومانيا.

(٢٣) لوڤشا: قرب وجنوب بلقنا.

(٢٤) قوصوه: وهي تقع في يوغوسلاڤيا الحديثة. وهي في الإقليم الواقع اليوم جنوبي يوغوسلاڤيا: إلى جنوب بلغراد وشمال غربي سكوبيا عند ملتقى الأنهار: ايبار - فاردار - درانيه - وفي الإقليم اليوم عدد كبير من المسلمين والطابع الشرقي واضح.



وتصدى القائد التركي (لالا شاهين) عام ١٣٨٧ م (٧٨٩ هـ) للجيوش المتحالفة عند بلوشنك. ولكنه هزم لانهماك مراد في شؤون آسية من جهة، ولخروج ابنه ساوجي عليه شاقاً عصا الطاعة بعقده حلفاً مع أحد امراء بيزنطة وأمير قرمان السلجوقي من جهة أخرى.

ولكي يثأر العثمانيون لهزيمتهم الأخيرة في البلقان، عبر (علي باشا) ابن قره خليل جندرلي، أحد الممرات النادرة والغير متوقعة السلوك. واحتل «ترنوه»[٢٥] و«شملا» ثم تمكن من محاصرة «شيشمان» عند نهر الطونه في نيكوبلي[٢٦]. واضطر الأخير عقد الصلح مع الأتراك ودفع الجزية والتنازل عن «سلستره». وعندما عاد فنقض الإتفاق. مني بهزيمة نكراء واستسلم. واستبقي مع ذلك على عرشه.

كان السلطان مراد الأول، يحضر لمعركة قوصوه، بعد خوضه غمار الحرب مع الصرب والبلغار والمجر والفلاخ المتحالفة، وبعد أسره اثنين من الملوك.

وفي ميدان الطيور السود «قوصوه» وعند منبع الأنهار الثلاثة (إيبار، فارادار، درينه)، جرت معركة قوصوة الشهيرة. وقاد مراد الجيوش بنفسه ورافقه ابناه بايزيد ويعقوب. وأمراء صاروخان[٢٧] ومنتشا وآيدين[٢٨] وحميد، الذين حشدوا الجيوش الإسلامية الآسيوية.

ومنذ أن خيم شبح الظلام، جرى الإعداد المباشر للمعركة.

---

(٢٥) مدينة تقع في وسط بلغاريا. إلى الغرب والجنوب قليلاً من ثارنا الواقعة على البحر الأسود وإلى الغرب منها تقع مدينة بلقنا.

(٢٦) تقع بلدة نيكوبلي البلغارية. في أقصى نقطة على الحدود الشمالية المتاخمة لرومانيا على الطونة.

(٢٧) تقع شمال شرق إزمير قرب مغنيسيا.

(٢٨) مدينة تقع إلى الجنوب الشرقي من إزمير. وهي قريبة من بحر إيجة.

وحلكة الليل، هبت الريح بقوة، فأثارت سحب الغبار في كل مكان. وتعذر التمييز بين الخيل والجند من شدة الظلام وكثافة الغبار والدخان.

ووقف مراد في جوف هذا الليل البهيم رافعاً أيديه وفاتحاً أكفه إلى السماء. وبدأ يتضرع إلى الله العلي القدير ويناجيه. ونطق بالكلمات التالية: يا الله، يا رحيم يا رب السموات، يا من تتقبل الدعاء لا تخزني، يا رحمن يا رحيم، استجب دعاء عبدك الفقير هذه المرة أيضاً. أرسل السماء علينا مدراراً، وبدد سحب الظلام فنرى عدونا. يا موجوداً في كل الوجود. أنت الواحد والمالك حقاً لكل الوجود. وما نحن سوى عبيدك المذنبين. إنك الوهاب ونحن فقراؤك. ما أنا سوى عبدك الفقير المتضرع. وأنت العليم يا علام الغيوب والأسرار وما تخفي الصدور. ليس لي من غاية لنفسي ولا مصلحة. ولم يحملني طلب المغنم. فأنا لا أطمع إلا في رضاك بإخلاص يا الله، يا عظيم، يا موجوداً في كل الوجود. أفديك روحي فتقبل رجائي ولا تجعل المسلمين يبوء بهم الخذلان أمام العدو. يا الله يا رحيم. لا تجعلني سبباً في موتهم. بل اجعلهم المنتصرين. إن روحي أبذلها فداءً لك يا رب. إنني وددت ولا زلت دوماً أبغي الاستشهاد من أجل جند الإسلام. فلا تريني يا إلهي محنتهم. واسمح لي يا إلهي هذه المرة، أن استشهد في سبيلك ومن أجل مرضاتك قبل أن تجعلني غازياً...».

وتقبل الله سبحانه دعاء عبده، وسرعان ما اكفهر الجو، وتلبدت السحب بالسماء، وانهمر المطر العزير. وتصاعدت سحب الدخان واستقرت فوق رؤوس العدو.

وجرت وقائع المعركة الحاسمة. وخسر العدو أفدح الإصابات من الجرحى. وتجول السلطان إثر المعركة بين صفوف المحاربين في ساحة الوغى، يتفقد الشهداء والجرحى من المسلمين وهو يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون» وتغلبت عليه حالة من الحزن العميق. وأصدر الأوامر بدفن الشهداء.

وبينما كان السلطان القائد يقوم بواجبه، لمح جندياً جريحاً من بعيد



فاقترب منه ملاطفاً ومداعباً لشعره. واستفسر منه عن شدة ألم جراحه أو إن كانت له حاجة وفجأة لاحظ مراد حركة مفاجئة بين جثث الأموات فاتجه نحو مصدرها. وفي تلك اللحظة، ووسط جو الهدوء الرهيب، وقف جندي صربي ضخم الجثة ـ تبين فيما بعد أن اسمه ميلوش ويمت بصلة إلى الملك الصربي لازار ـ وبدأ يجري بسرعة قصوى باتجاه السلطان وقبض عليه الرجال المسلحون في اللحظة الحاسمة. ولكنه أعلمهم برغبته التحدث مع السلطان مراد، وأصرّ على طلبه واضاف يقول: أتركوني أقابله، وأقبّل إزاره واعتنق الإسلام على يديه. إن عندي أخباراً سارة. ولقد أسر الملك لازار انظروا هناك، إنهم يقتادونه إليكم..» وعندما سمع مراد كلامه، طلب من حرسه الخاص إطلاق سراحه وتركه حراً.

وبينما نظر الحرس إلى الملك لازار الذي قبض الجند عليه، اقترب ميلوش الغادر من السلطان وبدأ يلثم طرف إزاره وهو راكع أمامه. وبرشاقة وخفة مفاجئة، استل خنجره المسموم المخبأ خلف ظهره وطعن السلطان في بطنه. وذهل الحراس ولم يتمكنوا من تفسير ما يجري وكيف تم ذلك ومتى حدث. وبدأ الغادر يجري سريعاً وسط حالة من الفوضى والإرتباك. وتمكن الجند مع ذلك من القبض عليه بسرعة وأردوه قتيلاً.

وفاه مراد أثناء احتضاره بالكلمات التالية: «لقد كنت طيلة حياتي أتضرع وأصلي إلى الله العلي القدير، أن يمنحني فرصة الإستشهاد في سبيله، إذا ما كان نصر الإسلام يتحقق بموتي. ومن حسن حظي إنني لا يسعني أثناء رحيلي إلا أنني أشكر الله. إنه علام الغيوم المتقبل دعاء عبده الفقير. أشهد أن لا إله إلا الله. وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو. لقد أوشكت حياتي على النهاية ورأيت نصر جند الإسلام. أطيعوا ابني بايزيد. لا تعذبوا الأسرى ولا تؤذوهم ولا تسلبوهم. وأودّعكم منذ هذه اللحظة، وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله، فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء..» وأسلم الروح إلى بارئها، ونقل جثمانه الطاهر إلى مدينة بورصة ودفن هناك. وورث ابنه

بايزيد الحكم من بعده. وهو الملقب بالصاعقة. فتزوج اخت ملك الصرب لازار. وتابع خطة أبيه في الجهاد. ففتح أراضي: (كارادوڤا) والإقليم المحيط بها. واستدعى أحد الجنود الشجعان واسمه (فيروزبك)، وطلب منه فتح (ودين)[٢٩] وتم ذلك، ثم توجه إلى أدرنه.

وعهد بايزيد إلى فيروزبك، قيادة حملة عسكرية ناجحة لمهاجمة الفلاخ، وتحقق له النصر بإذن الله. واستولى باشا «يغيت» على البوسنة وفتحها.

وذهب الصاعقة «يلدرم خان» إلى بورصه. وأتم بناء مسجد ومدرسة ومستشفى أثناء مكثه هناك. وانتقل منها إلى أدرنه وبنى فيها تكية. ثم رجع إلى بورصة. وجهز جيشاً وأرسله إلى بلاد القرمان، فاستولى عليها. واحتل «آلاشهر»[٣٠] و«آيدين» و«آيا صولوق» و«صاروخان».

ولم يفلح العثمانيون هذه المرة في فتح القسطنطينية بعد سبعة شهور من الحصار. وبنى بايزيد فوق أعالي هضاب غلطة، وفي موضع استحكامي حصين من الأسوار العالية، مراكز للمراقبة، ليتمكن من الإشراف على العدو ورصد تحركاته. وأمام هذه العمليات المحكمة، انهارت معنويات العدو وفقد الأمل ـ واستولت عليه حالة من اليأس والرعب والقنوط. وأرسل الامبراطور يستجدي السلام. والجدير بالذكر أن هذا الحصار فقط، هو الذي مكن العثمانيين من الاستقرار في داخل القسطنطينية. وعين قاضياً لهم من قبل السلطان. وبنوا مسجداً هناك. ومن حينها شكل المسلمون جالية في المدينة مع بداية عام ١٣٩٢ م. وعبر بايزيد نهر الدانوب، وضم رومانيا وسيلڤري وسالونيك وبلغاريا عام ١٣٩٢ م وتمكن في العام التالي من إلحاق «قسطموني»[٣١] وما حولها وألبانيا.

---

(٢٩) مدينة بلغارية تقع ي الزاوية الشمالية الغربية من البلاد. قرب الحدود الرومانية واليوغوسلافية.

(٣٠) آلاشهر: تقع شرق إزمير.

(٣١) قسطموني مركز مواصلات جنوب البحر الأسود شمال الأناضول وجنوبي غرب سينوب.



## معركة نيكوبلي:

استاء الصليبيون من إجراءات بايزيد العسكرية إزاء القسطنطينية. واستغل الفرصة ملك المجر. وشن هجوماً على قلعة نيكوبلي الواقعة على الدانوب. وتمكن من محاصرتها. وعندما وصلت الأنباء إلى بايزيد خان، انسحب فوراً من حول القسطنطينية. وأعاد تجميع قواته ليلاً. وبسرعة خاطفة لم يلبث أن ألقى الملك وجيشه في نهر الدانوب. كان الجيش الصليبي يعلن عن هدفه، وهو استرجاع بيت المقدس والقسطنطينية وقتال الأتراك المسلمين.

وعندما غزا بايزيد بلغاريا عام ١٣٩٣ م (٧٩٥ هـ)، واستولى على «ترنوڤو» بعد حصار دام ثلاثة أشهر، هلع النبلاء وهرعوا يستصرخون البابا الذي دعا النصارى إلى حمل السلاح. وسرعان ما تشكل جيش قوامه أكثر من ستين ألفاً. وقدمت جيوش المتحالفين بقيادة «هو هنزلون» وفرسان القديس يوحنا، وثلة من الفرسان الباڤاريين. وحتى فرنسا المنشغلة بحروب مع انكلترا، أرسلت قوة بقيادة «نيڤير».

وعبرت الجيوش المتحالفة بلاد الصرب. وحاصرت حامية نيكوبلي. ووردت الأخبار أن بايزيد في طريقه لرفع الحصار عن القلعة.

وفي أحد الليالي تقدم السلطان نحو القلعة الصامدة والتفّ حولها، بعد أن تمكن من فك الحصار المفروض عليها. واستند بإحدى يديه على جدارها وصاح «بري دوغان»! أي أيها الصديق دوغان ـ قائد حامية القلعة. وسمع دوغان صوت قائده وسلطانه وهتف له: ما الذي يجري يا سيدي؟ ورد عليه بايزيد: ها أنا قد حضرت لنجدتك بجيش، فلا تسلم القلعة للأعداء. ورجع بسرعة البرق إلى مركز القيادة.

ولعبت الخمرة والنساء في رؤوس النصارى، كما تلعب اليوم في رؤوس البعض. وراودتهم أحلام السكارى. وتخيلوا أنفسهم وقد أبادوا جيوش المسلمين وقالوا مفاخرين: «لو سقطت السماء على الأرض فإنهم سيرفعونها

برماحهم» وهي المقولة التي تفوه بما يشبهها بعض المارقين من أبناء جلدتنا عندما زين ويزين لهم الشيطان أعمالهم.

واندفع الفرسان الفرنسيون، وسط القوات العثمانية وهم يحلمون بالنصر. وتمكنوا من شق طريقهم عبر صفوف عشرة آلاف من الإنكشارية، وخمسة آلاف من الفرسان الأتراك. وشنوا هجوماً على إحدى التلال.

وبينما الأمر يجري على هذا المنوال، فوجيء الجميع بالجيش العثماني الرئيسي المؤلف من أربعين ألفاً من حملة الرماح. وقد انضم إليهم أمير الصرب لازار، على رأس قوة مؤلفة من خمسة آلاف جندي.

واندحر النصارى واضطربت صفوفهم. وتحقق النصر للإسلام وجنده عام ١٣٩٦ م (٧٩٨ هـ). واستسلم الكثير من الأمراء والفرسان الفرنسيين ووقعوا في الأسر. وتوقفت الحملات الصليبية مؤقتاً. وثارت ثائرة بايزيد من الفظائع الوحشية التي ارتكبها العدو بقتله الأسرى. وعندها أمر جنده بقتل أسراهم. وسمح لـ «نيڤير» اختيار ٢٤ ألف جندي مقابل فدية بعد أن أطلق سراحه. ودعاه للمبارزة وقال له: «إني أعلم أنك سيد عظيم في بلدك، وانك ابن سيد عظيم. أنت شاب يافع. وربما تلاقي بعض اللوم والعار لارتكابك هذه المغامرة في بداية عهدك بالفروسية. وأنك تفادياً للملامة، وانقاذاً لشرفك، ربما تحشد قوة من الرجال لمحاربتي. ولو ساورني الشك أو الخوف قبل رحيلك. لأجبرتك أن تقسم بشريعتك وعقيدتك. إنك لا أنت ولا أحد من زمرتك، سوف تشهر السلاح ضدي. ولكني لن ألزمك، أو ألزم أحداً من أتباعك، بمثل هذا الوعد أو القسم، بل سأفعل ذلك عندما تعود إلى وطنك، وتجمع من القوة ما تشاء ولا تذخر وسعاً. وإذا خرجت لقتالي، فسوف تجدني دوماً على أهبة الإستعداد لاستقبالك واستقبال عصبتك واعلم من تشاء على ما أقوله لك. فإني قادر على القتال. ومستعد على الدوام للتوغل في العالم المسيحي..».

ثم اقتص بايزيد من حكام شبه جزيرة موره اللاتين، لتحالفهم مع



الصليبيين. ودمر أراضيهم. وشجعه على تحركه، الدعوة التي تلقاها من أسقف سالونا عام ١٣٩٧ م (٧٩٩ هـ) الذي طلب منه تخليص شعبه من الطغيان. وهكذا أخذ «آتيكا» و«موره» و«سيلفري» وأرسل بايزيد في خضم أعظم انتصاراته، بعثة إلى الخليفة العباسي المتوكل المقيم في القاهرة. وطلب منه الاعتراف به كسلطان على الروم كي ينال الشرعية والمركز المرموق.

وللمرة الثالثة حوصرت القسطنطينية عام ١٤٠٠ م (٨٠٢ هـ). وفك الخناق عن عنقها، تحرك القائد المغولي المغامر تيمور لنك، الذي جاء زاحفاً من الشرق.

كانت معركة نيكوبلي، إحدى أعظم الانتصارات الهامة التي حققها بايزيد أثناء حكمه على كافة الأقطار الأوروبية مجتمعة. كما أنها تعد من أعظم الانتصارات في التاريخ العالمي حتى ذلك الوقت. وتبرز أهميتها الكبرى في ما يلي:

١ ـ اعتراف كامل اوروبا، حتى سواحل الأطلسي. بانبثاق دولة مسلمة جديدة من آسيا الصغرى.

٢ ـ انفتاح طريق أوروبا الوسطى أمام العثمانيين.

٣ ـ تخلي الامبراطورية البيزنطية عن آمالها العراض في كسب المعونة الأوروبية الغربية.

٤ ـ إدراك الأقطار الإسلامية الشرقية، الوجود الحقيقي المهم للدولة العثمانية.

توفي السلطان بايزيد رحمه الله في ٨ آذار عام ١٤٠٣ م (٨٠٥ هـ). وخلفه ابنه محمد جلبي الذي جابه وضعاً صعباً نجم عن حملة تيمور لنك الذي هزم بايزبد عندما تخلى عنه التركمان شيئاً فشيئاً. ولجأ تيمور إلى إعادة الإمارات السابقة لحكامها التركمان الذين انضموا إليه.

وبقيت الممتلكات العثمانية في أوروبا سالمة. وأعدّ الصليبيون حملة

جديدة لطردهم منها. ولكن الخلافات بين زعمائهم جنوب الدانوب. وضعف حملتهم، كانت فرصة، قيض الله بها للعثمانيين استعادة ما قد سُلبوه.

وتصارع ابناء بايزيد على أحقية الخلافة من بعده. ودعم الأوروبيون ابنه سليمان. وأيد التركمان مطالب ابنه محمد الذي هزم أخاه موسى. وهزم الأخ الآخر عيسى جنوبي غربي الأناضول. وتغلب على سليمان بدعم من علماء المسلمين في الأناضول. واستعاد السلطان محمد النظام داخل صفوف الدولة. وخاصة في بلغاريا وصربيا ووعد بالتركيز على الوضع الداخلي.

ويمكن القول أنه المؤسس الثاني للدولة العثمانية، للنجاحات الداخلية التي حققها، والانتصارات التي أحرزها. وتقاتل محمد مع إخوته من أجل ترسيخ وحدة الأناضول. وأدرك التضامن الحاصل عندما يتخلص من سليمان شلبي وموسى شلبي أخويه. وعندما قوي مركزه، حاول استرجاع الخانات المحاصرة وإعادتها تحت سلطته.

## معركة ڤارنا:

كانت هذه المعركة أبرز المعارك التي جرت في البلقان. وجرت وقائعها في خريف وشتاء عامي ١٤٤٣ ـ ١٤٤٤ م (٨٤٧ ـ ٨٤٨ هـ).

فبعد وفاة السلطان محمد في أدرنه، خلفه ابنه مراد عام ١٤٢١ م (٨٢٤ هـ). ولم تمض برهة قليلة حتى لجأ إلى احتلال موره من جديد. وانتصر العثمانيون ضد البنادقة والصليبيين. وإثر هذه الأحداث. شن حملة على سالونيك بغية احتلالها. وحاول بسط النفوذ العثماني شمالاً. واخضع البوسنه والهرسك. وجرى حصار بلغراد عام ١٤٣٩ م ثم جرى التحضير لمعركة ڤارنا:

نتيجة المحاولات التي بذلها مراد الثاني لبسط نفوذه شمالاً، تصدت له القوات المجرية بقيادة «هونياد» الترانسلڤاني. وبعثت بسرعة روح صليبية جديدة. ورحب النصارى بإعلان البابا. وخاصة من تواجد منهم في خطوط



المواجهة كالمجر وبولندا. وجرى التوفيق بين امبراطورية هبسبورغ والمجر بمساعي البابا. وأزيلت روح العداء. وصب البنادقة والبابا، دعمهم المالي والسياسي على هونياد الذي وقع الإختيار عليه. فهو أول من نظم جيشاً مدرباً بمهارة فائقة بين قادة اوروبا العسكريين.

واحتشدت جيوش ملك بولونيا والمجر. وتجمع المجريون تحت أمرة جون هونيادي. ودخل الجنون السكسون والألمان والتشيك والاتين والبوشناق والفرنسيون والفلاخ والقرمان وغيرهم في تحالف مشترك. وأيد الجميع قيادة «فلاديسلاف».

وفي تموز من عام ١٤٤٣ م (٨٤٧ هـ)، غادر جيش صليبي مدينة بودابست، واستطاع إحراز نصر في «يالوڤاز» بين صوفيا وڤيليبه. ولكن الشتاء تقدم وشل برده القارس قوى الجنود. وطلب مراد الصلح لسوء الأحوال الطبيعية ولانشغاله بثورة اسكندر بك المتمرد الألباني.

وهكذا رجعت القوات الصليبية إلى بودابست بعد دخول جيشها الضخم صربيا الخاضعة لحكم الأتراك وعبورها الدانوب في تشرين الأول واحتلالها نيش وصوفيا وبعض القلاع من الحاميات العثمانية.

إن قوات هونياد. قد أجرت خرقاً في جبهة العثمانيين، ومنعتهم بخدعة لجأت إليها عندما دخلت في ممر ضيق من أن يجمعوا صفوفهم. واشتبكت وإياهم في سلسلة من المعارك. وهكذا وصلت القوات الصليبية جبال البلقان في كانون الأول، قبل أن تنسحب مجبرة مع حلول الصقيع وتصل بودابست في بداية شباط. محطمة القوات العثمانية في البوسنه والهرسك وبلغاريا والبانيا. كما ذكرت قبل قليل.

تكمن أهمية هذه المعركة بندارة مثيلاتها في تاريخ العثمانيين في أوروبا. فقد نفخت روح العاطفة المدوية في أرجاء العالم النصراني. وألجأت السلطان مراد إلى السلم نتيجة الوضع الراهن على الجبهة العسكرية والداخلية.

وعقد مؤتمر الصلح عام ١٤٤٤ م (٨٤٨ هـ) بناء على طلب مراد ولعشر سنوات. ونصت بنود المعاهدة على أن تستعيد صربيا استقلالها الذاتي. وأن تحتفظ المجر بالأفلاق وبلغراد. ووعد العثمانيون إنهاء حملاتهم العسكرية شمالي الدانوب.

وأدرك البابا تعطل طموحاته نتيجة هذا الصلح. واستغل ومعه البيزنطيين، فرصة تنازل مراد عن السلطة لابنه اليافع محمد الثاني. ووجدوها فرصة ذهبية لدفع العثمانيين خارج أوروبا. ولجأ الباب إلى تحريض المجر على نقض المعاهدة. محتجاً بعدم إلزام القسم مع غير المسيحي للمسيحي. ولكن الفرقة الصربية أبت الحنث باليمين المعقود بين المتحاربين. وتنادى الصليبيون إلى تجهيز حملة لغزو البلدان البلقانية، بحجة عدم إخلاء العثمانيين للقلاع الصربية.

وتقدم الحلفاء عبر جبال البلقان ووصلوا حتى شواطيء البحر الأسود ليتصلوا بأسطول البنادقة في «غاليبولي» وتصبح الطريق سهلة للتجهيز والإمداد نحو القسطنطينية. وكان على الأسطول البندقي الإبحار عبر المضائق في الوقت المناسب. وبذا يمنع مراداً من الرجوع من الأناضول مع معظم جيشه.

وفي ٩ تشرين الثاني، تقدم مراد الثاني لقتالهم أمام أسوار القسطنطينية بسلوكه الخطة التالية: فقد وردت أخبار عن وصول السلطان ولكن تأخر حضوره. وأصر القادة على حضوره. وغادر مراد إلى غاليبولي حيث يسيطر الفرنسيون على البحر. وتمكن من العبور من جوار غلطه على ظهر سفينة فرنسية نقلته إلى الروملي وعبر من ثم جيش الأناضول من بعده.

وزود مراد جنده بالعتاد والإمداد والأجور. وشكر الله شكراً عظيماً. ولقي أثناء تحركه خارج أدرنه، عدداً كبيراً من فصائل الانكشارية والروملليون والأناضوليون والآقنجيون... ودق بوق النفير العام. واحتشد الجند للقتال من جميع الجهات. وتقدم السلطان صوب الهنغاري هونياد. ولقيه عند أسوار ڤارنا. وجرى هناك تراشق بالمدفعية من كلا الطرفين وسمعت اصوات طلقات



البنادق ورشقات السهام كانت كأنها أمطار الموت. ووقف الملك المجري بالوسط وهو يناد في جهة، وقرة مخائيل في الجهة الأخرى. وحاصروا قوة السلطان ثم هاجموها فتمكنوا من إخراج جيشه خارج المعركة. وجرى اشتباك بالأيدي بين الصليبيين والقوات الأناضولية. وقتل **ملك** الأناضول. وتبعثرت صفوف الأناضوليين نتيجة الفوضى. وعندما رأت القوات الرومللية والآقنجية، تبعثرهم وتفرقهم، دبت الفوضى في صفوفها أيضاً. وكادت تلوذ بالفرار. ورأى السلطان هذا الوضع غير المشجع وتطلع إلى السماء ورفع يديه داعياً إلى الله عز وجل وقال: يا الله. أيد دين الإسلام بقوة من عندك. وامنحه النصر بجاه نور محمد وإكراماً لنور محمد» واستقبل القبلة وصلى بضع ركعات في خشوع وتواضع. وتقبل الله دعاءه.

ودخل الغرور قلب الملك البغيض، وزهت نفسه بالنصر الزائف الذي حققه، وانبرى للسلطان مراد مهاجماً. وهو يخال نفسه بطلاً عظيماً وقال: إنني بنفسي سوف أدمر جيش السلطان. ورمى بنفسه وسط المعركة. وكان من نعمة الله على جيش المسلمين وسلطانهم أن تعثر حصان ذلك الملك. وسقط من على ظهره. ورآه جنديان من الإنكشارية فألقوا القبض عليه وحزوا رأسه. وأتوابه لحضره السلطان. وعندما رأى مراد رأس الملك وقد رفعه الجند على رأس رمح، رأس ذلك المتكبر المزهو بنفسه، شكر الله كثيراً وارتقى شرفة عالية. ونادى مناد في الجهات الأربع قائلاً «إن رأس الملك قد قطع وعلق على رمح..» وعاد جيش المسلمين المتشتت والتف من جديد حول سلطانه.

وعندما رأى الأعداء هذا الوضع الجديد، دقت الفرقة في صفوفهم وبدأوا يلوذون بالفرار وهرب في مقدمتهم هونياد. وانتهت المعركة بنصر المسلمين على الصليبيين.

# الباب الثالث

## فتح القسطنطينية

١ ـ بيزنطة والمسلمون.
٢ ـ بيزنطة والصليبيون.
٣ ـ بيزنطة وظهور العثمانيين.
٤ ـ أسباب انهيار بيزنطة.
٥ ـ القسطنطينية في أيامها الأخيرة.
٦ ـ التوسع العثماني والقسطنطينية.
٧ ـ حوافز الفتح العثماني.
٨ ـ الهجوم العام.

## ١ ـ بيزنطة والمسلمون:

اهتم المسلمون بفتح القسطنطينية ـ عاصمة الدولة البيزنطية ـ منذ الأيام الأولى لظهور الإسلام. وقد حثت الأحاديث النبوية الشريفة على تحقيق الفتح المبين، فقال الرسول الكريم صلوات الله عليه: «لتفتحن القسطنطينية. فنعم الأمير أميرها، ونعم الجيش ذلك الجيش...

ولم يكتب النجاح للمحاولات التي جرت. وكانت أولاها في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، في أواخر عام ٦٥٣ م (٣٢ هـ) عندما قصدها جيش، بقيادة معاوية بن أبي سفيان، أمير الشام آنذاك. واخترق آسيا الصغرى، ووصل حتى ضفاف البسفور. وتوجه أسطول إسلامي بقيادة «بسر ابن أبي أرطاة»[1] لدعم الجيش البري. وتحرك من طرابلس الغرب صوب القسطنطينية ولم يوفق.

وكانت الحملة الإسلامية الثانية في عام ٦٦٤ م (٤٣ هـ) في عهد

---

(١) وهو ممن دعاهم معاوية عام ٣٨ هـ واستشارهم في شؤون الدولة. وبعثه في عام ٤٠ هـ إلى الحجاز واليمن. ثم كلفه بولاية البصرة عام ٤١ هـ. ويقال أنه كشف عن عورته يوم صفين أمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه كي ينصرف عنه كما ورد في سيرة ابن هشام. عين لغزو أرض الروم مع سفيان بن عوف.

معاوية، ولم تنجح. وأعاد معاوية الكرة عام ٦٦٩ م (٤٩ هـ)، عندما أرسل جيشاً ضخماً بقيادة «سفيان بن عوف»[٢] ومعه يزيد بن معاوية، الذي تثاقل واعتل. وأمسك عنه أبوه ثم أرغمه بعد ذلك. ورافق الحملة بعضاً من كبار الصحابة منهم أبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عمر، وعبد الله ابن الزبير، وعبد الله بن عباس، رضوان الله عليهم.

وسار الأسطول بقيادة «بسر بن أبي أرطاة». واخترق الدردنيل. وحاصر المدينة سبعة أعوام براً وبحراً. ثم انسحب في عام ٦٧٨ م دون جدوى.

وتولى سليمان بن عبد الملك، خلافة بني أمية عام ٧١٥ م وانتدب أخاه مسلمة بن عبد الملك، لمهمة فتحها. وسار جيشه في أوائل عام ٧١٦ م الموافق ٩٨ هـ، مخترقاً هضاب الأناضول. وفتح بعض المدن والحصون. وحاصر القسطنطينية، في اليوم الثاني من شهر محرم عام ٩٩ هـ. وتوفي سليمان بن عبد الملك، بعد أسابيع قليلة، ودخل فصل الشتاء، فانسحب مسلمة إلى ثغور الشام.

واقتربت جيوش المسلمين أكثر من مرة من ثغورها. ولم تحاول القيام بعمل جاد لفتحها. ثم وقعت أشهر الغزوات في عهد الخليفة العباسي «المهدي»، عندما سيّر ولده هارون الرشيد. في صيف عام ١٦٥ هـ الموافق ٧٨٣ للميلاد، كي يغزو دولة بيزنطة. وأشرف على ضفاف البسفور الآسيوية، وعسكر في مواجهتها، وفوق تلال «أسكدار»[٣]، وكانت مقاليد الأمور ذلك الزمن في بيزنطة، بيد الإمبراطورة «ايريني»، أم الإمبراطور «قسطنطين» الصغير السادس.

وهزم البيزنطيون هزيمة نكراء. وعقدت ايريني الصلح مع المسلمين

(٢) هو سفيان بن عوف الأزدي. اشترك في فتح قبرص مع معاوية. وبأمر منه قاتل أصحاب علي عام ٣٩ هـ. توفي بأرض الروم عندما غزاها عام ٥٢ هـ.

(٣) اسكدار: وهي سقوطاري القديمة. تشكل اليوم القسم الآسيوي من مدينة استانبول. على ضفة البوسفور الشرقية. فيها ثكنات السليمية الضخمة ومحطة بغداد للسكك الحديدية.



مرغمة. واضطرت إلى دفع الجزية.

وأسر ملك الروم عام ٤٥٥ هـ، أثناء غزوه البلاد الإسلامية. وأطلق السلطان السلجوقي «طغرل بك» سراحه مقابل فدية.

ثم انتصر السلاجقة على البيزنطيين عام ٤٦٣ هـ الموافق ١٠٦٣ م نصراً ساحقاً. وأسر الإمبراطور البيزنطي «ديوجينيس رومانوس». ثم أطلق سراحه مقابل فدية. ومن بعدها فتحت بلاد الروم في وجه المسلمين.

وفي عام ٥٦٩ هـ، عبر ملك الروم، خليج القسطنطينية، قاصداً بلاد (قليج أرسلان) السلجوقي دون جدوى، بعد أن مني بخسائر فادحة.

أما العلاقة بين الدولة الفاطمية وبيزنطة، فكانت على شيء من الصفاء في أوائل عهد المستنصر. وتم الإتفاق بين الخليفة الفاطمي، والإمبراطور البيزنطي عام ٤٢٩ هـ الموافق ١٠٣٧ م، على أن يطلق الروم، خمسة آلاف من أسرى المسلمين، مقابل عمارة كنيسة القيامة التي خربها الحاكم. وتم الإتفاق بين المستنصر والامبراطور قسطنطين التاسع عام ٤٤٦ هـ الموافق ١٠٥٤ للميلاد، وقضى بإمداد مصر بالأقوات أثناء المجاعة. ولكن ذلك لم يتحقق. واشترطت الإمبراطورة «تيودورا» ١٠٥٤ م (٤٤٦ هـ) - ١٠٥٦ م (٤٤٨ هـ)، على الخليفة الفاطمي، أن يتعهد بمساعدتها، إذا اعتدي على بلادها. ولكن الفريقين اشتبكا في معارك برية، كتب النصر فيها للفاطميين. وانتصر أسطول البيزنطيين على الفاطميين في مياه الشام، وأسر كثيراً من قوادهم.

### ٢ - بيزنطة والصليبيون:

الخلاف بين الروم واللاتين، قديم ومعروف. والمناوشات بين الطرفين كانت دائماً تتأجج للتناقضات العقائدية والأطماع الشخصية والإقليمية...
وفي عام ٥٤٤ هـ تمكن جند الفرنج من أتباع «رجّار» صاحب صقلية، من رمي قصر امبراطور بيزنطة، بعد قتال عنيف في البحر والبر، إثر اقتحام

القسطنطينية. وهزم ليون الأرمين، الروم بالقسطنطينية. واحتل البلاد الخاضعة لسيطرتهم، في سفوح طوروس الجنوبية وعلى سفوح كيكيلية.

وزادت الحروب الصليبية، بين أوروبا والعالم الإسلامي، هوة العداء بين بيزنطة والصليبيين اللاتين. وعجز امبراطور القسطنطينية عن منع ملك الألمان من العبور عن طريق عاصمته لكثرة عددهم، فمنع الإمداد والتموين عنهم. ولم يتمكن أبناء رعيته من تزويدهم وذلك حصل في عام ٥٨٦ هـ.

ودارت في مخيلة اللاتين، أثناء غزوهم العالم الإسلامي، فكرة خلع امبراطور القسطنطينية، وإخضاع الإمراطورية الشرقية لحكمهم بالقوة. وأبدت البابوية استعداداتها لهذا العمل. كما عمل تجار البندقية، على تخريب القسطنطينية وبيزنطة اقتصادياً ونهبوها.

وعندما جاءت الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤ م الموافق ٦٠٠ للهجرة، تحولت عن غرضها الحقيقي. وتم لها احتلال عاصمة بيزنطة، وإخضاع الإمبراطورية الشرقية لحكمهم بالقوة. ونهبوا القسطنطينية ودمروها، وأزالوا العرش الإمبراطوري البيزنطي، وهم في طريقهم لاستخلاص بيت المقدس، من أيدي المسلمين. ودخلوا القسطنطينية وهرب ملكها. وفرضوا الأموال، وأخذوا الذهب، وفتكوا بالروم ونهبوا آيا صوفيا وقتلوا من التجأ إليها ومن وجد فيها.

وبعد أكثر من نصف قرن بقليل، استطاعت بيزنطة، استعادت عاصمتها من حكم اللاتين. وتمكن الإمبراطور «مخائيل الثامن»[٤]، من

(٤) الامبراطور مخائيل الثامن: ولد عام ١٢٢٤م في إزنيق. وتولى حكم بيزنطة من عام ١٢٥٩ م (٦٥٧ هـ). حتى عام ١٢٨٢ م (٦٨١ هـ). أعاد القسطنطينية إلى سابق عهدها بعد انتهاء ٥٧ عاماً من الاحتلال اللاتيني. أسس الأسرة الباليولوجية. وبعد أن أنهى حكم اللاتين عاد إلى تشكيل تحالف مع البابا عام ١٢٧٤ م (٦٧٢ هـ) ضد عدو مشترك للطرفين. ووعد بتوحيد الكنيستين، لكنه لقي معارضة حالت دون تحقيق وعده. توفي في تراقيا عام ١٢٨٢ م (٦٨١ هـ).



استخلاص القسطنطينية المترنحة، واصطدم بعداوة الغرب.

وفي محاولة لاسترجاع حكم اللاتين. حرّض الباب زعماء الغرب. وعدّ «مخائيل الثامن» خارجاً على الكنيسة النصرانية.

وحاول الأخير مصالحة البابا، وعرض عليه توحيد الكنيستين، وتشريد رجال الدين المعارضين تلك الخطوة. وأصدر البطريرك قراراً، بحرمان الامبراطور «مخائيل الثامن» - المحرر السابق -. وتوفي بابا روما المتسامح - وحلّ محله بابا جديد، كان أشد كرهاً للروم. وأصدر قراره بحرمان الامبراطور مخائيل. ومات الامبراطور المسكين. وهو يقوم بمساعي التوفيق بين الكنيستين.

ولم تنجح محاولات التوفيق، في الوقوف أمام المد العثماني الصاعد. وازدادت الهوة عمقاً بين الكنيستين. ورسّخ العثمانيون أقدامهم فوق تراب أوروبا. وزحفوا نحو الدانوب شيئاً فشيئاً. وفتحوا وحققوا أحلامهم في احتلال القسطنطينية.

## ٣ - بيزنطة وظهور العثمانيين:

عندما تقدم الأتراك، وهددوا الأراضي البيزنطية، تدفقت أعداد غفيرة من اللاجئين، إلى القسطنطينية والساحل، فسببت مشاكل جديدة للدولة البيزنطية. وتمكنت جماعة من المقاتلين الأتراك عام ١٣٠٢ م (٧٠١ هـ) بقيادة عثمان الأول، من إلحاق الهزيمة بالجيش البيزنطي قرب «نيكوميدي»[٥] شمال غربي الأناضول. وسرعان ما قضى عثمان على الامبراطورية البيزنطية في

(٥) نيكو ميدي يطلق عليها اليوم مدينة إزميت. تقع على الهضاب المشرفة على الخليج المسمى باسم خليج إزميت في بحر مرمرة. تبعد عن استانبول حوالي ١٠٠ كم من جهة الشرق على الطريق الدولي. سماها العرب نيكو ميديا. وفكر قسطنطين الكبير بجعلها عاصمة بيزنطة اقترب منها العرب كثيراً عندما هاجموا الأناضول. نجح سليمان شاة في احتلال ذلك الإقليم لكن الصليبيين اعادوها للبيزنطيين. استولى عليها (آقجه قوجه) أحد قادة أورخان فتمكن العثمانيون من الوصول من ثم إلى ساحل البحر الأسود لأول مرة.

أوروبا، على الرغم من التحرك والنشاط الأقل نسبياً بالمقارنة مع لاحقيه من الأمراء الأتراك. وجاءت هزيمة نيكوميدي السابقة الذكر، وكمنت خطورتها في قربها من القسطنطينية.

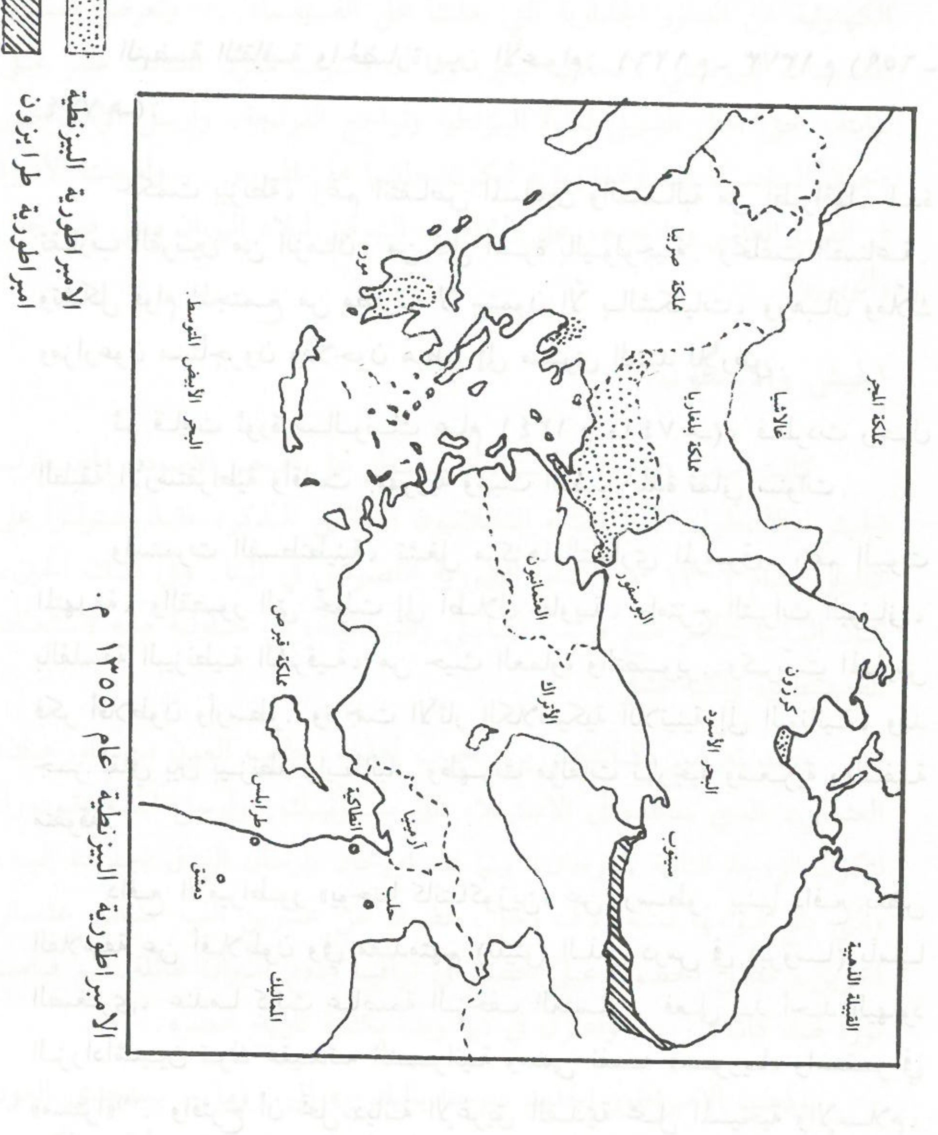
واستخدم «اندرونيكوس» امبراطور القسطنطينية، جيشاً من المحترفين المرتزقة، ومن شركة «قطلان»[٦] التي حاربت سابقاً في صقلية. وتمكن القطلانيون من شن هجوم مضاد وناجح ضد الأتراك في الأناضول. ولكنهم افتقروا إلى الشعبية، واتصفوا بالعناد وصعوبة المراس. وعندما اغتيل قائدهم، انقلبوا ضد سادتهم، واستخدموا شبه جزيرة غاليبولي لسنين تلت، قاعدة لشن غارات النهب والسلب ضد تراقيا وأغروا آلاف الأتراك، واعدين إياهم الدعم والتأييد. وأخيراً تحرك القطلانيون غرباً، وانتزعوا (أثينا) من الفرنسيين عام ١٣١١ م (٧١١ هـ)، وأسسوا دوقية القطلانيين فيها وفي «ثيبيس»[٧]. ولكن العثمانيين تخلفوا وراء هؤلاء وأجلوا عن غاليبولي بعد سنة. نتيجة لهذه الأوضاع الطارئة، خفضت قيمة العملة الذهبية البيزنطية. وتحمل الشعب أعباء الضرائب الفادحة. واكتوى بنارها وخاصة ملاّك مكدونيا وشمالي تراقيا. وتحمل المزارعون الأعباء الثقيلة في تأدية الضرائب الفادحة. وأدى تعويم العملة ورفع الأسعار إلى مجاعة محققة وعجز، لم يشمل القسطنطينية التي كان سكانها يتزايدون باستمرار للروافد الستجدة من سيول اللاجئين الغزيرة. ووجدت روح العديد من التجار ضعيفي النفوس والكرامة فرصتها السانحة فعم الجشع والاحتكار والإتجار بالسوق السوداء.

---

(٦) أعضاء شركة قطلان هم قوة من المرتزقة الإسبان. استأجرهم الامبراطور البيزنطي اندرونيكوس الثاني فتمردوا ضده ونهبوا البلاد البيزنطية.

(٧) تيبس مدينة تقع اليوم في اليونان. دمرتها الزلازل لمرات عدة. ويقع بقربها برج وكنيسة على الطراز البيزنطي.






الامبراطورية البيزنطية عام ١٣٥٥ م

## ٤ - أسباب انهيار بيزنطة:

**النهضة الثقافية والحضارة بين الأعوام: ١٢٦١ م - ١٣٧٣ م (٦٥٩ - ٧٧٤ هـ):**

حكمت بيزنطة، رغم انتقاص المسلمين والصقالبة من أطرافها، لمدة تقارب القرنين من الزمان، من قبل أسرة باليولوجية. وتخلفت الصناعة. وتشكل قوام المجتمع من مطارنة لا يهتمون إلاّ بالشكليات، ورهبان وملاّك ومزارعون مستأجرون وفلاحون هبطوا إلى مستوى العبيد للأرض.

ثم قامت ثورة سالونيك عام ١٣٤١ م (٧٤١ هـ)، فطردت رجال الطبقة الأرستقراطية وأقامت جمهورية ونهبت القصور لمدة ثماني سنوات.

واستمرت القسطنطينية، تشغل مركزها التجاري المرموق، رغم البيوت المتهدمة، والقصور التي تحولت إلى أطلال خاوية. وامتزج التراث اليوناني، بالفلسفة البيزنطية الشرقية، من حيث العمارة والتصوير. وكرّستِ المدارس فكر أفلاطون وأرسطو. وترجمت الآثار الكلاسيكية اللاتينية إلى اليونانية، ومد جسر ثقافي بين بيزنطة وإيطاليا. وظهرت مؤلفات تاريخية وشعرية وفلسفية متفوقة.

دافع الامبراطور «يوحنا كانتاكوزين» عن أرسطو. بينما دافع بعض الفلاسفة عن أفلاطون وفي مقدمتهم (بليثو) الذي درس في (بروسا) بآسيا الصغرى، عندما كانت عاصمة الزحف العثماني. فعلى يد أحد اليهود الزراداشتيين ترك عقيدته النصرانية وسمى نفسه «موريا» واستقر في «مسترا»[٨]. واقترح أن تحل ديانة الإغريق القديمة محل المسيحية والإسلام، بتحويل جميع آلهة الأولمب عدا زيوس إلى رموز وأفكار وإبداعات.

(٨) تقع آثار مدينة مسترا البيزنطية قرب اسبارطه اليونانية. كان محدها الغابر بين الأعوام ١٢٦٢ - ١٤٦٠. الموافق (٦٦٠ هـ - ٨٨٤ هـ).



أما البعث الفني فيبدو ملحوظاً في الآداب. وقد تراخت القبضة الكهنوتية عن الصور الجدارية التي حلت محل الفسيفساء... وتعرض تصوير المنمنمات البيزنطي لانحلال كبير. وما أن أشرف القرن الثالث عشر على نهايته، حتى أخلي السبيل للقوة البيزنطية وتراجع الفرنجة. وأرسل الإمبراطور «جون السادس» ابنه «عمانويل» ليكون حاكماً على الموره... وأقيمت الأديرة في القرن العاشر وما بعده، على الشاطيء الشرقي لبلاد اليونان وعلى قمة جبل «أثوس»[٩].

### الجيش والأسطول:

كانت سفن (جنوة) و (البندقية) تسيطر على البحر الأسود. واضطرب الجيش والأسطول. أما المرتزقة القطلانيون السالفي الذكر، فقد استولوا على غاليبولي عام ١٣٠٦ م وأنشأوا جمهورية اللصوص في أثينا. وفي ذلك الحين، كان البابا يتآمر مع فرنسا ونابلي والبندقية، في محاولة منه لاستعادة القسطنطينية ولكنه فشل.

وبعد تعرض «كانتاكوزين» لحرب أهلية، طلب العون من «أورخان» العثماني، الذي ساعده في الاستيلاء على سالونيك. وأرسل ابنته «تيودورا» لتكون الزوجة الثانية لأورخان، بينما قام اورخان بإرسال الفرق الجديدة إليه، والتي بلغ قوامها ستة آلاف رجل، فضلاً عن عشرين ألف جندي عثماني آخرين، مقابل الحصول على حصن في تراقيا ودفع أموال طائلة. ثم قامت ثورة ضد كانتاكوزين، واعتزل في دير وبدأ بكتابة تاريخ عصره.

وذهب الامبراطور الجديد «يوحنا باليالوج» إلى روما، يستجدي العون ويطلب الشفاعة مقابل إدخاله شعبه في طاعة البابوية. وأنكر الكنيسة الأرثوذكسية أمام مذبح القديس بطرس. ولم تنفعه الوعود المعطاة. وعدّته

(٩) يقع في شبه جزيرة سالونيك التي تتفرع في الجنوب إلى ثلاث فروع يشغل الفرع الشرقي منها.

البندقية رهينة مقابل الديون اليونانية. وبعد أن أحضر ابنه عمانويل المال المطلوب، عاد جون إلى القسطنطينية فقيراً، وأنكره شعبه لحنثه بمذهبه. وفشل مرة أخرى في الحصول على العون من الغرب. ولم يكن أمامه، إلا الإعتراف بالسلطان مراد العثماني، مولى عليه، مقابل موافقة مد الجيش العثماني بالعون ورهن ابنه. ثم تحول مراد نحو إمارات البلقان إثر ذلك.

### ٥ ـ القسطنطينية في أيامها الأخيرة:

دب اليأس في أوصال القسطنطينية، عندما وقف العثمانيون على أبوابها. وأصبحت مكتوفة الأيدي أمام إرسال العون العسكري لفرق الجيوش الصليبية في «ماريتزا» أو «قوصوة» أو «نيكوبلي». بل قامت على العكس من هذا، بتجهيز قوات السلطان العثماني بـ ١٢ ألف رجل عام ١٣٧٩ م (٧٨١ هـ)، مما كان له بالغ الأثر، في تسلم العثمانيين مدينة «فيلادلفيا» البيزنطية بآسيا الصغرى عام ١٣٩٠ م الموافق (٧٩٢ هـ) وواصل بايزيد العثماني حصار القسطنطينية. وتقوقعت على نفسها، وعانت من الجوع. ثم استعادت حيويتها باستعادتها معظم اليونان وأجزاء من تراقيا، أثناء حكم «عمانويل الثاني» بعد الهزيمة العثمانية أمام تيمور لنك.

تفجرت المشكلات في القسطنطينية عام ١٣٢٠ م، عندما حرم «اندرونيكوس الثاني» حفيده «اندرونيكوس الثالث» من وراثة العرش البيزنطي لأسباب عائلية. ورفض أصدقاء الامبراطور الصغير هذا الإجراء. وأدى الأمر إلى نشوب صراع خلال المدة من عام ١٣٢١ م حتى عام ١٣٢٨ م (٧٢٨ هـ). واضطر الامبراطور العجوز تسليم العرش لحفيدة. وشهد الجيل الأصغر، خلال حكم «اندرونيكوس الثالث» ١٣٢٨ ـ ١٣٤١ م (٧٢٨ ـ ٧٤١ هـ) من أبناء الأرستقراطيين نصراً ساحقاً وتجسدت آمالهم. وأصبحت لهم اليد الطولى في توجيه دفة الحكم والسياسة ولم تمض أكثر من سنة على حكم «اندرونيكوس» حتى خسر معركة «بيليكانون» قرب نيكوميدي أمام أورخان العثماني.



واختار الامبراطور، قبول الحقيقة الصعبة، وأعلن دعمه الواسع للعثمانيين. ووجه «آندرينكوس» و«كانتاكوزين» الدعوة لأعداد غير محدودة من الجنود الأتراك، كي تقاتل معهما ضد أعدائهما الإيطاليين في جزر بحر إيجه والصرب والبلغار ومكدونيا وتراقيا.

وخطط «آندورونيكوس الثاني»، كي يسيطر على الصرب ديبلوماسياً. ولكن «دوشان» الذي تسلم عرش صربيا عام ١٣٣١ م (٧٣١ هـ)، استغل ارتباك وضعف بيزنطة إلى أبعد الحدود وأعلن عن رغباته تنصيب نفسه ملكاً وامبراطوراً للصرب واليونان. وابتلع دوشان من ثم كامل اليونان الشمالية وضمها لامبراطوريته.

### نشوب الحرب الأهلية:

لم تلبث الحرب أن نشبت بوفاة «آندرونيكوس الثالث» عام ١٣٤١ م (٧٤١ هـ). وتنافس هذه المرة على العرش، الامبراطور «يوحنا كانتاكوزين»، الذي تصرف، كوصي على العرش المقرر أن يكون نصيب «جون الخامس» من جانب، ومناوئوا كانتاكوزين السياسيون بزعامة نصيره السابق «الكسيوس آبو كاسوس» والبطريرك «جون كاليكاس» والإمبراطورة الوالدة [حنة أو آنا سافوي] التي أمسكت زمام الأمور.

وأخيراً تمكن كانتاكوزين من تنصيب نفسه باسم «يوحنا أو جون السادس» في تراقيا عام ١٣٤٦ م (٧٤٦ هـ). وشق طريقه إلى النصر، بتأييد ودعم من الأتراك العثمانيين، خلال السنوات التي تلت. وقال بأنه ليس أكثر من حام للوريث الشرعي «يوحنا أو جون الخامس باليالوج». وتعرضت بيزنطة خلال حكمة القصير ١٣٤٧ ـ ١٣٥٤ م (٧٤٧ ـ ٧٥٥ هـ) إلى المحن والاضطرابات بشكل لم يسبق له مثيل. وتفجرت الأزمات السياسية والإجتماعية. وصب الأهلون في مدن تراقيا ومكدونيا، جام غضبهم على حكمه. وأعربوا عن سخطهم من ارستقراطية الطبقة الحاكمة وأعلنوا الثورة التي وضعت نصب عينيها اسقاط حكمه وحكم طبقته، واشتد لهيبها. وتركزت بؤرها

في سالونيك. وتمكن قطّاع الطرق الزيلونيون من السيطرة بانقلاب أحدثوه هناك. وحكموا المدينة بشكل مستقل حتى عام ١٣٥٥ م الموافق (٧٥٦ هـ).

كانت الحرب الأهلية الثانية، أكثر تخريباً للإقتصاد من الأولى. وعصف الطاعون عام ١٣٤٧ م بأهالي القسطنطينية وأجزاء أخرى من الإمبراطورية. وعمل كانتاكوزين أقصى جهده، لوقف تدهور الإقتصاد، وحفظ الإستقرار. وحاول لم شعث الامبراطورية المتبعثرة، بأن أقطع بعضاً من أبناء الأسرة المالكة كثيراً من الأراضي. وسيطر ابنه «عمانويل» على مقاطعة موره عام ١٣٤٩ م (٧٥٠ هـ)، وحصل على رتبة أمير بيزنطي مطلق. وحكمها حتى موته عام ١٣٨٠ م (٧٨٢ هـ). وأعطى ابنه الأكبر «ماتو» إمارة في تراقيا، وتزوج ابنه الأصغر الإمبراطور، من إبنه كانتاكوزين، وحكم سالونيك بعد عام ١٣٥١ م الموافق ٧٥٢ هـ.

وحاول «كانتاكوزين» إضعاف اقتصاد [جنوه] بإعادته بناء أسطول بيزنطي حربي وآخر تجاري، ولكنه فشل. ثم تورط في قتال مع الخواص من حاشيته وشركائه. وتحول ريع ايرادات مستعمرة جنوه ـ غلطه ـ، نتيجة الرسوم الجمركية إلى التفوق على إيرادات القسطنطينية من حيث الضخامة. وانعكس فقر الامبراطورية على شكل أبنية متهدمة وقيم من الترف هابطة. ورهنت مجوهرات التاج الملكي للبنادقة أثناء الحرب الأهلية. وأعيد تقييم الذهب والعملة البيزنطية. فارتفع مركز (الدوكا)(١٠) البندقية.

وأكثر فأكثر جرت بيزنطة إلى الوقوع تحت رحمة منافسيها الأجانب، وأعدائها الذين علت منزلتهم في الوقت الذي وسعوا فيه روح العداوة بين أبناء الطبقة الحاكمة. ولم يكن «يوحنا كانتاكوزين» شعبياً. فارتفع العداء إلى القمة ضد حكمه، عندما تقدم العثمانيون واخترقوا «غاليبولي» إثر زلزال مدمر. واحتلوا المدينة وحصنوها في آذار من عام ١٣٥٤ م ـ (٧٥٥ هـ). وكان

(١٠) وهي العملة التي سادت في البندقية آنذاك.



هذا أول تقدم لهم في أوروبا، إذ وضعوا أيديهم على مفتاح العبور من آسيا. وفي العام ذاته، شق (جون باليالوج) وبتشجيع من الحزب المعادي لكانتاكوزين، طريقه إلى القسطنطينية. وتخلى كانتاكوزين في كانون الأول من ذلك العام عن العرش. وعمل راهباً وانتهت من بعده الأسرة الكانتاكوزينية.

### ٦ ـ التوسع العثماني:

استندت العلاقات، بين كانتاكوزين والعثمانيين، إلى أسس شخصية ولقاءات مجاملة وتودد بين القادة فقط. وأبرزها زواج أورخان من ابنة كانتاكوزين. وعندما أرسى العثمانيون قاعدتهم على تراب أوروبا، وتفتحت أمامهم الإمكانيات الأوسع، لم يعد من الممكن استمرار الصداقة المصلحية الآنية السابقة. وأدرك «ستيفان دوشان» وهو الذي عمل بدون إبطاء في تشكيل امبراطورية صربية بيزنطية جديدة، أن عليه منع التوسع العثماني في البلقان، ولكنه توفي، وتجزأت امبراطوريته من بعده.

وعقد الامبراطور الجديد. كبير الأمل على الغرب. علّ النجدة تأتي في ساعة المحن. وطلب المساعدة من البابا. ولكن الاهتمامات البابوية بالكنيسة الشرقية، لم يقتصر إلا على الكلام والدعاء والصلوات فقط.

وحاول تسوية الخلاف بين بيزنطة وروما. وزار أي ـ جون الخامس ـ المجر عام ١٣٦٦ م ـ (٧٦٧ هـ) يستجدي أكف المحسنين عبثاً. وتمكن بعض أقاربه واسمه «أمادو» في تلك السنة، من استرجاع غاليبولي من الأتراك الذين صرفوا همّهم إلى تحقيق تقدم في تراقيا. واستطاع «أمادو» إقناع الإمبراطور بالسفر إلى روما. وإعلانه الخضوع الشخصي هناك أمام الكرسي البابوي المقدس عام ١٣٦٩ م (٧٧٠ هـ). وبينما كان في طريق عودته إلى الوطن، احتجزه البنادقة كمفلس ترتبت عليه ديون باهظة.

ثم حقق العثمانيون نصرهم الأول عام ١٣٧١ م (٧٧٣ هـ) على خلفاء «دوشان» قرب أدرنه على نهر [ماريتزا أو نهر مريج] ففتحت أمامهم أبواب

باقي مكدونيا. وبالتالي تبع لهم باقي أمراء الصرب وحاكم بلغاريا وأجبر الامبراطور أن يحذو حذوهم. فتبعت لهم بيزنطة وارتهن وجودها بدفع الجزية، وتجهيز المعونة العسكرية للسلطان العثماني. وحلّت النزاعات والصراعات، بين أبناء الإمبراطور وأحفاده، وتحولت إلى ثورات متلاحقة. ثم سيطر «آندرونيكوس الرابع» ابن جون الخامس ثلاث سنوات على المدينة، بدعم من السلطان العثماني مراد الأول والجنويين.

وعاد العثمانيون ففتحوا غاليبولي مرة ثانية. وحاول البنادقة دعم «جون الخامس» عام ١٣٧٩ م ـ (٧٨١ هـ) كي يستعيد عرشه. ومرة أخرى تجزأت الإمبراطورية إلى إقطاعيات تحت حكم أبنائه. ولم يبد سوى ابنه الثاني «عمانويل» شيئاً من الإستقلال لخمس سنوات تلت. وحكم سالونيك كامبراطور. وعمل على جعلها نقطة حشد وتجمع ضد العثمانيين. ولكن تلك المدينة سرعان ما سقطت في نيسان عام ١٣٨٧ م (٧٨٩ هـ) بأيدي مراد العثماني وتقدم الأتراك متوغلين في أعماق مكدونيا، فقام الصرب بتنظيم حملة دفاعية مضادة لكنهم هزموا في معركة قوصوه كما ذكرت عام ١٣٨٩ م الموافق (٧٩١ هـ).

### عمانويل الثاني والتوقف العثماني الموقت:

أدت هزيمة الصليبيين في قوصوة، وخسارة سالونيك، إلى تعرض مركز القسطنطينية للتهديد براً. وبعد موت والد عمانويل الثاني تسلم الحكم ابنه عام ١٣٩١ م (٧٩٣ هـ). وحذر السلطان بايزيد الامبراطور البيزنطي الجديد. وأعلمه حقيقة حجمه، وأنه ليس إلا امبراطوراً داخل أسوار القسطنطينية فقط. كيف لا؟ والعثمانيون الآن يمدون سيطرتهم على باقي بيزنطة الأوروبية عدا جنوب البلقان.

وأنهى بايزيد ـ السلطان العثماني ـ فتح بلغاريا عام ١٣٩٣ م (٧٩٥ هـ). وضرب الحصار السريع حول القسطنطينية. ولكن أسوارها قاومت حصاره



لبضع سنين أخرى. وتعلقت آمال عمانويل مثلما تعلقت آمال والده من قبل، بنجدة الغرب له. وجهزت حملة صليبية ضخمة ضد العثمانيين من قبل ملك المجر، فهزمت في نيكوبلي كما ذكرنا في حينه. وحث المارشال الفرنسي «بوسيكو» الذي حضر معركة نيكوبلي ورجع لنجدة القسطنطينية بجيش صغير، عمانويل على السفر إلى اوروبا الغربية لطرح المسألة شخصياً. وبادر الامبراطور عملاً بالنصيحة، وزار إيطاليا وفرنسا وانكلترا، موكلاً شؤون الحكم لصهره «جون السابع» أثناء غيابه.

وأثارت هذه الجولة اهتمامات الغرب في تعليم اليونانية. وعين صديقه وسفيره في الغرب «كريزولوراس» تلميذ «ديمتريوس[11] سايدونيز» لتعليم اليونانية في فلورنسا؛ ودشن البابا حملة جديدة من أجل القسطنطينية. على الرغم من عدم سماح «عمانويل» باستسلام بيزنطة لروما.

## ٧ ـ حوافز الفتح العثماني:

قسطنطين اليائس: تولى السلطان محمد الفاتح الحكم عام ١٤٥١ م (٨٥٥ هـ) والقسطنطينية تحكم من قبل الامبراطور «قسطنطين الحادي عشر» الذي تولى السلطة عام ١٤٤٨ ـ ١٤٤٩ م (٨٥٢ ـ ٨٥٣ هـ). وكان الفاتح في ريعان الشباب. ولجأ إلى عقد الصلح معه ومع غيره. وخصص راتباً للأمير العثماني (اورخان) المعتقل في عاصمة بيزنطة. وثار عليه «ابراهيم» أمير

(١١) ولد ديميتريوس سايدونيز عام ١٣٢٤ م (٧٢٤ هـ) في سالونيك وكان استاذاً انساني النزعة بيزنطي العقيدة. رجل دين ودولة. عمل على تحقيق تحالف بين الغرب وبيزنطة. ادخلت دراسته وتعاليمه إلى إيطاليا وأثرت في النهضة. دخل في خدمة القصر البيزنطي الامبراطوري. ثم غادر إلى ايطاليا بعد سقوط كانتاكوزين. ودرس كتابات العصور الوسطى وفلسفتها. ترجم اعمالاً كثيراً وامتهن التدريس الديني في الكنيسة اللاتينية. رجع للقسطنطينية وعين رئيساً للوزراء من قبل الامبراطور يوحنا الخامس باليالوج عام ١٣٦٩ م (٧٧٠ هـ). ثم رافقه إلى روما والبندقية للدعاية واستجلاب المال والدعم للوقوف في وجه العثمانيين.

القرمان وغيره بتحريض من قسطنطين. ولكنه أخمد ثورته وعفا عنه. وعندما لجأ قسطنطين إلى حيلة جديدة، وأرسل إلى السلطان الفاتح الذي كان لتوه قد جلس على العرش، طالباً منع دفع مصاريف الأمير أورخان الأسير، وطلب مضاعفتها مهدداً بإطلاق سراحه، وتحريضه ضده وإمداده بالسلاح كي يحدث فتنة في البلاد. وبذلك فقد نقض العهد، بانتهازه فرصة انشغال الفاتح، بقمع ثورة ابراهيم أمير القرمان.

شعر قسطنطين بالخطر الذي يهدد ملكه وعاصمته، وحاول طلب العون من الغرب من جهة والزواج بأرملة السلطان العثماني مراد الثاني «ماريا الصربية» إبنة «جورج برانكوفتش»(١٢) كي يحمي نفسه من خطر العثمانيين من جهة، ويكسب بالتالي قوة والدها من جانب آخر، ولكن الفكرة فشلت، لأن أم الفاتح التي بلغت العقد الخامس من عمرها، كانت قد اعتزلت الناس واعتكفت في أحد الأديرة.

وحاول قسطنطين، مصاهرة امبراطور طرابزون، وملك الكرج ولكنه فشل. وفكر أيضاً في الزواج من ابنة رئيس جمهورية البنادقة، ولكنه تراجع لخوفه من الإتهام بالميل نحو اللاتينية. واعتبرت البندقية ما حصل من نكوص إهانة لها وتقاعست عن نصرته وقت الشدائد إبان الحصار.

ولم ييأس قسطنطين من مساعدة الغرب، وأرسل إلى جميع ملوك أوروبا وأمرائها مستغيثاً ومستصرخاً. واستنجد كذلك بالبابا «نقولا الخامس» معلناً قبوله لما اتفق عليه في مجمع فلورنسا الكنسي بصدد توحيد الكنيستين. وكان في الحقيقة لا يطمع إلا في طلب العون. وذهبت هذه المحاولات أدراج الرياح.

**الاستعدادات:**

أوصى السلطان مراد الثاني قبل وفاته، ابنه محمد الفاتح تنفيذ وصية

---

(١٢) جورج برانكوفتش هو أمير صربيا.



جدهم عثمان بفتح القسطنطينية. وكان الفاتح برفقة والده. عندما حصلت معركة ڤارنا بينهم وبين الصليبيين الذي أحاطوا بهم حينها من البر والبحر. وسمع قسم والده قبل بدء المعركة وهو يقول: «لئن كشف الله عني هذا البلاء، لأزحفنَّ لساعتي إلى القسطنطينية...» وبرَّ بيمينه ولم يوفق لفتحها. وهكذا أدرك الإبن أهمية وصية والده.

وطافت الذكريات في مخيلة السلطان الشاب. واستعرض المواقف التي تعرضوا لها في معاملهم مع هؤلاء الأعداء. فهم تارة يثيرون الخصوم ضده، وأخرى يؤلبون الغرب ضد دولته. وإن نسي فلم ينس، تحريض بيزنطة لتيمور لنك ضد آبائه وما جرّه على بلاده من محن. وها هم اليوم يأوون الخصوم، ويفتحون أبوابهم لكل خارج على النظام من أمراء وطامعين، مستخدمين إياهم سلاحاً لإثارة الحروب الأهلية وتعكير صفو السلام والإستقرار.

ونظر محمد الثاني «الفاتح» إلى الخارطة وتفحصّ موقع القسطنطينية فيها، وما يمكن أن تسببه لدولته، ـ وخاصة جناحها الأوروبي ـ من خطر. وكأنها شوكة في حلقها. إن الفتح مصير وقضية حياة أو موت. لكنه لن ينقض العهد الذي التزم به إزاء الإمبراطور. أما وقد نقض قسطنطين ذلك العهد وحنث به فلا بد عند ذلك من التحلل من الإرتباط. ثم ندم قسطنطين وشعر بالخطر. وكف عن تهديداته، ولكن بعد فوات الأوان.

**التمهيد للفتح:**

تلخصت خطة الفتح بما يلي: تضييق الحصار وتكثيف القوات، دك الحصون وتشديد الهجوم، ثم عزل المدينة.

وكانت أولى الاستعدادات التي جرت، عقد الاتفاقات السلمية مع البندقية والأفلاق والمجر والبوسنة وغيرها من الإمارات. ثم عقد هدنة مع «هونياد» المجري مدتها ثلاث سنوات. ووضع الفاتح في اعتباره، توقعات شن أوروبا حملة لنجدة المدينة. أما على الشاطىء الأوروبي من مضيق البسفور،

فبنى قلعة هي «رو مللي حصار»[١٣] مقابل القلعة التي بناها بايزيد الأول على الشاطيء الأسيوي في أضيق نقطة من المضيق «أناضولي حصار». والهدف واضح. وهو محاولة إغلاق هذا الممر المائي من جهة، والحيلولة، دون وصول المساعدات عن طريق البحر الأسود للمدينة من جهة أخرى.

واستخدمت لجلب مواد البناء وإنجاز العمل ألوف العمال من كافة أرجاء الدولة العثمانية واشترك السلطان شخصياً.

وخاف قسطنطين، وتراجع عن بعض مطالبه السابقة، وأرسل إلى السلطان يقول: «لما كان من الجلي، أنك تريد الحرب أكثر من السلام. ولما كنت غير مستطيع أن أقنعك بإخلاصي واستعدادي لأن أكون تابعاً لك، لذا فالأمر لله. وسأوجه وجهي إلى الله. فإذا كانت إرادته تقضي، بأن تصبح هذه المدينة مدينتك، فلا مرد لقضاء الله وقدره. وأما إذا ألهمك الرغبة في السلام، فسأكون سعيداً ما بقيت. ومع ذلك فإني أعفيك من كل تعهداتك واتفاقاتك معي. وسأغلق أبواب هذه المدينة. وأدافع عن شعبي إلى آخر قطرة من دمي...».

وأجاب الفاتح: «ليس فيما أقوم به ما يهدد مدينتكم. إنما هي أسباب الحيطة، اتخذها لدولتي. وليس في ذلك أي نقض للعهد. إن لكم القسطنطينية بأسوارها، وليس لكم وراء ذلك من شيء. هل نسيتم ما انتاب والدي من الفزع، عندما تحالف امبراطوركم مع المجر وأراد منعه من عبور البحر إلى أوروبا، وسدّت السفن المضيق، فاضطر مراد أن يستعين بالجنويين. لقد كنت حينذاك في أدرنه. وكنت لا أزال فتىً يافعاً. وقد ارتعد المسلمون من الخوف والفزع. وكنتم تسخرون منه وتشتمونه. لقد أقسم والدي في

(١٣) بنيت قلعة روملي حصار عام ١٤٥٢م من قبل الفاتح على الجانب الأوروبي من مضيق البسفور.



موقعة فارنا، ليقيمنَّ قلعة هنا على الشاطيء الأوروبي. وها أنذا أبرُّ بيمينه، وليس لكم الحق أو القوة، في منع ما أقوم به في أرضي. فإن كلا الشاطئين لي. أما الشاطيء الآسيوي. فلأنه يسكنه المسلمون. وأما الشاطيء الأوروبي، فلأن الروم قد هجروه. وأنتم لا تقدرون على الدفاع عنه. اذهبوا إلى سيدكم وأخبروه، أن السلطان العثماني الآن، يختلف عن أجداده. فإن لي عزماً فوق عزمهم، وقوة فوق قوتهم. انصرفوا الآن إلى دياركم بسلام. والله ما جاءني أحد منكم، بعد ذلك بمثل هذه الرسالة إلا قتلته».

وأنجز بناء هذه القلعة في غضون ثلاثة أشهر. وهي بشكل مثلث. سمك جدارها عشرون قدماً. غطيت أبراجها الضخمة بطبقة سميكة من الرصاص. ونصبت المجانيق والمدافع الضخمة، على الشاطيء كي تمنع مرور السفن. فكانت بذلك هذه القلعة، قاعدة عسكرية للعمليات الحربية في أوروبا، ومستودعاً للتموين والأسلحة. وأوكلت قيادتها إلى «فيروز آغا» وأربعمائة جندي انكشاري.

وتوجه الفاتح في ١٢ شعبان من عام ٨٥٦ هـ الموافق ٢٨ آب ١٤٥٢ م. إلى أدرنه، على رأس خمسين ألفاً من قواته. ثم عاد بعد ثلاثة أيام في مهمة استطلاعية شخصية. ولإحداث وقع نفسي خطير على جند عدوه. ولعله أراد كما يقول اللواء محمود شيت خطاب، اختبار رد فعل دول الغرب، تجاه إقدام المسلمين على محاصرة القسطنطينية. أو أنه أراد تضليل قسطنطين وإظهار حسن نية العثمانيين وانهم لا يودون فتح عاصمته، بل يريدون التهديد فقط.

ثم أرسل «طرخان» أحد مرؤوسيه. في شهر شوال إلى الموره، لإقناع حاكميها ـ أخوي قسطنطين ـ بمنع مساعدته. كما أرسل بعضاً من قواته، لتطهير المناطق المجاورة للمدينة. وقال لـ (أقجة يولو غلو محمد بيك]: تعجل وحاصر استانبول بسرعة، وبادر محمد بيك، وأخلى السكان من حول بوابات المدينة، وأقصى قطعان الماشية عن القرى المجاورة.

وقال البعض للامبراطور: «إن الأتراك قد طعنوكم في الصميم، وهدموا

بيوتكم فوق رؤوسكم. وقال لهم الامبراطور: إن التجاور بيننا وبينهم، كالتجاور بين الصقر والغراب. ثم قال: إذا كان هناك من وسيلة لإنقاذ أنفسنا منهم، فعلينا منا شدة صديقنا «خليل باشا».

وجرت محاولة رشوة خليل باشا القائد العثماني. ووضع الذهب في جوف سمك قدم له على طبق. لكن دون جدوى لقلة حيلته. وقال له السلطان عندما حاول التدخل «إن ما سنقوم به هو ما أمر الله به».

ثم أقبل الشتاء وقدم معه الفرج على المدينة. وحاول خليل باشا صرف الفاتح عن هدفه وأجاب الفاتح بأن الأمبراطور إذا كان يخشى الحرب فليسلم المدينة.

وبدأت بوادر الحرب تظهر منذ شهر شباط عام ١٤٥٣ م (٨٥٦ هـ)، عندما أتم محمد الثاني استعداداته الضخمة، وخاصة الأسطول والتحصين وخطوط المواصلات. وزاد من تصميمه وإذكاء عزيمته، مهاجمة السفن الإغريقية الشواطيء الإسلامية التركية وقتل العديد من المسلمين وبعض النصارى وزرع الدمار والخراب.

وبدأت النجدات البسيطة ترد كي تهديء الروع البيزنطي ودخلت البسفور والقرن الذهبي[١٤] سفينتان بندقيتان. وحضر مبعوث الباب الكاردينال «إيزيدور» برفقة مائتا مقاتل فقط. ليس بهدف العون، بل للعمل على توحيد الكنيستين. وجاءت ثماني سفن من جزيرة كريت تحمل النبيذ للمحاصرين بدل السلاح.

ومن فوق ظهر سفينة محملة بالمؤن والذخائر، نزل المغامر الجنوي «جون جستنياني» وبرفقته سفينة أخرى أنزلت سبعمائة مقاتل. وبادر قسطنطين فوراً وعينه قائداً للقوات المحاصرة، وكلفه وأتباعه بمهمة الدفاع عن الأبواب

(١٤) خليج القرن الذهبي في استانبول الأوروبية يمتد من بحر مرمره باتجاه الشمال الغربي. نصبت عليه اليوم بضعة جسور مثل جسر غلطة وجسر أتاتورك تربط المدينة. وفيه مرسى العديد من القوارب التي تنقل الركاب من المناطق المجاورة إلى المدينة وبالعكس.



والنقاط الخطرة. وأخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن المدينة.

ووضع المدافعون سلسلة ضخمة، في فم القرن الذهبي، لمنع السفن المعادية من المرور. وهكذا لم تقم اوروبا النصرانية بنجدة القسطنطينية إلا بالقليل القليل. ولم تهتم إلا بالوصول لأهدافها الذهبية ضامرة روح العداوة والكراهية وهي تخبىء سخطها وتفرح شماتة بمصير بيزنطة وعاصمتها المحتوم. فهل يتعظ المسلمون اليوم وهم يقرأون صفحات التاريخ؟ وهل يترفعون عن المجادلات العقيمة والخلافات الهامشية التي لا تعود بالنفع إلا على اعدائهم. إن التتار والصليبيين لم يفرقوا بين مسلم وآخر عندما ظهروا على هذه الأمة، كذلك الوثنيون والملحدون واليهود في عصرنا الحديث.

كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق في الجانب العثماني. وتجمع الجنود النظاميون وغير النظاميين في أدرنه عاصمة السلطان ومعسكره الكبير.

وارتفعت الروح المعنوية إلى الأوج. وسيطرت فكرة الجهاد في سبيل الله ونصر دينه. فالشهادة غاية الجميع. والتطلع إلى رضوان الله أولى الأماني. وحرك العلماء الهمم والمشاعر، وبثوا روح الجهاد والاستشهاد. ولم تغمض عين السلطان لحظة.

**المدفعية:**

كان المهندس المجري «أوربان»، قد عرض خدماته الفنية على الإمبراطور قسطنطين لكنه رفضها. وطاف أوروبا وهو يعرض اختراعاته على ملوكها، فلم يعيروه أذناً صاغية. واستقبله السلطان العثماني، وأغدق عليه الأموال، وأحسن استقباله. ووضع تحت تصرفه ما طلب وسأله: «هل يمكنك أن تصنع مدافع أضخم من التي صنعتها حتى الآن؟» وأجابه أوربان: «في استطاعتي أن أصنع لك مدفعاً، يدك أسوار القسطنطينية، ولو كانت في مناعة أسوار بابل، غير أني مهندس ولست جندياً، فلا أعرف أين توضع المدافع».

وضحك الفاتح وقال: «أنا الجندي، ما عليك إلا أن تصنع المدافع التي

أريدها. أما أين توضع وكيف تصوّب، فدع ذلك لي».

وشرع أوربان بالعمل. وعاونه اثنان من المهندسين الأتراك. وأشرف السلطان بنفسه وكان له ما طلب. ومن بين هذه المدافع، صنع واحداً لم ير من ضخامته وحجمه من قبل. فوزنه سبعمائة طن. ووزن قنبلته الواحدة (١٢ ألف) رطل. ويجره مائة ثور يساعدها مائة من الرجال الأشداء. وقطع الطريق من أدرنه إلى مربضه، أمام أسوار القسطنطينية في شهرين. وهو الطريق الذي يقطع عادة في يومين آنذاك.

وصنع أوربان مدافع أخرى، إضافة إلى هذا المدفع السلطاني، مما زاد في قوة المدفعية العثمانية، وجعلها تتفوق على كافة قوى المدفعية في ذلك الزمن.

ثم رأى الفاتح أن جهة الدردنيل لا تزال مكشوفة، ويمكن للسفن المعادية الدخول منها. فأمر في بناء سفن جديدة، وأصلح السفن القديمة، وحشدها في بحر مرمره. حتى بلغ عددها حوالي أربعمائة سفينة. ولكنها ضعيفة التسليح باستثناء اثني عشر فقط.

وفي يوم الجمعة العشرين من شهر ربيع الأول عام ٨٥٧ هـ الموافق ٣٠ آذار عام ١٤٥٣ م أنهيت الاستعدادات العسكرية الضخمة. وطهّرت المنطقة المحيطة بالقسطنطينية من العدو وكدست الأسلحة والذخيرة والعتاد، ورتبت الشؤون الإدارية. وسيطر العثمانيون على منافذ القسطنطينية المائية، وبث روح الجهاد، وبدأ الزحف.

وظهر الجيش العثماني أمام الأسوار، يتقدمه العلماء، وترفرف الأعلام من فوقهم، والموسيقى تصدح والطبول تقرع من حولهم، والخيل والدواب



والمدافع الكبيرة تحتشد. وما أن وصل القائد الفاتح مشارف المدينة، حتى ألقى خطبة بليغة، قرأ فيها آيات الجهاد واستشهد بأحاديث الرسول الكريم ﷺ. والتي تبشر بفتح القسطنطينية وأجر من يفتحها. ووقف في مقدمة الصفوف الشيخ «آق شمس الدين»[١٥] والمولى «أحمد الكوراني» والمولى «خسرو» والأشراف من أهل البيت. والسنتهم تلهج بالدعاء إلى الله العلي القدير. وحان وقت صلاة الظهر. وكبرّ الفاتح للصلاة وكبر الجيش وراءه. ثم بدأ التأهب للحصار.

بدأ الحصار: قبل أن نصف ما جرى، لا بد من إلقاء نظرة على المعالم الجغرافية والطبيعية للمنطقة. فشكل المدينة مثلث. يشرف أحد ضلعيه على بحر مرمره، ويمتد الآخر محاذاة القرن الذهبي. ويحيط بكل ضلع من هذين الضلعين سور واحد. أما الضلع الثالث فيقابل أوروبا في الجهة الغربية. ويحيط به خطان من الأسوار، يمتدان من شاطىء بحر مرمره إلى شاطيء القرن الذهبي. وارتفاع كل منها أربعين قدماً. ودعِّم السور الخارجي بأبراج طول كل منها ستين قدماً. وبين كل برج والذي يليه ١٨٠ قدماً. وارتفاع السور

(١٥) الشيخ آق شمس الدين واسمه محمد بن حمزة. ولد بدمشق ثم انتقل وهو صغير إلى تركيا. كان يميل للتصوف إضافة إلى معرفته الطبية حيث له تصانيف في هذا الفن. وقد قال عند فتح القسطنطينية: سيدخل المسلمون القلعة من الموضع الفلاني وقت الضحوة الكبرى. كان رحمه الله يأبىَ أن يدخل الفاتح معه في الخلوة وقال له مرة: انك اذا دخلت الخلوة تجد لذة فتسقط السلطنة من عينك وتختل أمورها فيمقت الله إيانا. والغرض من الخلوة، تحصيل العدالة أن تفعل كذا وكذا. جاءه الفاتح يوماً إلى خيمته والليل مظلم، فعانقه وضمه.. وبعد صلاة الفجر وتلاوة الأوراد، التمس من الشيخ تعيين قبر أبي ايوب الأنصاري، الصحابي الجليل وقبره قريب من الأسوار كما يروى تاريخياً.. ثم جاء الشيخ وقال: إني أشاهد في هذا الموضع نوراً، لعل قبره ههنا. فجاء إليه ثم توجه زماناً ثم قال: التقت روحه مع روحي وهنأني بهذا الفتح. وأخبر السلطان بذلك. وطلب السلطان علامة يعينها بنفسه ويطمئن بها قلبه. فتوجه الشيخ ساعة ثم قال، احفروا هنا من جانب الرأس من القبر مقدار ذراعين تظهر رخامة عليها خط عبراني. فحصل ما قرره وتبين صحته. وعندها دهش الحاضرون...

الخارجي حوالي ٢٥ قدم. وهو محصن بأبراج كالسور الداخلي، وإن كانت أصغر حجماً. وقوة السور الخارجي، من المنعة والحصانة ما يكفي لحماية المدينة. وبين هذين السورين مسافة من الأرض، يبلغ عرضها، حوالي ٦٥ قدم. وهنالك سور ثالث، أمام السور الخارجي ليس بذي أهمية. وبينه وبين السور الخارجي، أرض مكشوفة أيضاً، يقع أمامها خندق واسع يبلغ عرضه حوالي ستين قدماً. ويمثل خط الدفاع الأول. وللسور أبواب هي: باب أدرنه ـ باب المدفع «طوب قبو» وهو ما كان يسمى باب القديس رومانوس ـ الباب العسكري.

**قسم الفاتح قواته إلى ثلاثة أقسام:**

١ ـ الميمنة: وشغلها جنود الأناضول وقائدهم «اسحاق باشا» ويعاونه محمود بك. وهي تتمركز في المسافة بين بحر مرمره في أقصى الجناح الجنوبي وحتى طوب قبو.

٢ ـ الميسرة: وشغلها جنود أوروبا، والمجاهدون، والجنود غير النظاميين وقائدها قره جه باشا.

٣ ـ القلب: وشغله جنود الإنكشارية، وقوات أخرى مختارة. والقيادة هنا للسلطان. وتمركزها يمتد من طوب قبو إلى باب أدرنه. وهنا يقع أضعف جزء من السور في وادي (ليكوس).

أما القيادة فكانت خلف القلب.

وينم هذا التقسيم عن مرونة فائقة، ومعرفة قوية في أصول الخطط العسكرية. فالملاحظ أن السلطان، قد ولّى كل قسم من أقسام جيشه، قيادة خاصة به، وأعطى حرية العمل للقادة ضمن قواطعهم، تطبيقاً للخطة العامة، وتنفيذاً لتفصيلاتها ومع ذلك فهو يسيطر، على زمام القيادة العليا، لتأمين التعاون الكامل بين قواته في الحصار.

وعسكر زغنوس باشا الألباني الأصل، وفرقته الاحتياطية، على المرتفعات



الجبلية المطلة على حي غلطه، بغية مراقبة الجنويين، ومنعهم من إمداد المدينة، ولمراقبة الشاطيء الشمالي من القرن الذهبي.

وتمركزت المدافع، التي بلغ عددها أربعة عشر سرية مدفعية حسب حجمها، حول الأسوار. ووضعت لها خطة القصف. وجعلت مرابضها الضخمة، مقابل باب رومانوس الذي من حينه أصبح يعرف باسم باب المدفع «طوب قبو».

أما السفن فجالت في بحر مرمره، في مهمة للاستطلاع والمراقبة. وأمر «يالطه أوغلي» قائد البحرية، بالاستيلاء على جزر الأمراء[١٦]. وجرى احتلالها بالفعل. واخرج منها السجناء، ووضعت فيها حامية عثمانية.

أما في داخل المدينة المحاصرة. فاتخذ الامبراطور مقره. ونشر جنوده على الأسوار وعين جستنيان قائداً عاماً.

واختلف المؤرخون في قوة الجيش العثماني ـ وهوّل البيزنطيون فزادوا في العدد وبالغوا فيه حتى أوصلوه إلى ٣٠٠ ـ ٤٠٠ ألف مقاتل، في محاولة لتهوين شأن الهزيمة، والغض من أهمية النصر العثماني. وقال بعض الغربيين، إن تعداد الجيش العثماني بلغ ١٥٠ ـ ١٦٠ ألف مقاتل فقط. وهذا أقرب إلى الإعتدال. وقدّر الكتاب المعاصرون قوة المدافعين عن المدينة من الروم، بثمانية آلاف مقاتل، نصفهم من الروم، والآخر من اللاتين. وهذا ليس معقولاً، فقد شارك الرهبان والقسس والمدنيين وكافة الروم الذين أجلوا عن مدنهم وقراهم التي فتحها العثمانيون.

---

(١٦) جزر الأمراء: وهي متبعثرة في بحر مرمرة قرب البوسفور. منها ٤ جزر متباينة المساحة أهمها (بيوك آضا). يعرفها المصطافون من جميع أنحاء العالم ولا يسمح باستعمال وسائط النقل إلا عن طريق العربات التي تجرها الخيول حفظاً على الراحة والهدوء والبيئة. كانت سجناً يودع فيه الأمراء البيزنطيون العاقون فيما سبق.

المناوشات:

بدأت المدفعية العثمانية القصف ليلاً ونهاراً. وكانت الأسوار تتهدم، ويقوم المدافعون بإصلاحها. ثم أحدث المهاجمون ثغرة في السور عند وادي ليكوس واندفعوا نحوها في ١٨ نيسان. ولكن الفاتح أمر جنده بالانسحاب بعد أن حصل على بعض المعلومات. وحاولت بعض السفن تحطيم السلسلة الحديدية عند مدخل القرن الذهبي فلم تفلح. وظهرت في صبيحة يوم الجمعة الواقع في ١١ ربيع الأول الموافق ٢٠ نيسان. بعض السفن بلغ تعدادها خمساً، قادمة من الغرب، تحمل المعدات والرجال. وعندها أسرع الفاتح على ظهر جواده. إلى شاطيء غلطه. وطلب الاستيلاء عليها وإغراقها. ولم تتمكن السفن العثمانية من تحقيق الهدف. فهي قد بنيت على عجل وكانت غير محكمة الصنع. ولم يكن بعضها مسلحاً بصورة جيدة، أمام تفوق الطليان سادة البحر آنذاك. فهم لبسوا الدروع وأخذوا يطلقون القنابل، على السفن العثمانية الصغيرة. ثم سكنت الريح فجأة وانتهز «يالطة أوغلي» الفرصة، وانقضَّ على السفن الخمس محاولاً إحراقها. والفاتح يراقب المعركة وقد غاصت اقدام جواده حتى الصدر في الماء. والسفن اصبحت على مرمى حجر منه. وفجأة هبت الريح الجنوبية القوية عند المغيب. فعبرت السفن المعادية إلى القرن الذهبي بسرعة. وأنزلت السلسلة الضخمة ثم شدت من جديد. ولم يحقق العثمانيون النصر ومنوا بخسائر فادحة، وخرج الفاتح وقد ابتلت أطراف ثيابه وعاد إلى معسكره، وفرح سكان القسطنطينية وقوي الأمل في نفوسهم، بينما جرى عزل «يالطة أوغلي» وتعيين «حمزة باشا» بأمر من السلطان الذي أشار بالتشديد على قصف الأسوار وقال لحمزة باشا: «إذا لم تنجح فلا ترجع لي حياً».

سفن البرفوق غلطة ومعركة القرن الذهبي البحرية:

كان هدف هذه العملية كما سنرى يتلخص في:

١ ـ السيطرة على ميناء القرن الذهبي، بعد محاولات تحطيم السلسلة



المعدنية التي باءت بالفشل.

٢ ـ محاصرة القسطنطينية من جانبها الضعيف.

٣ ـ إضعاف الدفاعات عن السور البري.

٤ ـ مراقبة سكان غلطة الجنويين ذوي المصالح النفعية.

٥ ـ تشتيت القوات المدافعة عن المدينة وبعثرتها.

٦ ـ إحكام الإتصال بين القوات العثمانية المهاجمة، وقاعدتها في «روملي حصار».

٧ ـ مفاجأة العدو بخطة غير متوقعة.

وتلخصت خطة سفن البر التي لاحت للفاتح، في نقل عدد من السفن عن طريق البر خلف هضاب غلطة، من مرساها في «بشكطاش» حتى القرن الذهبي، دون الاقتراب من سكان غلطة، وقطعها مسافة قدرها ثلاثة أميال عبر أرض غير ممهدة. وفرشت الأرض بالألواح الخشبية، ودهنت بطبقة سميكة من الزيت والدهن. وتقدمت السفن الصغيرة، بعد نشرها أشرعتها. واستطاعت قطع المسافة بسهولة، واشترك العمال في جرها. وبهذه الطريقة نقل العثمانيون سبعين سفينة فوق البر من البوسفور حتى القرن الذهبي في ليلة واحدة هي ٢١ ـ ٢٢ نيسان من عام ١٤٥٣ م.

وكي يموِّه الفاتح على عملية انتقال سفنه، قامت مدفعيته المرابطة خلف أسوار غلطة، ومن أعالي الهضاب، بإطلاق قنابلها تجاه الأسوار المطلة على القرن الذهبي بصورة مستمرة ليلاً ونهاراً. وعلى الرغم من استخدام هذه الخطة سابقاً عبر العصور، إلا أن سرعة انجازها بهذا الشكل وبتلك الدقة، كان من مفخرة مبتكراته الفائقة.

ونجحت الخطة في صرف انتباه الروم والجنويين عن عملية الانتقال. وثارت دهشتهم الكبرى عندما علموا بها ولم يصدقوها. واستيقظ أهل المدينة في صبيحة يوم ٢٢ نيسان، على صيحات المسلمين المدوية «الله أكبر». وأطلّوا، فرأوا بأم أعينهم، سبعين سفينة عثمانية، ترسو في ميناء القرن

الذهبي، برجالها وعتادها، وتندفع بسرعة إلى أعالي الميناء، حيث الحماية الطبيعية والعسكرية. وأمر الفاتح من فوره ببناء جسر عائم فوق مياه الخليج. ونصبت عليه المدافع لقصف أجزاء السور المواجهة للميناء. وهكذا حوصرت سفن العدو بين فكي كماشة، من أعالي الميناء، ومن خارجه حيث تجري محاولات تحطيم السلسلة الحديدية.

إزاء هذا العمل العسكري الضخم، اضطر الامبراطور إلى تغيير خطته. ووضع عدداً كبيراً من الجند في جانب السور المقابل بغية المراقبة. ثم عقد اجتماعاً طارئاً في كنيسة سانت ماري مع بعض قادته وبحضور «جستنيان». وقرر المؤتمرون، ضرورة التخلص من الخطر الجديد الطارىء. ووضعوا خطة لإحراق السفن ليلاً. وأسندت قيادة الحملة التدميرية إلى «جاكومو كوكو». وتسربت الأنباء بسرعة إلى سكان غلطة، -حيث أعلم السلطان بوقائع المؤتمر.

والحقيقة فإن الجنويين، الذين كانت قلوبهم حقاً مع الإمبراطور، فإن ألسنتهم كان تتلوى في ممالأة السلطان خوفاً من قوته. وأرسلوا في الوقت ذاته وفداً إلى المؤتمرين، طالبوا قسطنطين عدم التعجيل بالعملية الخطيرة المزمع تنفيذها. وأنهم سوف يشتركون إذا ما أجلت ليوم واحد فقط. ولكنهم كرروا إعلام السلطان بما جرى. ثم بدأ تنفيذ العملية، وقام الأمبراطور بشن حملتين لصد الهجوم. وتلخصت أولاهما بالإنقضاض على السفن العثمانية الراسية في الميناء بقيادة (كوكو) المار الذكر. ولكن العملية فشلت وتحطمت سفنه. وتلخصت الثانية بأنها جاءت كرد انتقالي على فشل المحاولة الأولى، وقادها جستنيان، فغرقت سفينته ونجا من الموت بأعجوبة. وفر المهاجمون، وانتقم الامبراطور، وعلّق رؤوس مائتين وستين أسيراً عثمانياً فوق ظهر الأسوار.

٣- انهيار الروح المعنوية:

نتيجة الفشل الذي حل بالامبراطور وقواده، خيم الحزن الشديد عليه، وفقد ثقته بنفسه. وظهرت بوادر اليأس على وجه جستنيان. ثم حصل نزاع



حاد بين الجنويين والبنادقة وصل إلى مرحلة الصدام المسلح. وحمّل كل فريق تبعات الهزيمة للآخر. مثلما حمّل العرب تبعات هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ م لبعضهم بعضاً.

وانهارت معنويات المحاصرين وزاد في شدتها، تناقص المواد التموينية داخل المدينة. ونصح قسطنطين في مغادرتها. ولكنه فكر في إرسال سفينة استغاثة إلى قيادة الأسطول البندقي الراسي في الأرخبيل، لعلها تهب لنجدته. ولكن لم يكن هناك لا أسطول ولا منجدين. وأرسل رسلاً إلى إيطاليا واسبانيا وفرنسا وغيرها مستصرخاً. ولكن الخيبة والفشل كانت ردا على ندائه.

وصمم الفاتح في هذه الآونة، إغراق السفن المعادية بطريقة جديدة. وجعل يدك الميناء من إعالي الهضاب خلف أسوار غلطة، فهربت السفن المعادية واحتمى بعضها. ورمت الخطة إلى إنهاك المحاصرين مادياً ومعنوياً، واشتغلوا بالخصام والنزاع فيما بينهم في خضم هذه الشدة، أمام مرأى ومسمع الامبراطور الحزين الذي اغرورقت عيناه بالدموع. فبدلاً من أن يجمع الخطب شتاتهم فرّق أمرهم. وتلك مصيبة يصلاها من اعمى الله قلبه وبصيرته فما يزداد إلا ضلالاً والتاريخ يعيد نفسه.

وشن العثمانيون هجوماً جديداً في وادي ليكوس، ثم انسحبوا إلى مواقعهم. وهرع المحاصرون إلى الكنائس يصلون ويتضرعون حتى مطلع الفجر.

ونقل الفاتح مدافعه من فوق هضاب غلطة، لدعم المدفعية الرابضة عند باب القديس رومانوس ولمضاعفة قصف أضعف نقطة في السور البري.

الحرب النفسية:

كانت صيحات العثمانيين، وهم يتسلقون الأسوار بصورة بطولية، تدوي بصوت عال «الله أكبر» وهذا ما أدخل الرعب في قلب الامبراطور وجنده، وانهارت معنوياتهم إلى الحضيض. واقترحوا عليه مغادرة العاصمة من



رسم يوضح كيفية نقل السفن فوق البر اثناء فتح القسطنطينية.



جامع أبي أيوب الأنصاري في استانبول. أقيم في المكان الذي اكتشف فيه قبر الصحابي الجليل رضي الله عنه.

جديد إلى مكان آخر يدير منه المعارك، ويتمكن عن طريقه من تأليب الدول النصرانية ضد عدوه. ولكنه رفض وانهمرت الدموع من عينيه.

وسمع المحاصرون ليلة ١٦ مايس، ضربات شديدة تحت الأرض، تقترب رويداً رويداً. وكانت تلك أصوات حفر الخنادق الأرضية التي يؤديها جنود الفاتح، في محاولة لبث الرعب والفزع. ولم يدر بخلدهم أن العدو يتربص بهم وسرعان ما صب عليهم الغاز والنفط والمواد الملتهبة ولكن عزيمتهم لم تخور وعادوا إلى تكرار العمل، وازدادت اصوات الفزع والعويل بالتالي من كثرة حفر الخنادق.

واستيقظ أهل القسطنطينية، صباح يوم ٢١ مايس، فرأوا قلعة شاهقة، شيدها العثمانيون للتو من الخشب. وانتصبت شاهقة تجاه باب رومانوس حيث المقر التعبوي للمغامر الجنوي. وكسيت هذه القلعة بالجلد السميك المبلل بالماء كي لا تؤثر فيها النار والنبال. وحُمِّلت في طبقاتها أكداس الجند والذخيرة. وثبتت في أسفلها طبقات التراب والأحجار والأخشاب لردم الخنادق. وعلقت فوق أعاليها سلالم الحبال المربوطة في كلاليب تيسر تثبيتها في أطراف السور.

وانهالت قذائف الحجارة الضخمة من فوقها على ابراج السور القريبة. ودهش قسطنطين وأهل مدينته، وانتابهم الفزع. ففي مدة لا تزيد عن أربع ساعات من ليلة واحدة جرى هذا التصميم المفاجيء المذهل ونفذ بالفعل.

وأحدث المسلمون ثغرة واندفعوا نحوها، واقتربت القلعة من السور. وتسلق قسم من الجند أسوار السور بالسلالم.

ورأى المؤرخ البندقي «باربارو» صديق الامبراطور الحميم القلعة فقال: «لو اجتمعت كافة نصارى القسطنطينية، على أن يصنعوا مثل هذه القلعة، لما صنعوها في شهر. وقد صنعها الأتراك في ليلة واحدة؛ بل في أقل من أربع ساعات.

وقذف الأمبراطور وجنوده، هذه القلعة بالمواد الملتهبة بغزارة، واحترقت



الجلود والتهمتها النيران. ولكن بعد أن حطمت أربعة أبراج بما فيها من جند وعتاد. ثم احترق كاملها. وامتلأ الخندق بالحجارة والتراب، وانسحب العثمانيون. وقد قال المؤرخ التركي ضياء شاكر: «إن السلطان محمد الفاتح» ما زاد على أن ابتسم عندما رأى القلعة الخشبية كومة من الرماد. وقال لمهندسه «مصلح الدين»: غداً نصنع أربعاً أخرى غيرها. ويقول اللواء الركن محمود شيت خطاب. بأن الفاتح كان يقاتل عدوه بأسلوبين. أسلوب الحرب الاعتيادية، وأسلوب الحرب النفسية. وكان بحق كتلة من النشاط والعزم والتصميم. ومثالاً حياً للقيادة البارعة النادرة القادرة.

وفي صبيحة يوم الأربعاء، الخامس عشر من جمادي الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة للهجرة، الموافق ٢٤ مايس، عقد مؤتمر في قصر الامبراطور، حضره قسطنطين، وكبار قادته العسكريين، ووكيل البطريرك من أجل التشاور والتداول. وخيم اليأس على المؤتمرين. واقترحوا على الامبراطور مغادرة البلاد انقاذاً لنفسه. فرفض وأغمي عليه من هول الصدمة. ثم أفاق واجهش بالبكاء.

وفي ٢٦ مايس ازداد الهلع والاضطراب بعد تجمع سحب الدخان الكثيف، وحدثت بعض الظواهر الكونية بانقضاض نيزك على قبة أيا صوفيا كاد يخطف الأبصار. فازداد الضيق والكرب والتشاؤم. ثم هطل المطر الغزير، وبرقت السماء وأرعدت وازداد الخوف والوجوم.

### ٨ ـ الهجوم العام:

أ ـ ما قبل الهجوم العام: بعد ستة أسابيع من الحصار، تبلورت مواقع الهجوم على المدينة وهي بين (تغفور سراي) و(باب أدرنه). وعند باب القديس رومانوس في وادي ليكوس وبالقرب من الباب العسكري.

وبعد إتمام الخطة، بعث السلطان برسالة إلى قسطنطين مع رسول يدعي (اسفنديار أوغلو) واقترح عليه الخروج من المدينة، وحاشيته ومن يريد من

شعبه. كما عرض عليه أن يصبح حاكماً (للموره) كما كان من قبل. وتعهد السلطان أن لا يمسه بأذى هو ومن شاء الخروج معه. أما من شاء البقاء، فإنه وممتلكاته، في رعاية السلطان وحماية الدولة. وكان ذلك حقناً للدماء وتجنباً من تخريب المدينة. ولكن تجار الحروب والمغامرين أمثال جستنيان، كان موقفهم الرفض، وأذعن الامبراطور لرغبتهم. فشهوة الحكم أغرته. وعلى الرغم من شكره الله في جنوح السلطان للسلم، وقبوله إياه دفع الجزية، إلا أنه أقسم أن يدافع عن القسطنطينية إلى آخر نفس في حياته. فإما أن يحتفظ بعرشه، أو يدفن تحت أسوارها. ذلك كان جوابه للسفير العثماني في (أسفنديار) الذي نصحه بالتسليم.

وعلم السلطان برده وأجاب قائلاً: «حسناً، عن قريب، سيكون لي في القسطنطينية عرش، أو يكون لي فيها قبر...».

وعزز الأتراك المواقع الثلاثة المذكورة آنفاً. وتمكنوا في الوقت ذاته، من تطوير مدفع يرمي قذيفته إلى الأعلى، كما هو الحال في المدافع التي تستعملها الجيوش الحديثة. وحدث بعض التدمير. ووصلت القذائف إلى قلب العاصمة. وبذا أصبح كامل المدينة تحت رحمة المدفعية العثمانية.

وعقد مجلس حربي في خيمة السلطان، حضره كبار القادرة العسكريين، والعلماء المسلمين، وطلب الفاتح منهم المشورة. وكانت الآراء كالتالي:

الرأي السلمي المثبط: وقدمه خليل باشا العجوز. وفند رأيه الشبيه بآراء المناورين والسياسيين المحترفين. أولئك الذين يتذرعون بأوهام وحجج تفوح منها رائحة العمالة. كما يتذرع اليوم الكثير بالقوى العالمية الشرقية والغربية ويخشون بطشها، ويستبعدون جانب الإتكال على الله الذي ينصر جنده إذا ما نصروه.

وتذرع خليل باشا وقال بأن الدول النصرانية، لن تسمح للعثمانيين باحتلال المدينة. والأجدر تركها لأنها ستسقط من تلقاء نفسها فيا بعد وإلا



فإن البندقية سوف تتدخل. وكذلك هونياد المجري، واسكندر بك الألباني، ويتفاهم اللاتين والإغريق. والأجدر إرجاء الفتح لوقت آخر تزداد به قوتنا. ويبدو أن كمية الذهب التي اشتروه بها كانت مغرية وأشبعت أطماعه وشرهه.

الرأي الثوري المشجع: ونادى به «زغنوس باشا» الشاب وقال: ما أتينا هنا إلا لنموت وليس لنرجع... أفلا يستطيع جيشنا أن يتخطى، هذه الكومة من الأحجار المتراكمة؟ لنفرض أن أهل الغرب، بعد فتحنا القسطنطينية، هبوا إلى الحرب وقاتلونا، فهل سنقف منهم مكتوفي الأيدي بغير حراك؟ أوليس لنا جيش يدافع عن كرامتنا وشرفنا؟. ودعا إلى مواصلة الحرب، والإنقضاض على العدو بشجاعة.

وارتاح الفاتح لرأيه. ثم سأل «طرخان» عن ما يرتأي. فأيد رأي زغنوس. كما أيد رأيه المولى الكوراني والشيخ آق شمس الدين. ودعا لهم بالنصر.

**ب ـ بداية الهجوم العام:**

بعد اختبار المعنويات من جديد، وتفقد مدى الاستعدادات، أمر الفاتح جنوده بالصيام في يوم الأحد الواقع في ١٨ جمادى الأولى الموافق السابع والعشرين من مايس، تطهيراً وتزكية للنفس. ثم زار أسوار المدينة من بحر مرمره حتى القرن الذهبي، في مهمة استطلاعية. وعند المساء، أوقدت النيران والشموع والمشاعل، ورفعت على رؤوس الرماح. وانعكست أنوارها المتوهجة على صفحة الماء، وتعالت أصوات الهتاف والتكبير.

وفي اليوم التالي، أكمل الفاتح تفقداته الاستعدادية. وقصد مرسى بشكطاش بصحبة أمير البحر «حمزة باشا» وطلب منه إشراك كامل الأسطول في الهجوم والاقتحام. وحذر سكان غلطة، من مساعدة الإمبراطور، وعاد إلى مقره، وأصدر التعليمات الأخيرة. ثم ألقى خطبة قال فيها: «... إذا تم لنا فتح القسطنطينية، تحقق فينا حديث. من أحاديث رسول الله ﷺ، ومعجزة

من معجزاته. وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير. فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً، أن الظفر العظيم الذي سنحرزه، سيزيد الإسلام قدراً وشرفاً. ويجب على كل جندي، أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء، نصب عينيه، فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم. وليتجنبوا الكنائس والمعابد، ولا يمسوها بأذى، ويدَعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلوننا..» ثم خيم الهدوء على المعسكر العثماني، الهدوء الذي يسبق هبوب العاصفة. وتوجس العدو الحذر والخشية، وفرّ بعض المحاصرين إلى معسكر المسلمين، طالبين الأمن والسلامة. وكان من بين من التجأ، الراهب (بترو) وثلاثمئة من أصحابه. وأكرمهم المسلمون، وأحسنوا مثواهم. وأسلم الراهب وعرف من حينها باسم «محمد بترو».

### جـ - الهجوم العام:

في الساعة الواحدة من صباح يوم الثلاثاء الواقع في ٢٩ مايس عام ١٤٥٣ م، سمعت فجأة في المعسكر العثماني، قرعة ضخمة بالطبل التركي، تؤذن بالاستعداد والتأهب للمعركة الفاصلة. ثم أعقبها ثلاث قرعات أخرى مثلها، وتتالى الطرق في كافة أرجاء المعسكر. ونفخ في الأبواق، وتصاعد التكبير. وزاد هذا الدوي الهائل، في وسط السكون المظلم، فأثار الخوف والفزع بين صفوف الأعداء. وهرع الكثير إلى الكنائس التي دقت أجراسها. ثم انطلق العثمانيون في هجومهم على السور من البر والبحر، حسب الخطة المرسومة. وتركز الهجوم في منطقة وادي ليكوس المنخفضة، حيث عانى السور من تهدم كبير، وحيث تحصّن جستنيان خلفه متخذاً المتاريس.

**وقسم الفاتح جنوده إلى ثلاثة أقسام:**

١ - جنود الروملي، يضاف إليهم المتطوعون من أجناس مختلفة. وتقدم هؤلاء للأمام. وكان بينهم عدداً كبيراً من النصارى الكاثوليك والألمان والمجريين والإغريق والطليان.. والحديثي العهد بالخدمة. واقتربوا، ثم



توقفوا على مرمى قوس من الأسوار. وبدأوا يمطرونها بالقذائف والسهام. واندفع بعض المهاجمين باتجاه السور. ونصبوا السلالم، وتسلقوا الأسوار، وحدثت معارك عنيفة بين كر وفر. حتى تمكن قسم منهم من ارتقائها واحتلال موطيء قدم فيها.

والتحم الطرفان في معارك السلاح الأبيض، واستمات جستنيان وجنده في الدفاع قرابة الساعتين. وصدرت الأوامر للمسلمين بالانسحاب التكتيكي. ثم دفع الفاتح القسم الثاني من جنوده وهم:

٢ - جنود الأناضول: وهؤلاء أحسن تدريباً، وأفضل تنظيماً، وأكثر انضباطاً وممارسة. وحاولوا اقتحام تلك النقطة الحيوية. وظن المحاصرون أن العثمانيين قد هزموا واندحروا على أعقابهم. ولكنهم بوغتوا بهجوم أشد وأقوى من سابقة. ومن الملاحظ أن هدف السلطان، كان استنزاف طاقات العدو، وإرهاق قواته، قبل أن تحل الضربة القاضية. فلجأ بذلك إلى جنود الدرجة الثانية. ومع طلوع خيوط الفجر الأولى، انتهى الهجوم العثماني الليلي، وبدأ الهجوم النهاري. وأدرك قسطنطين الخطر، فعزز من قوته. وضاعف جستنيان من عزيمته. وصبوا قذائفهم على المهاجمين، وقلبوا السلالم. ولم تزد هذه الإجراءات المهاجمين إلا قوة وصلابة وعناداً وتصميماً.

ووقف الفاتح يرقب المعركة من على ظهر جواده. وسرعان ما أمر جنوده بالانسحاب طبقاً للخطة التكتيكية، تحت ستار نيران ودخان المدفعية الكثيف. ونصبت مدافع جديدة قريبة.

وفي الوقت ذاته، جرى قتال بحري عند الأسوار، وفي بحر مرمرة والقرن الذهبي. كما تسلق الجنود الأسوار بالسلالم، مما أثار الفزع الكبير. والسلطان يقذف بجنوده المرة تلو المرة، حتى يتحقق النصر.

واغتبط جستنيان بالانسحاب البري الأخير. وعلت علائم الفرح على قسمات وجهه. وقال للإمبراطور: يا صاحب الجلالة «اطمئنوا فإن سيوفنا قد ردت العدو...

وجمع «قره جه بك» قواته في الشمال، وشن هجوماً عنيفاً، وتمكن من زحزحة المدافعين عن مراكزهم. ووثب الجند العثمانيون على أنقاض السور، وقتلوا قائد المنطقة، فانهارت مقاومة العدو ومعنوياته. وهرب الجنود وتدفق العثمانيون نحو المدينة. وعند ذلك بدأت الموجة الثالثة من الهجوم بالتقدم:

٣ ـ المهاجمين الإنكشارية: وهم الذين كانوا في حينه أحسن الجند تدريباً وتنظيماً وبسالة وانضباطاً. والخطة هذه المرة كانت أكثر دقة، يحفزها تحريضات الشيوخ والعلماء على القتال والجهاد.

وقاد الفاتح أولئك الجند إلى حافة الخندق. وأمر هناك بإطلاق نار وسهام غزيرة. فانصبت كأمطار الموت على رؤوس العدو. والهتاف يعلو بكلمة «الله أكبر» والجند تقترب من الأسوار الداخلية. وفي لمح البصر نصب الكثير من السلالم على ظهر السور واعتلاها الجنود بخفة مدهشة.

واشتد عنف القتال، خاصة عند «طوب قبول «باب أدرنه». ودخل الجند المدينة ورفعوا الرايات العثمانية وأنزلوا البيزنطية ورفرفت الراية العثمانية على بعض الأبراج القريبة من باب أدرنه.

وأصيب جستنيان آنذاك بجرح بليغ، وانسحب من ميدان القتال، طالباً من الامبراطور أن يتولى القيادة بنفسه. وأصر أن ينقل في الحال، إلى سفينته الراسية في الميناء، طلباً للنجاة هرباً، وبدافع من اليأس. ومن هناك نقل إلى جزيرة (خيوس)[١٧] حيث قضى نحبه، أو أنه أسلم الروح قبل وصوله.

وزادت الأعلام العثمانية التي بدأت ترفرف داخل المدينة من وقع الكارثة. وما أن رآها الامبراطور، حتى هرع شمالاً مستفسراً عن الأمر. وإذ به يرى الجموع العثمانية تتدفق كالسيل المنهمر. فنزل عن حصانه، وخلع ملابسه القيصرية، واستل سيفه وراح يضرب ذات اليمين وذات الشمال، حتى أحاطه أحد الجند العثمانيين بضربة سيف، فخر صريعاً مضرجاً بدمائه.

---

(١٧) تقع جزيرة خيوس في مقابل البر الأناضولي غربي إزمير. تتبع اليونان اليوم.



وازداد الفزع والرعب، وفتحت جميع الأبواب والمنافذ، حتى السرية منها، وفر السكان طلباً للنجاة، وزاد الهرج والمرج.

وعندما شاهد المهاجمون من البحر الراية العثمانية ترفرف، زادت عزيمتهم، وخارت قوى المدافعين واستسلموا أو فروا إلى سفنهم في عرض البحر طلباً للنجاة.

وهكذا فتحت المدينة المحصنة، بعد حصار دام إحدى وخمسين يوماً، على يد البطل الشاب، الذي لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره. وانتهت بذلك آخر صفحة من صفحات تاريخ بيزنطة. وبدأ تسطير تاريخ أول صفحة إسلامية مجيدة مشرقة في القسطنطينية التي بشر الرسول الكريم ﷺ بفتحها.

# الباب الرابع

## استئناف الفتح في البلقان

١ ـ القسطنطينية بعد الفتح العظيم.
٢ ـ أثر فتح القسطنطينية على العالم.
٣ ـ انتكاسة في صربيا وعيد التجلي.
٤ ـ الصليبيون في أنكون.
٥ ـ إكمال الفتوح.

## ١ - القسطنطينية بعد الفتح العظيم :

أعادت أحداث الفتح المجيد، إلى أذهان البيزنطيين، ذكريات الحملة الصليبية الرابعة، وما لقوا من هوان ودمار على أيدي إخوانهم في العقيدة اللاتين قبل قرنين من الزمان. ولم يدر بخلدهم، أن فاتح القسطنطينية هذه المرة، هو رجل مسلم، وقائد هذبته هداية الإسلام، وأدبه الشرع الحنيف ورقاه إلى أعلى مصاف.

أما تعليماته إلى جنوده، فقد ألمحنا عن بعضها، عند دخولهم المدينة فيما سبق. وها نحن نثبت بعضاً من تعليماته الجديدة. فبعد أن توجه على ظهر جواده إلى داخل القسطنطينية، برفقة كبار رجال دولته، وألوف العثمانيين المحيطين به، قال عندما بلغ منتصف المدينة مخاطباً جنده: «أيها الغزاة المجاهدون، حمداً لله وشكراً، لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية. قال رسول الله (ﷺ): «لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش» ثم هنأهم بالنصر، ونهاهم عن القتل والنهب والسلب، وأمرهم أن يكونوا أهلاً للشرف الذي حباهم به الرسول صلى الله عليه وسلم.

وسار موكب الفاتح صوب «آيا صوفيا» وبيده قضيب من حديد. وترجل أمام الباب وانحنى، وحثى التراب على رأسه، خضوعاً لله وشكراً.

وعندما اقترب، سمع أصوات الصلوات الخافتة الحزينة، ودخل إلى فناء الكنيسة، فساد الناس الهلع والحزن، وقطعوا الصلاة والدعاء. ولكنه طلب منهم الاستمرار في صلاتهم وطمأنهم. ثم سجد مرة أخرى شكراً لله وحمداً، وأمر المصلين المغادرة إلى منازلهم، وطمأنهم على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وأن يعودوا لممارسة أعمالهم، فشاعت الراحة في نفوسهم.

وتجلى تقدير الفاتح واحترامه للتراث والآثار، بضربه أحد جنوده لكسره عموداً من المرمر في فأس كان يحمله.

وعندما وجد السكان حسن رعايته، خرجوا من مخابئهم. وأعلن الكثير عن إسلامهم. ثم أمر بتحويل كنيسة آيا صوفيا إلى مسجد. وأدى فيها صلاة العصر، وقصد قصر الامبراطور، وتجول فيه، وسأل عنه وعن جستنيان. فقيل له إنه قتل فأرسل بعضاً من رجاله إلى طوب قبو للبحث عنه. وأرسل آخرين للبحث عن جستنيان الجريح، وإحضار أمهر الأطباء له.

وفي ذلك الوقت، جاءه جندي صربي، يحمل رأس قسطنطين ملطخاً بالدماء، ظاناً منه، إدخال السرور على قلب السلطان بهذا العمل. وسرعان ما ظهر الغضب على وجهه، وأمر بأن يحتفل بدفنه، بما يليق بمكانته، وأمر بقطع رأس ذلك الجندي. والجدير بالذكر، أنه عندما دخل الأتراك القسطنطينية، التجأ جميع الأهالي العزل والنساء والأطفال إلى آيا صوفيا، في اعتقادهم أن ملكاً من السماء، سوف يظهر متى وصل الترك عمود قسطنطين الكبير، فيهزمون ويرتدون على أعقابهم. ولكن جنود الفاتح دخلوا الكنيسة وأخذوا الأسرى، لكنهم لم يقتلوهم كما يفتري البعض، بل أطلقوا سراحهم، لا كما فعل بهم إخوانهم في العقيدة، من الصليبيين اللاتين إبان الحملة الصليبية الرابعة؟ وما هذا إلا بفضل تعاليم الإسلام الحنيف التي تصقل النفوس، وتهذب الأخلاق وتدعو إلى السلام والوئام والأمان.

واتّبع الفاتح سياسة التسامح والرأفة إزاء الأسرى، وافتدى العديد منهم بماله الخاص. وخاصة أمراء اليونان ورجال الدين. واجتمع مع الأساقفة



وهدأ من روعهم. وأمر بتنصيب بطريرك جديد. فانتخبوا «جناديوس». وتوجه الأخير بدوره إلى مقر السلطان. واستقبله الفاتح بحفاوة بالغة، وأكرمه غاية الإكرام. وتحادثا في أمور شتى». وتناول الطعام معه، وقدم له عصا البطريركية. ونهض له عند همَّ بالإنصراف. وساعده على ركوب جواده. وأمر رجال دولته باصطحابه إلى مقره. وأن يجعل في مرتبة الوزراء. وهذا ما عكس أكبر الأثر الإيجابي على نفسية البطريرك خاصة، والروم عامة. ثم ساد الأمن والسكينة والنظام، واستأنف الناس أعمالهم المعتادة. ثم انكشفت خيانة خليل باشا، الذي كان يتآمر سراً مع الإمبراطور، بعد أن قابل الدوق «نوتاراس» السلطان الفاتح ولقي منه الحفاوة. وبادر فوراً بعزله. ولكنه أشفق على كبر سنه ولم يعدمه. وعهد بالوزارة إلى «محمود باشا» وصفح عن «نوتاراس».

ونكص الأخير على عقبيه. وكان جزاء المعروف، الذي أوداه إليه السلطان، التآمر الخفي، ومحاولة إخراج المسلمين من القسطنطينية، والتراسل مع ايطاليا بهدف شن حملة صليبية جديدة. وأمر الفاتح باعتقال المتآمرين وقتلهم.

ثم أقام السلطان المآدب لجنوده وأكرم الشيوخ. واستمرت الاحتفالات ثلاثة أيام متواليات. ووزعت العطايا. وخطب العالم «آق شمس الدين» وقال: «يا جنود الإسلام، إعلموا واذكروا، أن النبي (ﷺ) قال في شأنكم «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش» ونسأل الله تعالى، أن يوفقنا ويغفر لنا جميعاً. ألا لا تسرفوا ما أصبتم من أموال الغنيمة ولا تبذروا، وانفقوها في البر والخير لأهل هذه المدينة. واسمعوا لسلطانكم وأطيعوه» ثم التفت إلى الفاتح قائلاً: «يا سلطاني، لقد أصبحت قرة عين آل عثمان، فكن على الدوام مجاهداً في سبيل الله».

وفي مكان قريب من سور المدينة، اهتدى ذلك الشيخ الجليل، إلى قبر الصحابي الكريم أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه. وعندها أمر السلطان ببناء مسجد هناك. ونهض الشيخ شمس الدين في ذلك المكان، وسلم إليه

سيفاً عظيماً، ودرجت العادة بعدها أن يكون تقليد وتنصيب السلاطين هناك.

وأخيراً لا يسعني إلاّ نقل ما كتبه البارون «كارادوفو» في كتابه [مفكرو الإسلام] في الجزء الأول عند ترجمة محمد الفاتح نقلاً عن كتاب حاضر العالم الإسلامي: إن هذا الفتح، لم يقيض لمحمد الفاتح اتفاقاً، ولا تيسر بمجرد ضعف دولة بيزنطة، بل كان هذا السلطان، يدبر التدابير اللازمة له من قبل. ويستخدم له كل ما كان في عصره من قوة العلم. . .» رداً على مفتريات من تذرعوا وشوهوا حول هذا الفتح الجليل.

## ٢ ـ أثر فتح القسطنطينية على العالم:

كان استسلام مستعمرة (غلطة)، بعد فتح القسطنطينية، من أسوأ الكوارث التي نزلت بجمهورية «جنوا» الإيطالية. فقامت تسعى حثيثاً في تأليب أوروبا لشن حملة صليبية شاملة ضد المسلمين، كما ضاعفت من جهودها ونشاطها في الوقت ذاته. وفي الواقع فقد أرسل السلطان الفاتح، القائد «زغنوس باشا»، بعد الفتح مباشرة إلى غلطه. فأمّن أهلها، وهدأ من روعهم. وحضر وفد إلى السلطان طالبين العفو، فعفا عنهم.

وصدرت المراسيم، بتأمين حرية العبادة والتجارة، ورعاية الشؤون الداخلية ذاتياً، مقابل دفع جزية. وأمر الفاتح بهدم أسوار غلطة من جهات البر والبحر. ثم جردها من السلاح. وأحصيت أحوال أهلها وسجلت. وخاصة من هجرها منهم، لكي لا تضيع حقوق أحد.

إن فتح القسطنطينية جاء بعد حياة امتدت ألفاً ومائة وخمسة وعشرين عاماً. وبعد تسع وعشرين حصاراً. وبعد وقوعها سبع مرات في يد أعدائها، لتعود من ثم إلى ملك القياصرة. ثم كانت خاتمة المطاف، ونهاية الدولة الرومانية الشرقية. وخرجت لأول مرة من حظيرة النصرانية إلى نور الإسلام وعدله. بعد قتال شرس وحصار شديد وجرأة وشجاعة، لدى الفاتحين



المسلمين. واهتزت أوروبا لذلك الحادث العظيم. وكانت بين خائف وغاضب ومستبشر؛

١ ـ ففي أوروبا النصرانية، صعق النبأ ملوك وأمراء الغرب، وانتابهم شعور من الفزع والألم والخزي، فنهضوا يستنفرون بعضهم بعضاً، عن طريق الشعر والأدب والمسرح. وبعقد الإجتماعات والمؤتمرات بين الملوك والقادة، والدعوة إلى التخلي عن الخلافات والحزازات.

وكان الباب «نيقولا الخامس»[1] أشد الناس تأثراً. وبادر إلى ترأس مؤتمر عقد في روما، أعلن فيه المؤتمرون، توحيد الجهود، لكن المؤتمر أُحبط بوفاة البابا تأثراً بفاجعة المدينة.

واستنفر الأمير «فيليب الطيب»[2] دوق «بورونديا» النصارى. وذهب بنفسه إلى امبراطور الألمان «فرودريك الثالث». وأرسل إلى ملك فرنسا «شارل السابع» المتحمس لقتال الأتراك. ولكن المشكلات بين الدول الغربية كالمشكلات بين الدول الإسلامية اليوم، حالت دون تحقيق الهدف. ولم يكتف الطيب بالاتصالات والتعبئة والنشاط السياسي، بل لجأ إلى نوع آخر من الدعاية، بإقامة المسرحيات لاستثارة الحماسة ضد المسلمين عامة.

٢ ـ نصارى المنطقة: وهؤلاء نظراً لقربهم من القسطنطينية، تظاهروا بالفرح، وأرسلوا وفود التهنئة إلى الفاتح. وكان في مقدمتهم، حاكمي (الموره) أخوي الإمبراطور قسطنطين.

وحاول الباب الجديد «بيوس الثاني» بكل ما أوتي من قوة، تجديد

(١) البابا نيقولا الخامس: هو توماسو بارنتوسيلي. ولد عام ١٣٩٧ م (٧٩٩ هـ). وتوفي عام ١٤٥٥ م (٨٥٩ هـ). وهو مؤسس مكتبة الفاتيكان. وقد فشل في تقرير الإصلاح الديني الذي سرعان ما ظهرت آثاره في القرن السادس عشر الميلادي.

(٢) الأمير فيليب الطيب: هو دوق بورغوندي. ولد عام ١٣٩٦ م (٧٩٨ هـ) في بورغوندي الواقعة الآن في فرنسا. وتوفي عام ١٤٦٧ م (٨٧١ هـ). وكان أكثر الأدواق أهمية ويعد المؤسس الحقيقي لدولة بورغونديا التي نافست فرنسا في القرن الخامس عشر الميلادي.

الهمم، لكن الشعوب لم تعره أذناً صاغية. واعتذرت أوروبا بمشاغلها ومتاعبها الداخلية، ونزاعاتها العسكرية، واهتمت جمهوريات إيطاليا، بتوطيد علاقاتها مع الأتراك مكرهة وحباً في جمع المال. ثم مات الباب، وترك المجر والبندقية منفردتين بمهمة مواجهة الأتراك. ولم يهتم الكاثوليك، وعلى رأسهم الباب بمحاربة المسلمين، أكثر من اهتمامهم باضطهاد المنشقين على الكنيسة.

وهزمت المجر بقيادة «هونياد» على أيدي الجنود العثمانية. وتوطدت أقدام آل عثمان في بلاد الصرب واليونان، وجزر الأرخبيل والأفلاق والقرم خلال برهة قصيرة. أما الحملة التي قادها الفاتح نحو إيطاليا، بعد استيلائه على ألبانيا، وعبوره البحر بجنوده وصولاً إلى «أوترانتو»[٣] على الشاطىء الإيطالي. فقد توقفت لوفاته. ولو تحقق هذا الأمر، لتغير مجرى التاريخ في أوروبا برمته. ويذكر «توماس آرنولد» في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» ـ أنه وجد في إيطاليا نفسها وفي مقر البابوية وحصن النصرانية، من كان يتطلع بشوق عظيم إلى الأتراك، لعلهم يحظون كما حظي رعاياهم من قبل، بالحرية والتسامح الديني اللذين يئسوا من التمتع بهما في ظل أية حكومة نصرانية ـ. ويؤكد صحة هذا الرأي، أن كثيراً من الناس، فكروا بعد نزول الجيش العثماني في شواطىء إيطاليا، في الإنضمام إليه، ومعاونته بتحطيم نير رجال الدين والأمراء. كما أن كثيراً من الجنود النصارى، فروا من وحداتهم العسكرية وانضموا إلى جانب الدولة العثمانية.

نتيجة لما سبق، أفاقت أوروبا من غفلتها، ولجأت إلى تأجيل حملاتها، والالتفاف إلى تقوية نفسها. ورأت استحالة الوقوف في وجه المسلمين، على أرض الواقع العملي، إضافة إلى توفيرها النفقات الباهظة التي تحتاجها الحملات.

(٣) وهي مدينة ساحلية تقع في جنوبي إيطاليا. أسسها الأسبارطيون عام ٧٠٨ ق.م. تمتاز بآثارها المبنية على الطراز الباروكي.



ولكن البابوية التي كانت تحرض الحملات، للدفاع عن مركزها وعن نفسها، لم تخلد إلى اليأس والسكون. وركز البابا «بيوس الثاني» جهوده في مجالين: أولاً محاولة إقناع الفاتح باعتناق النصرانية، واعداً إياه التكفير عن خطاياه، ومنحه البركة وصكاً بدخول الجنة. وثانياً اللجوء إلى التهديد والوعيد والتلويح باستعمال القوة. وفشلت هذه الخطة مسبقاً، بهزيمة الصليبيين، عندما قاد هونياد المجري الجيوش وقضي على الحملة.

٣ ـ العالم الإسلامي: عم الفرح والابتهاج ربوع بلاد الإسلام، من مشرقها إلى مغربها. ففتح القسطنطينية، كان حلم الآباء والأجداد. وتطلعت إليه الأجيال الإسلامية منذ أمد طويل، وهو الآن قد تحقق.

وعندما أرسل الفاتح رسله إلى مصر والحجاز وفارس والهند، أذيعت أنباء الإنتصارات من فوق المنابر فوراً. وزينت الحوانيت والمنازل والجدران واقيمت الصلوات. ويصف المؤرخ المصري ابن تغري بردي في كتاب «حوادث الدهور» تلك الأنباء السارة، وشعور الناس في القاهرة، عندما وصلها قاصد السلطان ورفاقه في ٢٣ شوال عام ٨٥٧ هـ، ومعهم الهدايا واثنان من الأسرى. قال:

«قلت والحمد لله والمنة على هذا الفتح العظيم. وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران، من عظماء استانبول، وطلع بهما إلى السلطان «إينال»[٤] سلطان مصر في ذلك الوقت. وهو تركي أيضاً. وهما من أهل القسطنطينية. فسر السلطان والناس قاطبة، بهذا الفتح العظيم. وزفت البشائر لذلك. وزينت القاهرة بسبب ذلك أيضاً. ثم طلع القاصد المذكور، ومعه الأسيران إلى القلعة، في يوم الإثنين، الخامس والعشرين من شوال، بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة. وقد احتفلت الناس. وزينت الحوانيت والأمكنة وامعنوا في ذلك إلى الغاية...

(٤) السلطان إينال من المماليك البرجية حكم من عام ١٤٥٣ ـ ١٤٦٠ م (٧٥٨ ـ ٨٦٤ هـ).

ويقول ابن إياس صاحب كتاب «بدائع الزهور» . . «فلما بلغ ذلك، دقّت البشائر بالقلعة، ونودي في القاهرة بالزينة. ثم إن السلطان عيّن (برسباي) أمير خورثاني، رسولاً إلى ابن عثمان، يهنئه بهذا الفتح.

ونقل أخيراً ما قاله (وول ديورانت) في كتابه قصة الحضارة عندما يتكلم عن فتح العثمانيين للقسطنطينية: «. . . وهز الإستيلاء على القسطنطينية، كل عرش أوروبا. فقد سقط الحصن الذي طالما حمى أوروبا من آسيا أكثر من ألف سنة. فإن القوة والعقيدة الإسلاميتين، اللتين أمل الصليبيون، في ردهما إلى داخل آسيا، قد شقتا الآن طريقهما على جثة بيزنطة. وعبرتا البلقان، إلى أبواب هنغاريا. ورأت البابوية التي حلمت بإخضاع المسيحيين اليونان لحكم روما، بفزع سرعة تحول الملايين من سكان جنوب شرقي أوروبا إلى الإسلام. وأصبحت طرق التجارة التي كانت مفتوحة في يوم من الأيام للسفن الغربية في يد أجنبية، تفرض عليها المكسوس في وقت السلم، أو تسدها المدافع في وقت الحرب. وهجر الفن البيزنطي موطنه، ولجأ إلى روسيا، بينما اختفى تأثيره في الغرب بالقضاء على عزمه.

وأخذت هجرة العلماء إلى إيطاليا وفرنسا التي كانت قد بدأت عام ١٣٩٧ م (٧٩٩ هـ) تزداد، وتثمر في إيطاليا، الدعوة إلى انقاذ اليونان القديمة. وإذا أخذنا بوجه من الوجوه، فإنه لم يصنع شيء، إلا أن الموتى قد ماتوا. فقد اتمت بيزنطة دورها وأسلمت مكانها في موكب الإنسانية. . .».

### ٣ ـ انتكاسة في صربيا وعيد التجلي:

كان الصربيون متعصبون جداً لمذهبهم الأرثوذكسي. وكان بعض الأجزاء من بلادهم تحت الحكم العثماني، وبعضها الآخر تحت سيطرة المجر. ولم يكن «جورج برنكوفتش» أمير صربيا، مخلصاً في تبعيته للدولة العثمانية، بل كان دائماً يخادع ويراوغ ويتربص. وقد قال عنه السلطان الفاتح «كان يظهر الصداقة ويبطن العداوة». وعندما جاءه المبعوث المجري ـ رسول



هونياد ـ يعرض عليه الإشتراك في الحلف الصليبي، المزمع عقده ضد الفاتح الذي أصبح يهدد كامل أوروبا بأفدح الأخطار، بادر من فوره وأعلن الموافقة والتأييد. ولم تكن تغيب هذه المناورات عن أعين الفاتح اليقظة. وبادر فوراً إلى غزو صربيا، قبل أن تتمكن القوات الحليفة من اتخاذها قاعدة للانطلاق في غزو البلاد العثمانية، وعلم برانكوفتش بتحركات الفاتح، وأمر الناس اللجوء إلى الأماكن الحصينة، وغادر بلاده فوراً إلى المجر، متذرعاً بجلب العون والتأييد.

ودق ناقوس الخطر فوق كنائس الفاتيكان. وأعلنت الصلاة. وتوجه النصارى إلى العذراء يتطلعون بأمل العون والمدد والنصر على العثمانيين. وطلب البابا المرتجف خوفاً وفزعاً من الناس في كافة البلاد النصرانية، قرع النواقيس صباح كل يوم. واستثار البابا حمية النصارى لقتال الأتراك. ووقع الإختيار على «هونياد المجري» لتولي قيادة الحملة الصليبية، بمعاونة «جان انجيلو» والراهب المفوه «جان كابسترانو» وغيرهما من رجال الدين. واشترك ملكا المجر وأرجونه، وعدة أمراء من إيطاليا، ودوق بورغونديا[٥]، إضافة إلى البنادقة والجنويين والألمان والبولنديين وفرسان رودوس والبوهيميين والصرب على الرغم من الخلاف المذهبي.

وبادر الفاتح لتوه يتصدى للعدوان الجديد دون انتظار أو إبطاء. وسار بجيش قوامه مائة وخمسين ألف مقاتل، وحاصر بلغراد. ودارت حولها معارك طاحنة. وتكبد الطرفين أفدح الخسائر. وجرح السلطان في فخذه. ونزفت دماء غزيرة من جرحه حتى أفقدته الوعي. وسقط عن ظهر جواده، وكاد يقع في الأسر لولا بسالة جنوده واستبسالهم في الدفاع عنه، واضطر للانسحاب مع جنوده.

---

(٥) البور غونديون شعب ألماني هاجر في القديم من موطنه الأصلي على الشاطىء الجنوبي لبحر البلطيق أثناء القرن الأول الميلادي. ثم عم اسم بورغونديا بعد هُجرتهم وشمل مجموعاتهم السياسية التي تشكلت في أقاليم بعض أنهار شرقي فرنسا.

وأبرم أمير الصرب الصلح مع السلطان، فالإسلام يدعو للتسامح لا للتعصب، ودفع الجزية السنوية التي بلغت ٨٠ ألف دوكا. ولم يتمكن الأتراك من فتح عاصمة الصرب على الرغم من ربحهم الكبير. وجرح هونياد ومات بعد رفع الحصار عن المدينة بعشرين يوماً.

وعمت البشرى أرجاء العالم النصراني، إثر الانتكاسة العثمانية. وأقيمت الإحتفالات والمهرجانات الضخمة، خاصة في روما مقر البابوية. وأمر الباب أن يتخذ يوم السادس من آب عيداً سموه عيد التجلي.

ولم يفرح الأعداء إلا لوقت قصير، إذ بعدما علم السلطان بموت هونياد، أرسل الصدر الأعظم (محمود باشا) حتى يكمل فتح صربيا، وانجز العمل في مدة سنتين (١٤٥٨ - ١٤٦٠ م).

وفي سنة ١٤٦٠ م الموافق ٨٦٤ هـ، أصبحت (أثينا) نهائياً في حوزة العثمانيين، كما خضعت (الموره) أيضاً وأصبحت ولاية عثمانية. وهكذا وبعد أن أكمل الفاتح ضم جزر الأرخبيل عام ١٤٦٤ م والبلاد المجاورة لها، وجزائر «تاسوس»(٦) و (انبروس)(٧) وغيرها، صارت كامل اليونان تحت السيادة العثمانية. وفتح الفاتح مدينة «كورنثه»(٨) وجرّد «توماس باليولوج» أخو قسطنطين عن بلاده، وترك لأخيه الثاني «متريوس» إقليم «موره» شريطة دفع الجزية.

وعندما رجع الفاتح، لجأ توماس إلى التمرد ومقاتلة العثمانيين، ومحاربة أخيه. واستنجد «متريوس» بالأتراك. فرجع السلطان بجيش كبير، وتم له فتح إقليم الموره عام ١٤٦٠ م (٨٦٤ هـ). وهرب توماس إلى إيطاليا. ونفى

---

(٦) تقع شمال بحر إيجه إلى الشرق من شبه جزيرة مكدونيا.

(٧) تقع في بحر إيجه شرقي أثينا.

(٨) مدينة كورنثة تقع في اليونان اليوم. إلى الغرب من أثينا والشمال الشرقي لجزيرة بيلوبونيس وعلى قناة كورنيث الملاحية.



متريوس في إحدى جزر الأرخبيل. ثم بعد عودته من اليونان، أبرم صلحاً مؤقتاً مع اسكندر بك، وتخلى له عن إقليم البانيا وأبيروس، وحوّل أنظاره إلى آسيا الصغرى لفتح ما تبقى منها.

مهد السلطان محمد الثاني لفتح البغدان. وتطلب الأمر معاقبة أمير الفلاخ «فلاددره» على المجازر التي ارتكبها السكان هناك، وللتعديات التي قام بها على التجار العثمانيين. وجهز جيشاً واتجه إليها. وعندما علم الأمير المذكور بالأمر. أرسل وفداً إلى الفاتح يعرض عليه جزية سنوية مقدارها عشرة آلاف دوكا، شريطة احترام شروط معاهدة عام ١٣٩٣ م (٧٩٥ هـ) المبرمة بين السلطان بايزيد، وأمير الفلاخ آنذاك. وقبل الفاتح بهذا الرأي.

وحاول الأمير اكتساب الوقت، والإستعانة بملك المجر لقتال العثمانيين. وعلم السلطان بنياته المبيتة وأرسل وفداً لتقصي الحقائق. فقبض رجال الأمير على أعضاء الوفد. وقتلوهم ومثلّوا بهم. ولم يكتف الأمير بتلك الفعلة، بل أغار على بلغاريا التابعة للدولة العثمانية. وأعمل فيها الهدم والتدمير والفساد. ورجع يقتاد خمسة وعشرين ألف أسير.

وأرسل السلطان إليه يدعوه للطاعة. وإخلاء سبيل الأسرى. وما أن وصل رسل السلطان إلى مقره، حتى أمرهم برفع عمائمهم لتعظيمه، ولكنهم رفضوا طلبه. فأمر بأن تدق في عمائمهم وعلى رؤوسهم مسامير من حديد.

وعلم السلطان بهذه الأنباء واستشاط غضباً. وسار على الفور بجيش قوامه مائة وخمسون ألف مقاتل، لكسر شوكة هذا المرتد الظالم. وبسرعة فائقة وصل إلى «بخارست» عاصمة الأمير. وكبد قواته أفدح الخسائر، وأنزل به أشنع الهزائم. وهرب هذا الجبان والتجأ إلى المجر. وأصدر السلطان أوامره بعزله وتنصيب أخاه «راوول» مكانه. وهو الذي تربى في بلاط السلطان، وتحت رعايته منذ الصغر.

وفتحت بلاد الأفلاق منذ ذلك الحين، وتبعت الدولة العثمانية ودفعت

الجزية. ويقال أنه عندما وصل السلطان إلى ضواحي بخارست، وجد جثث الأسرى الذين جلبهم ذلك الأمير من بلغاريا، ومن بينهم العديد من الأطفال والنساء والقتلى. واستمر الأمر على هذه الشاكلة حتى عام ١٥٢٤ م (٩٣٠ هـ)، عندما أراد السلطان سليمان القانوني. أن يجعل من ذلك الإقليم ولاية عثمانية بكل معنى الكلمة. فسير جيشه، واستولى على العاصمة، وأسر أميرها، وأرسله إلى الأستانة. وعندما ثار الأعيان هناك وعينوا خلفاً له، بدعم من أمير ترانسلفانيا المجاورة، قبل السلطان مطاليبهم، مقابل زيادة في دفعهم الجزية.

أما البغدان فقد استسلمت للسلطان بايزيد الثاني ابن الفاتح عام ١٤٥٤ م.

وفي عام ٨٦٧ هـ الموافق ١٤٦٣ م، اصبحت كامل البوسنه ولاية عثمانية، وأقبل أهلها على اعتناق الإسلام، ثم تلتها (الهرسك) بعد عام واحد فقط. ودخل أهلها في دين الله أفواجاً. ففي عام ١٤٦٢ م (٨٦٦ هـ)، امتنع أمير تلك البلاد عن دفع الخراج، فقاتله السلطان وأسره وولده بعد قتال عنيف. وأمر بقتلها جزاءً لتمردهما، فدانت بلاد البوسنة آنذاك، وهزم ملك المجر عندما أراد استخلاصها من الأتراك، وقتل معظم جيشه، فأصبحت البوسنه ولاية عثمانية، وسلبت امتيازاتها، وأسلم معظم أهلها، ودخل ثلاثون ألفاً من شبانها في جيش الانكشارية.

### ٤ ـ الصليبيون في أنكون[٩]:

أراد البابا «بيوس الثاني» إعداد حملة صليبية ضخمة، يشترك هو فيها هذه المرة. وكتب إلى أمراء البندقية، وبورغونديا، كي يخرجوا مع قواتهم. وأذاع منشوراً حماسياً على جميع النصارى، في ٢٢ تشرين الأول عام

(٩) أنكون مدينة إيطالية على الساحل الغربي لبحر الأدرياتيك إلى الشمال الشرقي من روما.



١٤٦٣ م، ودعاهم إلى الحرب المقدسة ضد العثمانيين. وأن مركز التجمع هو مدينة «أنكون» الواقعة في منتصف إيطاليا على ساحل الأدرياتيك. وأنذرهم أن صواعق الموت ستنزل على كل متخاذل أو مسيء في الداخل. وأمر ببيع صكوك الغفران في جميع أرجاء أوروبا. وجعل لكل ذنب ثمن. أما ثمن الصك الكامل لغفران جميع الذنوب، فيبلغ عشرين ألف «فلورين».

وكتب إلى دوق البندقية يقول: «إنه عزم أن يقوم في الصيف القادم بحملة ضد العثمانيين، بصحبة الكرادلة والجنود المغاوير» كما كتب إلى أمير ألبانيا وغيره، يحثهم على حشد جنودهم، استعداداً للحرب المقدسة القادمة.

ولم يكن محمد الفاتح في غفلة عما يجري. وحاول إفساد هذه المحاولات الصليبية ولكنه أخفق. فلجأ للحرب، واستعد لملاقاة الحملة.

وأدى البابا «بيوس» آخر صلواته في كنيسة الرسول في روما يوم ١١ حزيران عام ١٤٦٤ م (٨٦٨ هـ)، وبدأ سيره بحراً متجهاً إلى الشرق. وكانت تلك أول مرة في تاريخ البابوية وآخرها، يخرج فيها البابا من روما، ليتولى قيادة حملة صليبية بنفسه.

وانتابت البابا عند بدء سفره حمى خفيفة لم يحفل بها. وطلب إلى أطبائه إخفاء الأمر وجعله سراً. ولم يمض أكثر من ثلاثة أيام على تلك الرحلة المشؤومة حتى تعالى إلى أسماعه أنباء التذمر والشكوى. يتفوه بها العساكر المحتشدون في أنكون. إذ لا شيء يستعينوا به على مشقة السفر.

ولم يكد يقترب من بحر الأدرياتيك، حتى رأى بنفسه الجموع من حلفائه، تعود إلى أوطانها، وتنصرف عن حملته المقدسة. إنهم لم يجدوا منه ما يدفعه من ثمن سوى صكوك الغفران، فتركوه وحيداً وصكوكه.

ودفعت الحماسة الدينيّة الكثير من العامة الانخراط في صفوف الحملة، ووفدوا إلى أنكون وهم خاوي البطون ومجردين من السلاح، وكلهم ثقة وأمل بأن يزودوا بكل ما يحتاجون، إن لم يكن بالوسائل العادية، فبمعجزة من

السماء. وطال بهم الإنتظار، واشتد عليهم الجوع. ولكن عطاءات البابا لم تتحرك لنجدتهم. ففترت عزيمتهم، وخابت آمالهم، وعادوا إلى أوطانهم يجرون أذيال الخيبة والهزيمة.

وحز منظر رجوعهم في نفس البابا، وتهاوت إلى مسامعه أقوالهم: هل نشبع بصكوك الغفران؟ هل نطعم أهلنا صكوك الغفران؟ وقال البابا: «... على أني لن أخوض غمار القتال بنفسي. فإن ضعف بنيتي، وجلال الكهنونية التي لا يليق بها الضرب بالسيف، يحملاني على الإبتعاد عنه. ولكني سأجثو على ركبتي على كوثل (مؤخرة) السفينة المرتفع، أو على قمة جبل مرتفع وبين يدي القربان المقدس وستحيطون أنتم بي «الكرادلة» وندعو الله بقلوب خاشعة ذليلة، أن يهب النصر لجنودنا.

وخابت آمال البابا في أمراء النصارى وقادتهم. ولم تستجب دعوته. ففرنسا منشغلة، وألمانيا في فوضى لضعف امبراطورها. وأمير البندقية لم يلتحق بالبابا إلا مكرهاً. وتعلل دوق البندقية بأسباب داخلية، وبعدم قدرته المسير بنفسه.

وقال البابا في ألم وحسرة، وهو يرى أسطول البندقية في الميناء على أهبة السفر «لقد كنت قبل اليوم أنشد الأسطول لأبحر به فلا أجده، وها هو اليوم يحضر إلي فلم يجدني».
وتكاثرت عليه العلل والأسقام. وأحسّ بالوهن يسري في جسمه. وشعر بدنو الأجل، فدعا جميع الكرادلة وطلب منهم أن يصلوا لأجله.

ومات البابا بين أيدي الكرادلة في ١٤ آب عام ١٤٦٤. وبموته انتهت الحملة الصليبية التي حشدها ضد العثمانيين المسلمين. وشاعت سحب اليأس والقنوط بين النصارى في محاولاتهم إعداد حملة صليبية أخرى.

### ٥ ـ إكمال الفتوح:

ثم وجه الفاتح ضربات قوية إلى البندقية تلو بعضها البعض. ونشب



القتال بين العثمانيين والبنادقة في المورة واليونان وجزر الأرخبيل. واستمرت الحرب ثلاث سنوات. وانتهت عام ١٤٦٤ م. ولم ينجم عنها سوى الخراب والدمار. وأخذ الروم يلوذون بالعثمانيين وينشدون الحماية.

وركز الفاتح حملته الكبرى على المستعمرة البندقية في جزيرة «نيجربون»[١٠] «اثيوبيا القديمة» غربي بحر الأرخبيل. واقتحمها في ١٣ محرم عام ٨٥٧ هـ الموافق ١٢ تموز عام ١٤٧٠ م. وأحدث فتحها دوياً هائلاً في الغرب. وأثبت قوة البحرية العثمانية. وفتحت بسببها الشواطيء الإيطالية أمام العثمانيين.

وبعد عشر سنوات من هذا التاريخ، فتحت جزر اليونان الواقعة بين بلاد البر اليوناني وإيطاليا. ثم سار القائد البحري «كدك أحمد باشا» بقوته البحرية، لفتح مدينة أوترانت بإيطاليا. ويقال أن الفاتح أقسم أن يربط حصانه في كنيسة القديس بطرس بروما. وفتحت أوترانت في ٤ جمادى الثانية عام ٨٨٥ هـ الموافق ١١ آب ١٤٨٠ م.

### فتح البغدان:

وأراد الفاتح فتح بلاد البغدان، فأرسل إليها جيشاً، بعد أن عرض على أميرها «أسطفان الرابع» دفع الجزية، ولكنه لم يقبل. وبعد معارك عنيفة، فشلت الجيوش العثمانية في تحقيق الهدف. وعندها لجأ الفاتح إلى فتح بلاد القرم، كي يتمكن بواسطة فرسانها المشهورين من فتح البغدان. وأرسل إليها عمارة بحرية حاصرتها ستة أيام، فتحت على إثرها وجميع البلاد التابعة لجمهورية «جنوا» الإيطالية. وأصبحت شواطيء القرم تابعة للدولة العثمانية.
وعادت السفن العثمانية بعد ذلك إلى مصاب الدانوب، لتعيد الكرّة من

(١٠) تقع مدينة نيجربون في جزيرة أوبه التي حكمها البنادقة لمدة ٢٦٤ منه. وفتحها العثمانيون عام ١٤٧٠ م.

هناك على البغدان. وتقهقر جيش البغدان عبر السهول. وتبعه الجيش العثماني، ودخل خلفه في الغابات التي يجهلها، فانقضّ عليه جيش البغدان وهزمه في عام ١٤٧٦ م. ونال اسطفان الرابع شهرته من جراء ذلك، مثلما نال هونياد المجري، واسكندر بك الألباني شهرتيهما. وأغدق البابا عليه لقب الشجاع ـ شجاع النصرانية وحامي حماها.

**إكمال فتح ألبانيا:**

بعد أن أغار السلطان على بلاد البنادقة عام ١٤٧٧ م، مرّ بإقليمي كرواسيا ودلماسيا. ووصل إلى إقليم الفريول. ودب الذعر في قلوب البنادقة ونادوا بالصلح وتخلوا عن مدينة «كرويا»[١١] عاصمة اسكندر بك. واحتلها السلطان وطلب مدينة «اشقودره»[١٢]. ولكنهم رفضوا طلبه بالتنازل عنها، فحاصرها وقصفت لستة أسابيع متواليات بالمدفعية. ولكنها صمدت، فتركها السلطان لفرصة أخرى. وعزلها بفتح ما حولها من القرى والبلاد التي يملكها البنادقة وأصبحت «أشقودره» محاصرة، وفي شبه عزلة تامة. وبذلك رأى البنادقة التنازل عنها. وعقد صلح مع السلطان مقابل بعض الإمتيازات التجارية. ووقعت معاهدة في ٥ ذي القعدة عام ٨٨٣ هـ الموافق ٢٦ كانون ثاني عام ١٤٧٩ م.

ثم توفي الفاتح عليه رحمة الله، بعد أن استسلمت له جميع جزر الأرخبيل عدا فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودوس. وقبل أن يلقى وجه ربه شن هجوماً على حصونهم المنبعة ولم يوفق وأعاد الكرة ثانية. ولكنه لقي وجه ربه في «تكفور جيري» بين اسكدار وجبسه بآسيا الصغرى في ٣ أيار عام ١٤٨١ م. وجرى فتح رودوس بعد وفاته وذلك عام ١٥٢٢ م. وجرى

---

(١١) مدينة كرويا تقع اليوم في ألبانيا، احتلها الفاتح بعد أن حاصر جورج كاستريو «اسكندر بك» المعتصم بها لمدة سنتين. وأقام فيها قلعة (إيلبصان).

(١٢) وهي تقع شمال غربي البانيا على بحيرة اشقودرة. احتلها العثمانيون بعد ١١ سنة من موت اسكندر بك حيث تخلى عنها البنادقة لهم عام ١٤٧٩ م الموافق (٨٨٤ هـ).



إخضاع المجر عام ١٥٤٣ م. وتنازلت البندقية عن جميع ممتلكاتها في ألبانيا. واشترت بمائة ألف دوكا وبجزية سنوية مقدارها عشرة آلاف دوكا حق التجارة الحرة في المشرق. وحق تعيين عامل في غلطة، تعهد إليه الإشراف على مصالحها.

والجدير بالذكر أنه بموت الفاتح، أمر البابا بقرع أجراس الكنائس ثلاثة أيام بلياليها ابتهاجاً وفرحاً بهذا الحادث الذي أثلج صدورهم.

# الباب الخامس

## الادارة العثمانية في البلقان

١ ـ التقسيم المذهبي.
٢ ـ الحكم الذاتي.
٣ ـ الإنكشارية.
٤ ـ الغزاة.

انضوت شعوب البلقان، تحت لواء الحكم العثماني. ورفرف الهلال فوق ربوعها. وترتب على الوضع الجديد، أن أصبحت شبه الجزيرة البلقانية، جزءاً من دولة كبيرة مترامية الأطراف، هي بحق، من أعظم ما عرفه التاريخ في حينه. وورثت الدولة العثمانية تركة امبراطوريتي الرومان وبيزنطة. تلك الدولتان اللتان كان لهما في سالف الأيام مجداً غابراً في القسطنطينية.

وتعاملت شعوب شبه الجزيرة مع الحكم الجديد وتأقلمت مع الفاتحين المسلمين. فالتحاكم يجري وفق أصول الشريعة الإسلامية إلى حد كبير. واتهمت الإدارة عن حق أو غير حق من قبل الغرب والصليبية. وأحداث الماضي القريب كانت لا تزال ماثلة. وجذور التاريخ لا تزال تحرك العواطف من وراء الستار.

إن تلك النظرة السلبية إزاء الفاتحين الجدد، يعود مردها دون أدنى شك إلى رؤية من جانب واحد فقط، أطلقت من خلالها أوروبا أحكامها جزافاً، دون اعتبار الظروف الصعبة التي مرت بها الدولة العثمانية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ولم ترغب البحث في أعماق المشكلة والوقوف على الملابسات الدولية والظروف المحلية.

تمتع الرعايا النصارى، في ظل حكم العثمانيين المسلمين، بقدر واسع من الحرية الدينية. وسمح لهم التحاكم بشريعتهم. وانتعشوا في ظل الأوضاع

الجديدة. ودخل الملايين منهم في حوزة الإسلام، عن اختيار ورغبة وطواعية وبلا إكراه. وفضّلت الأقاليم التي وقعت تحت الحكم العثماني المسلم، الإدارة الجديدة على الأوضاع السابقة التي كانت تعاني منها في ظل الفرسان أو البيزنطيين أو البنادقة، ووصلت الأمور إلى حد أن بعض البلاد أمثال المجر وغيرها، أضحت ترتأي أن حكم السلاطين العثمانيين وخاصة حكم سليمان القانوني أفضل بكثير مما كانت عليه أوضاعها أيام حكم أسرة هبسبورغ.

ومنذ البداية رحب العثمانيون بكل من يعتنق الإسلام، ويلتحق من ثم بالجيش أو البلاط، ومنحوه حق المواطنة الصالحة الكاملة. وكانت إحدى الأسر الأربع، التي تبوأت مركزاً مرموقاً، وقامت بدور فعال في الجيش العثماني، وهي أسرة «ميخال أوغلو»، نصرانية تنحدر من أصل يوناني. ثم اعتنقت الإسلام منذ عام ١٣٨٠ م الموافق (٧٨٢ هـ).

وكان الوضع الإجتماعي، الذي منحه العثمانيون في الواقع لرعاياهم البلقانيين مغرياً. وأقبل الكثير منهم على اعتناق الإسلام، كما كان الأمر بالنسبة للبوشناق والألبان ـ وعلى الأخص عندما نضع في اعتبارنا الظروف المحلية والخلفية المذهبية عند بعض الفئات وخاصة منهم طائفة البوجوميل.

ولكن سكان البلقان لم ينصهروا في البوتقه العثمانية، كما كان الأمر في آسيا الصغرى، واحتفظوا بلغاتهم المحلية. فكان ذلك من العوامل المهمة التي فسرت عجز العثمانيين عن فرض سيطرتهم الدائمة هناك.

وتمتع نصارى البلقان، عن طريق هيئاتهم الدينية والإجتماعية، التي رعتها الدولة العثمانية وأولتها عنايتها الفائقة، بحياة أفضل وأجود مما كانت عليه سابقاً تحت حكم أمرائهم وحكامهم الإقطاعيون الوطنيون.

ولكي تفسر ظروف البلقان السياسية إبان العهد العثماني، يلزم التأكيد على الحقيقة التي لا جدال فيها، فالسلطة الحاكمة هي سلطة مسلمة، انطلقت من هذا المفهوم إلى تقسيم الشعوب البلقانية وفق الإنتماء المذهبي والطائفي فضلاً عن أخذها بعين الإعتبار الجانب الوطني.





## ١ ـ التقسيم المذهبي:

وأمكن في ظل الأوضاع الجديدة، لكل فرد من الرعايا النصارى، الانتقال بسرعة وبسهولة ويسر، إلى صف الفئة الحاكمة، بقيامه فقط بإعلان إسلامه. أما إذا رغب الاحتفاظ بانتمائه العقيدي السابق، فيبقى خاضعاً للتنظيمات المذهبية النصرانية السائدة لدى الشعوب العثمانية غير المسلمة.

وقسمت الطوائف، استناداً إلى التشريعات العثمانية إلى خمس طوائف أو جاليات دينية باعتبار الجنس والطائفة ودعيت بالملّيه. وتمتعت بالحقوق المدنية والدينية الكاملة وخاصة اليونان. وهذه الطوائف هي: : الأرثوذوكس، الأرمن، الغريقويون، الرومان الكاثوليك، البروتستانت، اليهود.

وخضعت كل مجموعة لإشراف وتوجيهات رؤسائها الروحيين. وكانت الأغلبية الساحقة منهم تعتنق الأرثوذوكسية. ورئيسهم الديني والمدني هو بطريرك القسطنطينية. أما من حيث الواقع العملي، فإن تنظيم الكنيسة الأرثوذوكسية البلقانية، جرى تقسيمه إلى وحدات قومية. وأصبحت القسطنطينية مركز اليونان، وللصرب بطريرك خاص بهم في «بيج»[1]. وللبلغار مطرانيتهم في «أوهريد»[2]، أما سكان رومانيا فكان لهم مؤسسات قومية مشابهة. وبذا فقد احتفظت الدولة العثمانية بانفصالهم القومي وتقاليدهم المحلية عند إدارتها شؤون تنظيماتهم الكنسية. وعهدت الحكومة العثمانية، إلى السلطات الكنسية، مهمة إدارة العديد من الوظائف والمهام الدينية والمدنية. وخاصة أحوال القضاء، وعملية جباية الضرائب. فأصبحت بذلك الكنائس النصرانية جزءاً من الجهاز الحكومي العثماني.

ومارس بطريرك القسطنطينية، لما له من القوة والسلطات المخولة له من

(١) مدينة يوغوسلافية، تقع اليوم جنوبي جمهورية صربيا قرب الحدود الألبانية.

(٢) مدينة تقع اليوم ي جنوب غرب مكدونيا اليوغوسلافية. على بحيرة أهلايد. وتشرف على الحدود الألبانية الشرقية. فيها مباني إسلامية أثرية. وقلعة كبيرة فيها ١٨ حصناً وأربع أبواب.

قبل الدولة وفي ظلها، صلاحيات تعد أوسع مجالاً مما كانت عليه في عهد بيزنطة ذاتها.

وجرت مراسم الزواج والمعمودية والدفن في البلقان لدى النصارى حسب طقوسهم. وكانت تقام علناً ويجري لها احتفال مهيب. وأكثر من ذلك فإن السلطات العثمانية كانت تقوم أيام الأعياد الكبرى بضمان جو الهدوء للمصلين النصارى ويرابط حرس الإنكشارية أمام أبواب الكنائس.

## ٢ - الحكم الذاتي:

كان للحكومة العثمانية جهازاً إدارياً منظماً وشاملاً كافة مجالات الدولة. وشكلت البلقان جزءاً من إقليم الروملي [٣] «بلربيك». وقسمت الأراضي التي تحت الحكم الإداري المباشر إلى ولايات وإلى وحدات إدارية أصغر. وانتظمت الإقطاعات العسكرية في ألوية وسناجق. وكان عدد الألوية في البدء اثنين فقط. ثم زيد العدد تدريجياً.

ويحكم السناجق بيكوات. ويرأس بيكوات السناجق حاكمان، يحمل كل واحد منهم لقب «بكلربك». أحدهما يشمل نفوذه «الأناضول» والآخر «الروملي» وأوروبا. ويحمل كل حاكم منهما لقب باشا أيضاً. ومقر قيادة باشا الأناضول «أنقرة» ثم «كوتاهية»[٤] فيما بعد. بينما اتخذ باشا الروملي من «صوفيا» مقراً له. وهو أرفع مرتبة من باشا الأناضول، ويحمل لواؤه ثلاثة من أذيال الفرس. بينما يحمل لواء باشا الأناضول ذيلين فقط.

وتركز اهتمام الموظفين العثمانيين على مهام أبرزها جمع الضرائب التي يجب أن تدفع للسلطات العسكرية، والمحافظة على إقرار الأمن والنظام.

وكانت معظم البلقان تدار من قبل موظفين عثمانيين مدنيين. إلا أن

(٣) القسم الأوروبي من الدولة العثمانية.

(٤) كوتاهية مدينة تقع في تركيا. وسط الأناضول الغربي، إلى الجنوب الغربي من أسكي شهر.



بعض المناطق كانت تنعم بالحكم الذاتي. فالإمارات الدانوبية «الأفلاق والبغدان» و«ترانسلفانيا» مثلاً، كانت مناطق تتمتع بالإستقلال الذاتي، ويحكمها أمراء من أبنائها الوجهاء الذين أسند إليهم أيضاً جمع الجزية. أما المدينة التجارية «دوبروفنيك»[٥] فكانت جمهورية ذات استقلال ذاتي، تمتعت به أيضاً بعض المدن والمناطق الأخرى بصورة تامة.

وقد حصل بعضها على هذه الحقوق عن طريق الإكتساب أو الموقع الجغرافي أو الحجم الغير ملفت للإنتباه نظراً لعدم أهميته لدى المسؤولين.

وانصب اهتمام السلطة الحاكمة في المقام الأول تجاه المناطق التي تدار بشكل مباشر. وتركز هذا الإهتمام في أمرين: جباية الضرائب وحفظ الأمن والنظام كما ذكرت قبل قليل.

أما كافة شؤون الحياة الأخرى وتشعباتها فبقيت دون أن تمس. ولم تجر أدنى تعديلات جوهرية حول أوضاعها. وأوكل أمر الشؤون الإدارية إلى سلطات القرى والكنائس التي تشرف عليها السلطة القضائية. والجدير بالذكر أن سير القضاء عند الحكام العثمانيين الأوائل، كان أفضل بكثير مما كان عليه الأمر في أوروبا باعتراف بعض المؤرخين.

واعتنق العديد من نصارى البلقان دين الإسلام. وفسحت أمامهم سبل الترقي إلى مناصب القيادة وتبوء أرفع الرتب. فالمسلمون فقط هم الذين في إمكانهم الانتساب إلى سلك الجيش والخدمة في إدارات الدولة.

وكانت تدار في عهد السلطان سليمان القانوني، أرفع مكاتب الدولة، من قبل المدراء ذوي الأصل البلقاني النصراني سابقاً، وهم الذين كانوا يشرون إما كأسرى حرب أو عن طريق نظام «الدوشيرم» الذي سنتكلم عنه بعد قليل.

(٥) مدينة تقع على ساحل الأدرياتيك غربي يوغوسلافيا ومركز سياحي هام تحف بها أشجار الصنوبر. كانت مستعمرة لاتينية سلافية مشتركة. ونعمت باستقلالها حتى عهد نابليون ثم تبعت امبراطورية النمسا والمجر لمدة مائة عام. ولا تزال كامل المدينة محاطة بالأسوار.

وعمل النظام العثماني جاهداً لاستبقاء وضع المجموعات القومية الراهن. إلا أنه رغم ذلك كان التشابه الواضح بين طراز حياة وشروط معيشة أبناء هذه الشعوب يبدو ماثلاً للعيان.

وعاشت الأكثرية العظمى لأبناء البلقان حياة الزراعة أو الرعي. فهم يعملون في مزارع عائلية مستقلة أو في الهضاب والمرتفعات الأقل خصباً وإنتاجاً.

وسكن أبناء القرى في بيوت متجمعة وصغيرة، تدار من قبل شيوخ القرية ورجال الكنيسة كما ذكرت. حيث ترعى الشؤون المحلية وتدار الأحوال الشخصية. أما المدن والبلدان ذات الأحجام المختلفة، فكان دورها أكبر، نظراً للمراكز الإدارية والاجتماعية التي تتمتع بها. وأقام الموظفون العثمانيون في المدن الكبرى. كما قطن المسلمون ذوي الأوضاع المادية والاجتماعية الجيدة هناك. وانتظم الحرفيون والتجار في تنظيمات مهنية ونقابية.

وعاش الفلاح البلقاني في ظروف بيئية تكاد تكون منعزلة عن العالم، كما كان وضعه سائداً من قبل. فهو لم يتحسن كثيراً رغم الهجرة الداخلية. وتولت الكنيسة مهمة رعاية التعليم ومع ذلك فالأمية كانت متفشية. وتقوقع الأهلون في حدود قراهم، واتخذت لكل إقليم وحدة فلاحية ثقافية.

وبينما عكست المجتمعات البلقانية الصغيرة الثقافة المحلية، فإن المدن الكبرى احتوت مراكز السلطات العسكرية والإدارية المهمة. واحتفظت كل مجموعة بطرازها المعماري الخاص. وجرى بناء المدن طبقاً لرغبة الحكم الجديد معمارياً. ويبدو واضحاً فن العمارة العثماني النموذجي، بإلقاء نظرة فقط على الأحجار المستعملة في صنع الجسور الضخمة والقلاع والمساجد والحمامات والأسواق المغطاة والخانات أو الفنادق.



## ٣ ـ الإنكشارية:

وأصل فكرة هذه المجموعة يرجع إلى عهد السلطان أورخان. وقد اقترحها عليه الوزير «جاندرلي خليل» بناء على إشارة من المدرس «قره رستم» من بلاد القرمان. ويذكر أنه الأخير قدم من بلاد القرمان وتوجه إلى القاضي عسكر جندرلي[٦] خليل قائلاً: لماذا نترك الكثير من خير البلاد يذهب هدراً؟ وسأله الأخير قائلاً: ما هذا الدخل الذي يضيع؟ فقال له قره رستم: إن أولئك الأسرى الذين يقتادهم المسلمون في الجهاد، بناء على أوامر الله عز وجل، يعود خمسهم إلى حصة السلطان الباديشاه. ولماذا لا تجبى هذه الحصة؟. وقال القاضي عسكر: إني سوف أحيل هذه المسألة إلى الباديشاه. وعندما تسلم السلطان مراد الحكم. ونظر في القضية قال: «إذا كان هذا أمر الله فنفذوه» واستدعي قره رستم وقيل له: نفذ أمر الله يا سيدي. وانطلق قره رستم إلى غاليبولي. وهناك جمع خمساً وعشرين (أسيراً) من كل أسير. وأخذت الفكرة فيها بعد طابعاً عملياً.

وأفتي بأخذ أسير من كل خمسة أسرى جرى إلقاء القبض عليهم في ساحة القتال. أما إذا كان العدد أربعة أسرى فيأخذون ٢٥ أسيراً.

وتصرف العثمانيون وفق هذا المبدأ. وجمعوا الشبان والفتيان. وأطلق على هذه الضريبة اسم «ضريبة الغلمان» ـ الدوشيرما». وكان يجري إرسالهم إلى الباب العالي. ثم يسلمون للأتراك في الولايات. ويعلمون اللغة التركية. وقد يعملون لسنوات في حقول الأناضول حتى يتم إتقانهم اللغة. ثم يرسلون إلى الباب العالي بعد عدة سنين.

وتمكن أقوام النصارى البلقان، عن طريق هذا النظام، الإرتقاء تدريجياً

---

(٦) وهو أول قاضٍ من قضاة العسكر. كان متبحراً بالعلوم الشرعية. كان يهرب من تولي منصب القضاء. وتقول رواية أن السلطان أورخان نصبه قاضياً في بلدة إزنيق ثم بروسه ثم وزيراً وأميراً للأمراء. كان عاقلاً ومدبراً.

في سلم المناصب الرفيعة بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر الميلادي. وجمع العثمانيون على التوالي كل خمس سنوات، ربع أطفال الأسرى البلقان، ممن تتراوح أعمارهم بين ١٠ ـ ٢٠ سنة. وجلبوهم إلى القسطنطينية ولقنوهم دين الإسلام. وكان يؤهل بعضهم لتولي المناصب الرسمية المدنية بينما ينتظم الآخرون في فصائل الإنكشارية.

وكان يجري الإختيار برمي قرعة بين الغلمان النصارى في المقاطعات البلقانية. ثم يكرسون لخدمة السلطان فيما بعد. فما هي الأسباب في اتباع هذا النظام؟

إن اتِّباع هذا الأسلوب من التجنيد، ينبع من السياسة العثمانية إزاء شعوب البلقان التي تخضع لهم. وعندما امتدت رقعة الدولة وتوسعت الفتوحات، ازدادت مقاومة أوروبا وجندت كل قواها للوقوف في وجه الفتح. وإذا ما توقف هذا الفتح عنى ذلك انقاص واردات الخمس من الغنائم بما في ذلك خمس الأسرى الذين جندوا في فرق الإنكشارية. وبما أن التزامات الدولة زادت بعد الفتوح، ترتب وجود قوات إضافية لإقرار الأمن وحفظ الإمارة. وهكذا فإن تجنيد أبناء الشعوب البلقانية، أدّى إلى سد العجز في عدد القوات وأنقص مقدرة هذه الشعوب على رفع لواء العصيان. وطبق النظام في المدة بين ١٤٣٠ ـ ١٤٣٨ م (٨٣٣ ـ ٨٤١ هـ). واستمر منذ عهد السلطان مراد الأول.

وهكذا وكل خمس سنوات، كانت تطوف لجان في أرجاء الروميللي، وتنتقي الشباب الأشداء ثم تدربهم في مدارس خاصة وقد يصل بعضهم إلى مرتبة تبوء مركز صدور عظام.

واستثنيت المدن غالباً من نظام الدوشيرما. واقتصر التجنيد على سكان الأرياف حيث السكان الأقوياء البنية وغالبيتهم من الصقالبة والألبان. وهذا ما فسر سيادة اللغة السلافية بين صفوفهم.



وامتازت الفصائل الجديدة «ايكي جاري» من النخبة المختارة «أوقاجي» الانكشارية بـ:

١ ـ التربية الإسلامية: فهم يهدون إلى الإسلام. ويؤخذون إلى الحاج (بكتاش)[٧] شيخ الطريقة البكتاشية في بلدة (أماسيه)[٨]. وهو الذي أطلق عليهم الإسم الأصلي «يني شاري» أي الجيش الجديد. ولقنهم الطريقة المذكورة.

٢ ـ النظام الصارم: فتربيتهم العسكرية التي تخضع للقواعد الشديدة الصارمة، أهلتهم للقيام بدورهم الفعال في المعارك المقبلة. كما ساعد عدم السماح لهم بالزواج، على احتفاظهم بشخصيتهم الخاصة والقوية. وبالتالي عدم اندماجهم في بوتقة المجتمع الذي يلزم المتزوج بمسؤوليات عائلية.

٣ ـ التفاني في خدمة السلطان: فهو أباهم، وإليه ينتسبون. وعلاقاتهم السابقة مع أقوامهم وذويهم قد بترت.

٤ ـ تعلم اللغة التركية.

وقسِّم الإنكشارية في الدولة العثمانية إلى ١٩٦ فرقة. وكل فرقة تحتويها أورطة ولما كانت كل فرقة تقيم عادة في غرفة تسمى بالتركية «أوضه» فقد استخدمت هذه الكلمة كبديل عن أورطه. ويختلف عدد أفراد الأورطة حسب المكان والزمان والحالة السياسية. ويتراوح في مختلف الحالات بين خمسين وخمسمائة. وألحقت الطريقة البكتاشية بالأرطة التاسعة والتسعين. وفي رواية أخرى الرابعة والتسعين. وحين فسد نظام الإنكشارية، وأهملت «الدوشيرما» ثم ألغيت، وأصبح بإمكان السكان المحليين دخول هذا الجيش، حدث شبه اندماج بين الإنكشارية والسكان عن طريق التزاوج. وانتسب الإنكشارية إلى

---

(٧) كان الحاج بكتاش من أصحاب الكرامات في بلاد تركمان. وقد انتسبت البكتاشية إليه. كان تقياً. ولد بنيسابور ثم جاء إلى الأناضول. ويرى بعض المحققين أن مؤسس هذه الطريقة هو (باليم بابا) المتوفي عام ٩٢٢ هـ.

(٨) أماسيا مدينة تقع شمال هضبة الأناضول. إلى الشمال الشرقي من أنقرة.

سلك الحرف المختلفة وبالعكس، كي يستفيد كل فريق من الآخر.

وينتظم الإنكشارية في ثلاث مجموعات غير متساوية هي: ١ - الجماعات. ٢ - بولوك خلقي، ٣ - الساكبان. ويقودهم آغا. وحدث التراخي في أوائل القرن السادس عشر ولانت صرامة نظامهم. ونجم أن أصبح لهم دوراً كبير في التخطيط للإنقلابات اثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وقاوموا محاولات الإصلاح على الطريقة الأوروبية. ثم اتت نهايتهم أخيراً على يد السلطان محمود الثاني في «هيبودروم»[9] في حزيران من عام ١٨٢٦ م الموافق (١٢٤٢ هـ).

وكان يتقاضى الفرد منهم، أقجه[10] واحدة في اليوم. وتزداد حسب الكفاءة. أما تدريبهم فالتزم المباديء الإنسانية. ولم يكن في الصف الأعلى الذي يتخرج منه حجاب السلطان الشخصية أكثر من ٢٥ - ٣٠ شاباً. ومنه يعد المرشحون لتولي المناصب الرفيعة.

ولم يجر انتقاء الانكشارية، كما يهول الأوروبيون بهذه القسوة الذي يذكرون. بل كان يسمح لهم بشراء حرية الابن من قبل الآباء. وكان لا يسلّم الجميع إلى دور الحجاب. وخفف المستقبل اللامع الذي كان ينتظرهم من صرامة نظامهم. حتى أنه أثار حسد الأتراك، الذين كانوا كثيراً ما يدسون أبناءهم بين صفوف النصارى كما يقول «كارل بروكلمان». وينقل أخيراً محمد كرد علي عن الإنكشارية ما كتبه أحد الأوروبيين ويقول: «.. وكان تأليفها - أي الانكشارية - في عصر كانت فيه أوروبا في القرون الوسطى، وليس لها من الجيوش إلا عصابات مسلحة. بل وقبل تنظيم كتائب الرماة في انكلترا. وقبل أن أسس شارل السابع ملك فرنسا جيشاً دائماً تحت الطلب بقرن واحد..»

---

(٩) هيبودروم: ميدان واسع في استانبول يقع إلى جانب جامع السلطان أحمد.

(١٠) كانت الأقجة الفضية تعادل ما يزن ربع درهم. ثم في أيام محمد الثاني كانت كل ٤٠ أقجه لا تزال تساوي (دوكه). ثم تدهورت العملة فيها بعد حتى أصبح كل ستين أقجه تعادل (دوكه).



والحقيقة فإن الفضل في بسالة الإنكشارية وقوتهم، ومدى الإعتماد الحربي عليهم، يعود بالمقام الأول، إلى التدريب القوي، والنظام الصارم، والتربية الإسلامية والروح المعنوية العالية التي توفرها هذه التربية، فضلاً عن الإستبسال من أجل السلطان الذي هو بمثابة أباهم، لا كما قال الأوروبيون إلى انتمائهم القومي أو الطائفي الديني النصراني.

## ٤ - الغزاة:

كان الجيش النظامي العثماني، يتألف من نوعين من الجند هما: **الفرسان** «السباهية» الذين منحوا إقطاعات لقاء خدماتهم. والذي شكلوا عامل قوة في استمرار السيادة العثمانية في البلقان، **والإنكشارية**. وإلى جانب هذا الجيش النظامي وجدت فصائل **الغزاة**. وهم الذين استقروا في مناطق الحدود. وجاهدوا بدافع العقيدة والحماسة الدينية. وقاموا بدور فعال في هداية سكان تلك المناطق للإسلام، بينما بقيت المناطق الداخلية نصرانية تدفع الجزية.

وفي الوقت الحاضر، فإن الجاليات الإسلامية المتواجدة بين الدانوب والبحر الأسود، في منطقة «الدوبرودجا»، وشمال شرقي البلقان، يعود أمر تواجدها وفضله إليهم. كما يعتقد وجود بقايا من السكان المسلمين من أتباع السلطان السلجوقي «عز الدين كيكاوس الثاني» الذين لجأوا إلى بيزنطة عام ١٢٦١ م (٦٥٩ هـ).

وانضم إلى العناصر المسلمة، في مناطق الحدود البلقانية، جماعات أخرى نقلت من الأناضول. فقد هاجرت موجات كبيرة من فلاحي غربي الأناضول إلى تراقيا ومناطق البلقان الشرقية، واستوطنت مئات القرى بمعزل عن السكان المحليين.

أما المدن فسرعان ما تحولت إلى مدن مسلمة لانتقال الأتراك إليها. وهي

التي قاومت. فمدينة «سكوبيا»[11] على سبيل المثال، والتي فتحت عام ١٣٩١ م (٧٩٣ هـ)، أصبح فيها في عام ١٤٥٥ م (٨٥٩ هـ) ٢٢ حياً للمسلمين، مقابل ثمانية أحياء للنصارى فقط.

لم تكن ظروف الفلاحين البلقان، تحت ظل الحكم العثماني، بالمرهقة أو الشاقة. والحقيقة، فإن الفلاح البلقاني، تمتع بظروف أكثر رفاهية مما تمتع به فلاح أوروبا الغربية. وكانت الأراضي التي تؤخذ في الحرب، من الناحية النظرية ملكاً للسلطان أو بصورة أخص وقفاً له، وهو حر التصرف بها. ولكن من الناحية العملية، استخدمت لدعم وحدات الخيالة التابعة للجيش. وكان السباه يمنحون الأرض «التيمار»[12] مقابل قيامهم بتمويل الخدمة العسكرية. ويتبرع الفلاحون ويأدون خدمات منظمة. ثم تناقصت فعالية سلاح الخيالة، بإدخال استعمال الأسلحة النارية فيما بعد. وأصبح اهتمام الدولة، ينصب أكثر على زيادة الضرائب، لتغطية نفقات ثمن الأسلحة الجديدة.

على الرغم من أن معظم شعوب البلقان، فضّلت عدم الهجرة، والاستمرار في ظروف معيشتها السابقة وفي ذات الأرض التي درجت منها وولدت فوق ترابها، فإن بعض الجماعات كانت تنطلق في شرق البلاد العثمانية وغربها، خارج نطاق وطنها الأم، وخاصة أولئك الذين يميلون إلى الإختصاص بحرفة معينة ويمكن مشاهدة التجار اليونان مثلاً، في معظم مدن البلقان الكبرى. أما الرعاة الفلاحون، فإنهم يجوبون أراضي شبه الجزيرة البلقانية الداخلية. وتحرك بعض الأتراك من الأناضول إلى ساحل البحر الأسود

---

(١١) مدينة حديثة تقع اليوم جنوب يوغوسلافيا على الضفة اليمنى للفاردار. بينما تقع المدينة الحديثة على الضفة اليسرى. وهي عاصمة جمهورية مكدونيا اليوغوسلافية. ولا يزال حتى اليوم فيها بعض المساجد.

(١٢) التيمار وقد اقتبست من النظام البيزنطي. وأساس التنظيم العسكري والإداري العثماني. فيمنح الجنود مكافأة إقطاعاً صغيراً يواصل مالكه العمل به ويستفيد من إنتاجه مقابل دفعه للدولة فرساناً يتراوح عددها بين ٢ ـ ٤ أو عدداً من البحارة.



ومكدونيا والبوسنة وتراقيا. بينما انتظم الألبان في نطاق حرس الحدود أو الشرطة عبر البلاد العثمانية الواسعة. وأدى هذا الإختلاط السكاني إلى مشكلات ظهرت آثارها في المستقبل عند رسم حدود الولايات القومية البلقانية.

# الباب السادس

## توقف الفتح العثماني وأسبابه

١ ـ انحطاط الدولة.
٢ ـ عصر النهضة الأوروبية.
٣ ـ دور الصليبية العالمية.
٤ ـ فشل حصار ڤيينا.
٥ ـ الإجتياح الروسي.
٦ ـ دور الثورة الفرنسية.

## توقف الفتح العثماني وأسبابه:

### مقدمة:

في حساب التاريخ، يبدو أن عدم الديمومة أمر حتمي، وأن الآجال ترتبط بمواقيت محددة في علم الله، حسب نظام متناسق «وتلك الأيام نداولها بين الناس» إن الأيام ليست ملكاً لأحد. فهي توحي بالحركة والتجدد والأمل. أما المداولة، فهي تستهدف التمحيص.

إن ضعف الإرادة والعزيمة والإيمان، لا بد أن يؤدي إلى فسح المجال لجيل أفضل، طبقاً لسنة العدل الكوني. وعندما تمارس الأمم القوية سياستها في السيطرة، فهي لا تستطيع أن تحطم المنجزات الحضارية التي قد تصاب بنكسة أو نكسات، ولكنها تمارس دورها في تدمير القيم والمعارف الإنسانية، تلك القيم والمعارف التي لا تستقيم، إلاّ عندما يقود ركب الحضارة رجال أكفاء، أقوياء الإيمان، من بين صفوف الأمة الوسط.

وهكذا فالأمم تتعرض للصعود والهبوط، حسب الممارسات والمعطيات. أما عندما تحيد الجماعة الرائدة عن جادة الطريق السديد، فإن العقاب ينصب على كل إنسان، وحتى على الجماعة بأكلمها. فكل أمة تحمل تبعات نفسها، وليس تبعات غيرها.

إن الجماعة البشرية، لا تستطيع أن تمارس خلافتها في الأرض، إلا عن

طريق الإصلاح وإيقاف الفساد، إستناداً إلى تعاليم الأنبياء.

أما سقوط الحضارة، فهو أمر آخر، غير مرتبط بسقوط الأمم. ومع ذلك فهو يشمل أجزاء عدة، فالسلبيات المدمرة، التي تمارسها القيادة الظالمة، والقاعدة الخاملة، والأخلاقيات الهابطة، والإنغماس أو حتى مجرد الميل نحو الترف والحرمان، وفقدان التوازن بين المادة والروح، تتجمع هذه جميعاً، فتتمكن من تدمير كل شيء. وعندما تتسنم ذروة القيادة حفنة من المترفين الفسقة، أو الإداريين الظلمة، أو المجرمين الطغاة، تحين ساعة السقوط، وتتحمل السلطة تبعات الظلم الذي حدث، هي والقاعدة على السواء شركاء. وليس من بديل إلا بالتلقي عن الله وحده، والتزام جانب الحق والعدل. إن الإنتهازية والنفاق، التي تمارسها الجماهير، في رفعها هؤلاء إلى المركز، تجعلها تتحمل الوزر الأكبر. أما الترف الذي يقود للسلطة، والسلطة التي تؤدي للترف، فكلاهما يوصل للدمار. ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾ صدق الله العظيم.

وفي مجال بحثنا عن أسباب الإنحطاط والتقهقر العثماني، يضيق المجال هنا عن شرح واف لهذا الفصل. ويمكن للقاريء الكريم مراجعة كتاب «تاريخ الدولة العثمانية» للمؤلف كاتب هذه السطور، ويتبين أسباب الضعف بالتفصيل. أما ما يختص بالبلقان فقد ذكرت بعضاً من هذه الأسباب وهي:

**١ - انحطاط الدولة:**

على الرغم من عمر الدولة العثمانية المديد، فإن علامات الضعف دبّت في أركان بنائها الشامخ، بعد انقضاء عهد السلطان سليمان القانوني. فما أن انعدم التوجيه القوي الذي تمارسه القمة عملياً بقيادة السلطان شخصياً للمعارك الحربية، حتى بدأت العزائم بالتراخي شيئاً فشيئاً.

ولم يكن سلاطين القرن السابع عشر الميلادي وما تلاه، عدا القليل منهم، يملكون المقدرة على تقويم الإعوجاج. فعانت الدولة من قصور في



القمة الموجهة وعجز في القاعدة الإدارية الحاكمة، تلك الإدارة التي اعتمدت على حفنة من الموظفين، ممن ارتقوا إلى مراتبهم طبقاً لتغييرات حتمية. وتوجهوا حالاً للبحث عن أغراضهم الشخصية، وجدّوا في طلب المنفعة والمكافآت الفردية.

وأتى نظام «الدوشيرما» - الذي تكلمنا عنه سابقاً إلى نهايته في أواسط القرن السابع عشر لميلادي. وكان لا بد له من الإشراف على تلك النتيجة، طبقاً للمعطيات السابقة.

وترافقت هذه التطورات، بتفشي الرشوة في أوساط الحياة السياسية العثمانية، فمكاتب الدولة الرفيعة المستوى تباع وتشرى. وانصب جل اهتمام أصحاب المنافع، إلى شراء المناصب بالرشاوى، لتغطية نفقاتهم أولاً، وللبحث عن الثراء أخيراً.

وهكذا ابتدأ انحطاط الدولة، الذي أرسيت لبنته الأولى في العاصمة، وتعاظمت مخاطر بنيانه المتطاول، فعم البلاد ونخر في أخلاق العباد، وسرى سريان النار في الهشيم.

وشكل انحطاط الفصائل الإنكشارية أكبر الخطر على مستقبل الدولة العثمانية. وها هم جنودها يكتسبون حق الزواج، ويميلوا إلى حياة الترف والنعيم. ثم هم يتمكنون من تجنيد أولادهم وتطويعهم في مراتبها. ويضطرون إلى التسابق والإندفاع في كسب المزيد من المال، بدل الاندفاع في ساحة المعركة خلف الأعداء. وتحول العديد منهم إلى حرفيين ومحترفين عوضاً عن فنون القتال. وتفسخت هذه المنظمة العسكرية التي كانت فيما مضى مرهوبة الجانب، وهبطت إلى المستوى الضعيف . وامتد أثر تفسخها إلى أجهزةالدولة، ففشلت أسوة بباقي القوى العسكرية الأخرى، في تعاملها مع العدو المتربص والمتمثل بالغرب الصليبي الذي كان يسير وئيد الخطى في طريق التقنية والتنظيم. وضاع دورها الحاسم الذي لعبته في دحر القوى المعادية وتوسيع الفتوحات.

وأثّر الإنحطاط على الرعايا بانحطاط الإدارة. وانصبت الشكوى الرئيسية على أسلوب جمع الضرائب وما رافقه من مفاسد مهلكه. وحاولت الدولة تقويم الإنحراف باستبدال الجباة. ولكن تقويم الإنحراف بانحراف آخر لا يفيد. ولجأ الجباة الجدد من المزارعين إلى التنافس سنوياً والمزاودة على المركز وأكل الربا. واستعملت الأساليب الظالمة في تقييم الضريبة بغية الحصول على قيمة أعلى. وجرّت هذه الممارسات الخاطئة البلاد تدريجياً، إلى حضيض التدمير والإنهيار الإقتصادي. وتأثر مستوى معيشة الفلاح البلقاني بتغير نظام ملكية الأرض حسب النظام التيماري الذي ذكرته سابقاً والذي حلّ كبديل عن الخدمة العسكرية.

ودبّ الضعف أيضاً في سلاح الخيالة، ففقد دوره وتناقصت أهميته بتناقص الحملات العسكرية. وتحولت الملكيات الضخمة التي امتلكها المرابون والانتهازيون إلى حقوق مكتسبة وراثية. أما الفلاح الذي يعمل في حقول الملاك، فقد انخفض إلى مستوى محاصص أو مزارع يعمل في الأرض لمصلحة المالك مقابل أجر من المحصول، فعم الإستياء.

إن التجاوزات في تطبيق القانون هي مهلكة في كل زمان ومكان. وكانت تلك من العوامل المؤثرة في تدهور الإدارة العثمانية في كافة أرجاء شبه الجزيرة البلقانية. فالتزايد المستمر في ضعف الحكومة المركزية، دفع إلى تكوين مراكز قوى هنا وهناك. واندفع العديد من القادة المحليين والحكام الإداريين، إلى تشكيل ما يشبه الإمارات الصغيرة. ومن خلالها كانوا قادرين على تحدي العاصمة، وإذكاء نار التطاحن فيما بينهم. وبرز من بينهم شخصيات لعبت دوراً هاماً أمثال «علي باشا» والي (يانينا)[1] و«باشوان أوغلو» في «ودين»[2].

وتزايدت أعداد اللصوص وقطّاع الطرق في صفوف العصابات

---

(١) يانينا: مدينة تقع اليوم في مكدونيا.

(٢) ودين: مدينة تقع إلى الغرب من سالونيك.



النصرانية، وأدّت نشاطاتها المخلّة بالأمن، فضلاً عن الخراب الذي تتمخض عنه الحروب، إبان القرن الثامن عشر، إلى جعل بعض المناطق غير قابلة للاستيطان لمدة طويلة. وهذه الظروف كانت عاملاً مباشراً في إذكاء نار الثورة الصربية لعام ١٨٠٤ م، والثورة اليونانية في موره عام ١٨٨١ م (١٢٩٨ هـ)، وإن لم تكن هي العامل الأساسي كما سنذكره.

وأدى ضعف الدولة المتزايد، إلى حصول بعض الفئات النصرانية، على مكاسب محددة في الإدارة. وعلى رأسها فئة النصارى اليونان الذين انخرطوا في صفوف الإدارة. وتبوؤوا مراكز مرموقة اكسبتهم وضعاً ممتازاً. وتمكن (الفنار) في القرن الثامن عشر والمقيمين في استانبول العاصمة، من التسلق إلى مستوى القيادة. وحازوا على المناصب ذات الأهمية القصوى كمكاتب الترجمان الأعظم «أمين عام الدولة» ـ خوسبودار ـ. في الأفلاق والبغدان. أما أساقفة اليونان فقد تحكّموا في الكنائس القومية الأخرى، من خلال بطريركية العاصمة. وأكدّوا سيطرتهم في أواسط القرن الثامن عشر، على المراكز الأكليروسية البلغارية والصربية في «أوهريد» و«بيج». وتحكّم التجار اليونان، الذين تم تعيينهم، في مدن شبه الجزيرة البلقانية، في جانب كبير من تجارة البحرين الأبيض والأسود. وشكلت هذه الطبقة التجارية من أبناء الجاليات، عاملاً خطيراً في المستقبل اللاحق، لتعرضها المباشر لآثار سريان تيار الأفكار الغربية الإجتماعية والسياسية فيما بعد.

وتلا اليونان الرومانيون، في احتلال مرتبة ملاّك الأراضي. ومن خلال مركزهم الإقتصادي، تمكنوا من التربع على مكان الصدارة في الدولة العثمانية.

وعلى الرغم من أن أمارتي الأفلاق والبغدان الرومانيتيين، لم يكونا تحت الإدارة العثمانية المباشرة، فإنهما كانتا تدفعان الجزية، وتخضعان لنظام يدار من العاصمة. وتعاون حكامهما مع العدو الروسي، في أوائل القرن الثامن عشر عندما اكتسح الأراضي العثمانية. وسرعان ما استبدلتهما الحكومة بحكام

من اليونان الفنار امتد حتى عام ١٨٢١ م. فاتسمّ الحكم الجديد بالفساد والرشوة إلى أبعد الحدود، وبالكراهية والمقت من نبلاء رومانيا.

أما الصرب والبغار، فعانوا من تفشي الرشوة وانعدام القانون. وتعرضت بلادهم للصراع المستمر بين القادة المحليين من جهة، وللعمليات العسكرية مع القوى المعادية والغازية من جهة أخرى، فكانت مسرحاً للأحداث الدامية المحلية والدولية.

كلمة أخيرة لا بد من ذكرها عن الألبان وسكان الجبل الأسود. فالإسلام الذي عمّ ألبانيا، جعل سكانها في منأى عن المشكلات التي مر بها الآخرون، ليس لمحاباة السلطة المركزية لهم لكونهم مسلمين، ولكن لإخلاصهم في ظل حكم لم يعدّوه غريباً حيث تربطهم به رابطة العقيدة أمتن رابطة بين الشعوب والأمم. ولم يتورط الألبان كجيرانهم طبقاً لهذه المعطيات، فارتقوا في مناصب الدولة، وترقوا في سلّم الخدمة العسكرية. ولم تبذل السلطة إلّا القليل من الجهد في إقرارها دعائم الإستقرار وإرساء السلام واستتباب الأمن هناك. وكان الألبانيون آخر من يفكر في إقامة دولة مستقلة طالما ارتبطوا بعامل العقيدة. وأخيراً فإن سكان الجبل الأسود الذين شكلوا ولاية نصرانية، حكموا من قبل امرائهم وأساقفتهم. فلعب دوراً فقرهم، وساعدتهم وعورة جبالهم. فحكموا أنفسهم بأنفسهم.

## ٢ ـ عصر النهضة الأوروبية:

مضى عهد الفتوحات العثمانية الكبرى. وتوقف التقدم العثماني. ولكن التآمر الصليبي ازداد ولم يتوقف. وهو اليوم يبدو وقد تسلح بأسلحة جديدة لم يعهدها من قبل.

إن منطق التاريخ قد علمنا، في تعاملنا مع الأعداء ـ أعداء هذا الدين ـ، سواءً في الماضي أو الحاضر، أن أسلوب القوة هو اللغة التي يفهمون. وما كان انحطاط الدولة العثمانية وبدء انهيارها، سوى ارتقاء وتقدم



لأولئك الأعداء الذين أناخوا لها الرقاب فيها سلف. وتشتد الحملة المسعورة مع أفول نجم الدولة وازدياد الوهن في صفوف المسلمين، وبزوغ عصر النهضة لدى الأوروبيين.

كانت بداية ما أطلق عليه اسم عصر النهضة، بداية اختلال التوازن وتحوله لصالح الغرب، بعد محافظته على وضعه الراهن إبان الحروب الصليبية واوائل الدولة العثمانية. فبعد الكشوف الجغرافية الحديثة، شهد العالم كشفاً جديداً في العلم، وبعد غزو القارة الأميركية، وضعت أوروبا يدها على كنوز العالم الحديث، وازدادت إمكانياتها المادية.

وسجل أوائل القرن السادس عشر الميلادي، بضع وقائع امتاز بها العهد الجديد للسياسة الأوروبية منها:

١ ـ تشكل الدول الحديثة وظهور فكرة القومية.
٢ ـ تهيئة الأفكار للديموقراطية.
٣ ـ تبدل العلاقات الدولية.

إن التدفق الحيوي، الذي حرّك البشرية الأوروبية على الصعيد الفكري، في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وبداية القرن السادس عشر، والذي حدّد العقل والحس والمعرفة والفن، ترجع أصوله الجوهرية لعلماء ومفكري المسلمين. ثم تحول ليكون أداة بيد الوليد الرأسمالي والملكية الغربية حسب رأي المحللين. وبذا تفتحت بواكير النهضة.

وأعطت إيطاليا اللون لهذه النهضة في أوروبا. وبدأت بالتفتح الأدبي والفني والعلمي الذي تم باكتشاف الطبيعة والإنسان.

إن الإكتشافات الجغرافية الحديثة الكبرى، باندفاعها الحاسم، قادت إلى حدوث النهضة الإقتصادية. ولم يكن الجوع إلى التوابل أو التعطش إلى امتلاك الذهب كما يدّعون هو العامل المسبب بقدر ما كان همهم في ملاحقة المسلمين بعد سرقهم خرائط البحار من أيديهم، وإشهار سلاح القتل فوق رؤوسهم

عند شواطيء المحيطات. فكان الإكتشاف عَرَضياً. وكأن يد القدر أرادت تسليمهم زمام إعمار الأرض في عصر بدأت بوادر النضوج العقلي تبدو بين أوساطهم في حين يشهد المسلمون المغيب فلا تضيع الحضارة الإنسانية.

وأدى النهم المتزايد على الكنوز الجديدة في آسيا وفي أميركا، إلى تحول الشعوب المستعمرة وحكوماتها إلى دول كبرى. وحاولت هذه الشعوب نشر أديانها في البلاد الجديدة، وازداد التقدم العلمي وعلم الإجتماع، وتوسعت آفاق أوروبا، بفضل الملاحظة والتجربة، ذلك المنهج الذي اقتبس عن المسلمين. وتأسست تجارة الرقيق بسبب الملاحين الإنكليز.

كانت النتائج الإقتصادية التي أسفرت عنها الاكتشافات الجغرافية كبيرة ومذهلة. وتحولت طرق التجارة العالمية بين أوروبا وآسيا. وضاعت مكانة البحر الأبيض المتوسط والدولة العثمانية التي تحمي شواطئه. وحل مكانه المحيط الأطلسي حتى فتح قناة السويس. وكان الأهم من ذلك انتقال الثروة بتدفق البضائع والمعادن الثمينة من آسيا والقارة الأميركية إلى أوروبا، وبالتالي تكدس الأرباح الباهظة وارتفاع الأسعار.

وأدى الوضع الجديد إلى ظهور أشكال جديدة من المشروعات. ونفذت أفكار الإصلاح الديني التي نادى بها لوثر[3] وغيره إلى أوروبا الوسطى والشرقية. وانتقلت الكالڤينية الشعبية[4] عبر جبال الكربات وتسربت إلى

---

(٣) مارتن لوثر: ولد مارتن لوثر عام ١٤٨٣ م (٨٨٨ هـ) في بلدة «إيزلبين» الواقعة اليوم في أراضي ألمانيا الديموقراطية. وهو مؤسس حركة الإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر الميلادي. درّس في شبابه في جامعة «ڤيتنبرغ» ثم نال الدكتوراه في اللاهوت عام ١٥١٢ م (٩١٨ هـ). انتشرت إصلاحاته في شمال أوروبا ثم في كافة أرجاء العالم النصراني فيما بعد. وتبعه الكثير من أمراء ألمانيا. أما لفظة البروتستانت فهي تعني الإحتجاج بإقامة الحجة. ويسود مذهبه اليوم شمال المانيا والدانمارك والسويد وهولندا وإنكلترا وشمال أميركا. توفي عام ١٥٥٨ م الموافق (٩٦٥ هـ).

(٤) الكالڤينيه: وهي تنتسب إلى «كالڤن» المصلح البروتستانتي المولود عام ١٥٠٩ م (٩١٥ هـ) والمتوفي عام ١٥٦٤ م (٩٧١ هـ) في جنيف. لها فرق متعددة حسب الفكر والممارسة والتطورات التاريخية.



رومانيا وترانسلڤانيا. ووجدت في رومانيا الديانات النصرانية الأرثوذوكسية والكاثوليكية والكالڤينية دون اضطهاد بسبب التسامح الإسلامي.

ثم بدأ تشكل الدول الكبرى. وتكون الإتحاد في اسبانيا بعد مأساة إخراج المسلمين. وجرى اتحاد إمارة الغال «ميلز» مع بلاد الإنكليز عام ١٥٣٦ م. وتقدمت الملكية المطلقة، لرغبة الملوك في زيادة سلطانهم على رعاياهم، وللصراع القائم بين الأمم في ذلك العصر، ولانتشار الحقوق الرومانية وتركيب الأمم الأوروبية ذاتها وتنافس الأسر والنزاع بين الطبقات.

ومثلت الملكية الفرنسية، نموذج الدول المتطورة. وأصبحت بلداً آهلاً بالسكان له طابعه الخاص، وتوطدت فيه السلطة الملكية. وأدى السلام الداخلي، وخاصة بعد القضاء على الإقطاع، إلى ازدياد نشاط حركة التوسع الإقتصادي. وازدادت الفعالية والنماء الإقتصادي زراعياً وصناعياً.

وبدأ عصر النهضة الأكبر في انكلترا، حوالي عام ١٥٧٨ م (٩٨٦هـ)، بإغناء الفكر الانكليزي بالمصادر القديمة. وعلى الرغم من تأخر النهضة الإنكليزية، إلّا أن الوقت كان يتسع لقطف ثمارها.

واستطاعت البلاد المنخفضة، أن تصبح من أكثر الدول الإستعمارية اقتصادياً في العالم، وشمل نشاط الهولنديين أوروبا واميركا والهند. وانطلق التجار الإنكليز والهولنديون حتى أقصى الأقاليم النائية، واحتكوا بالتجار المحليين، وقتلوا المسلمين وجلبوا الأموال منهم مباشرة. وأقبل المال على الروس نتيجة لذلك، وظهر التجار الأوروبيون الكبار في موسكو وقازان[5]... وأثناء ذلك كان العثمانيون يخفقون أمام أبواب ڤيينا.

كان وضع السلطان سليمان القانوني قوياً من الناحية الديبلوماسية.

---

(٥) قازان: وهي عاصمة جمهورية تتاريا السوڤيتية الذاتية الحكم. تقع غربي روسيا الإتحادية على الشاطيء الشرقي لأحد فروع الفولغا. أوجدها التتار في القرن الثالث عشر الميلادي.

وأدرك تجزؤ أوروبا، وتابع تطور الحالة السياسية والدينية هناك. وربما كان على علم بثورة البروتستانت عام ١٥٢٩ م (٩٣٥هـ) قبل زحفه على ڤيينا. فقدر مدى النزاع الديني، وعندما أكد سفراء فرديناند في العاصمة العثمانية، بأن شارلكان[٦]، يستطيع الإعتماد على رعاياه، تساءل سليمان بتهكم، ما إذا كان شارلكان استطاع أن يعقد الصلح ويسوي السلام مع لوثر.

ودام حصار ڤيينا أربعة أسابيع. وحاول العثمانيون خلالها الهجوم على المدينة أربع مرات ولم يفلحوا، وأوروبا تمسك الأنفاس وتنظر بقلق إلى النزاع المصيري.

ولم يحالف العثمانيين النجاح. فالمطر ينهمر ليل نهار، والخنادق تفيض بالمياه، والبرد القارس يفت في عضد الجنود، فلم يندفعوا للقتال. ورفع سليمان الحصار وعاد بجيشه إلى ڤيينا.

وتهيأ سليمان للأنطلاق ثانية لحرب الامبراطور شارلكان. واجتاز المجر على رأس جيش قوي. واجتاح الأراضي التابعة لأسرة هبسبورغ في النمسا. وفشلت الحملة لأن الأمبراطور أصبح مطلق اليدين في قتال العثمانيين بعد عقده الصلح مع اللوثريين. وأولت الدولة العثمانية ظهرها لأوروبا، كي تتوسع في مكان آخر.

وهكذا شكلت الحصون الأوروبية حاجزاً منيعاً ضد الآسيويين، وشُلت الهجمات العثمانية لصعوبات التموين وطول خطوط الأمداد وعدد حيوانات الحمل اللازمة. ولنتجاوز الزمن بقرن آخر إلى الأمام، وننظر في صفحات التاريخ الأوروبي، ويلفت نظرنا التقدم الإقتصادي الواضح، وخاصة في

(٦) شارلكان: وهو الامبراطور شارل الخامس. ولد عام ١٥٠٠ م (٩٠٥ هـ). وورث عرش إسبانيا عن والدته ابنة فرديناند وايزابيلا ملكي اسبانيا اللذين أجليا المسلمين عن الأندلس. انتخب أميراً لإسبانيا، بعد موت جده لأبيه الإمبراطور «مكسمليان». وكان على صراع عسكري دائم مع فرنسا. قاتل (بارباروس) وحاول الإستيلاء على الجزائر ولكنه فشل. اضطهد البروتستانت ولكنهم انتصروا عليه في النهاية. توفى عام ١٥٥٨ م الموافق ٩٦٥ هـ.



بريطانيا وفرنسا والبلاد المنخفضة، وترهبنا الضربات القوية التي سددها بطرس الأكبر[٧] في روسيا. ويلاحظ النمو القوي ويتجلى ازدياد التسارع في كثير من مناطق أوروبا.

إن الأوضاع الإقتصادية الجديدة، أدت إلى تزايد ضخم في عدد السكان في مستهل القرن الثامن عشر. فسكان انكلترا مثلاً بلغ تسعة ملايين في أواخر القرن الثامن عشر، بينما بلغ تعداد الفرنسيين قرابة ٢٦ مليون، فالأغذية تحسنت، وسحب المجاعة انقشعت، والعناية الصحية توفرت بشكل أفضل.

وأدى استهلاك السلع الغذائية، والمواد الأولية المتزايد، إلى تقدم التقنية الزراعية وزاد التوسع الزراعي في الأراضي الروسية. وأدى الوضع الجديد إلى تجهيز اليد العاملة بأشكال الإنتاج الصناعي الحديث وإلى حدوث الهجرة. وازداد نمو التجارة الدولية في أوروبا الغربية، كما زادت المنافسات التجارية بين الدول، وتغلبت بريطانيا على جميع منافسيها، وزادت قوتها البحرية.

وتميز القرن الثامن عشر، بالعداء الدائم بين فرنسا وروسيا من جهة، وبالخمول التجاري العثماني. وانحصرت التجارة العثمانية بيد الأوروبيين وخاصة الفرنسيين. وتواجدت جاليات صغيرة من التجار الغربيين النشطين بصورة دائمة في الموانيء العثمانية، وإن كانت قليلة العدد.

وحتى ظهور الثورة الصناعية الكبرى في بريطانيا، لم تكن الصناعة متقدمة في أوروبا. ولكن الأمر تغير بعد ذلك، فقد حدثت التحولات التقنية الكثيرة. فبفضل استخدام فحم الكوك بشكل كثيف في معامل الصهر، عرف الانتاج البريطاني للحديد، كما عرفت الآلة التجارية. ولم يكن في بقية أوروبا

(٧) بطرس الأكبر: وهو امبراطور وقيصر روسيا المولود عام ١٦٧٢ م (١٠٨٣ هـ). تولى الحكم عام ١٦٨٢ م (١٠٩٣ هـ) وتمكن الفوز بالحكم بعد سجن أخته في أحد الأديرة وإجبار أخيه على التنازل. سافر إلى دول أوروبا الغربية لمدة سنة كاملة واطّلع على تقدمها. أسس مدينة سان بطرسبرغ وجعلها عاصمة لبلاده. توفي عام ١٧٢٥ م (١١٣٧ هـ) وخلفته زوجته «كاترينا الأولى».

عدا فرنسا، سوى بداية ثورة صناعية حتى عام ١٧٨٠ م الموافق (١١٩٤ هـ).

وأدت التحولات الصناعية إلى تطبيق العمل الإلزامي، وتشغيل العديد من الناس لغزل الصوف. وساعد استخدام الأقنان في روسيا على نمو صناعة الحديد. وكانت انكلترا أيضاً مركزاً مهماً في صنلعة النسيج الصوفي واستخراج القصدير والرصاص. وكان الشيء الملفت للنظر وصول الروس إلى صف الدول الصناعية الكبرى. فالصناعات المعدنية أخذت بالنمو، فضلاً عن صناعة الحديد التي تملكتها روسيا من قبل. وساعدت الظروف على تحقيق هذا الهدف كتشجيع السلطة وتوفر الغابات التي تمد بشكل سخي ودائم بالأخشاب وسهولة الوصول إليها، والعمل الفلاحي الشاق، وحاجة الروس الملحة للأسلحة كي يتوسعوا ويقاتلوا المسلمين وغيرهم.

وزاد التطور الجديد في الإنتاج، وتضاعف عدد المشروعات في الأورال. وأنشأت (كاترينا)[8] اثنتين وثلاثين معملاً جديداً. وأتيحت أمام روسيا الفرص، كي تصبح أكبر ممول للحديد في دول أوروبا الغربية. ونما دورها بشكل عظيم في الحياة الاقتصادية الأوروبية. وظهر الجيش الروسي الضخم في بداية القرن الثامن عشر، بعد أن كان صغير الحجم في القرن السابق. وأضحى من أقوى جيوش أوروبا. ووصل عدد جنوده، قبل أن تشترك روسيا بقسط من الصراع ضد الثورة الفرنسية، إلى أربعمائة وثمانية وخمسون ألفاً. وزود لدخول الحروب ضد الدولة العثمانية بروح صليبية جديدة، واستخدم الروس طريقة الهجوم بالحراب، عكس الغرب الذي مال إلى حماية الأسرى.

واجتاح بطرس الأقاليم بوحشية صدمت الجميع. واكتسحت جيوشه بروسيا الشرقية عام ١٧٨٥ م ١١٩٩ هـ وارتكبت أفظع المجازر. وتبقى

---

(٨) كاترينا: أصلها من عائلة فقيرة قطنت ولاية ليڤونيا. كان زوجها الأول سويدي عسكري. أسرها الروس عام ١٧٠٢ م (١١١٤ هـ) واتخذها الأمير (منشكوف) خليلة له. ثم أعجب بها بطرس الأكبر واتخذها لنفسه. وكانت ترافقه في أغلب حروبه. وأخيراً أعلن زواجهما. ثم توجت امبراطورة عام ١٧٢٤ م (١١٣٦ هـ) وتوفيت عام ١٧٢٧م الموافق ١١٣٩هـ.



المذابح الفظيعة التي ارتكبها إثر الهجوم الروسي على حصن «اسماعيل»[9] العثماني، تقشعر لها الأبدان، وظهرت بشكل مخيف لجميع معاصريه.

واستمرت الجيوش الأوروبية بتجنيد المرتزقة. فكان الجيش الفرنسي في منتصف القرن يضم في صفوفه أكثر من خمسين ألف أجنبي. وكان في خدمة أسبانيا أكثر من ست قطع سويسرية وظهرت أسلحة جديدة، وأساليب عسكرية مبتكرة. فاختلفت أوضاع الجيوش عما كانت عليه عام ١٧٠٠ م (١١١٢ هـ(. وازداد التدريب العسكري. وانشئت المدارس العسكرية الملكية في باريس، والأكاديميات العسكرية في أسبانيا وغيرها. وأدخلت انظمة الجيوش المتحركة الخفيفة. فأدخل الروس جيش المشاة الخفيف. وأنشأ البريطانيون قطعة فرسان خفيفة للإستطلاع.

ووضعت بريطانيا تحت تصرفها، أعظم أسطول حربي من حيث القدرة والكفاءة، وجاء دور فرنسا فاختلت الترتيب الثاني بعد حرب السبع سنوات. وشابه نمو الأسطول الإسباني الأسطول الفرنسي. وبقي الأعجب من هذا وذاك الأسطول الروسي.

إن أسطول الروس في بحر البلطيق، لم يبدأ تشكله، إلّا بعد توطيد أقدام روسيا على شواطئه. ورغم العداء والاستنكار الشعبي، ورغم استرجاع العثمانيين لآزوف[10]، وضياع أسطول روسيا في البحر الأسود عام ١٧١١ م، فقد تمكن بطرس، من أن يجعل من روسيا، أكبر دولة بحرية في أوروبا عام ١٧٢٥ م.

أمام هذه الخطوات الواسعة التي قطعها الغرب، أين كانت تقف الدولة

---

(٩) اسماعيل: وهي مدينة تقع اليوم جنوب الإتحاد السوڤيتي قرب الحدود الرومانية الشمالية الشرقية.

(١٠) تقع مدينة آزوف إلى الجنوب الغربي من الإتحاد السوڤيتي. على الضفة اليسرى من الفرع الجنوبي لنهر الدون. ويقع بحر آزوف على الشواطيء الجنوبية للبلاد السوڤيتية الأوروبية ويتصل بالبحر الأسود بمضيق كرش.

العثمانية؟ إن سفن العثمانيين، على سبيل ذكر الأسطول، كانت لا تزال تستخدم القلوع والمجاديف على نطاق واسع. وسرعان ما فرض الروس عليهم الحرب في «جشمه» وبالتالي الهزيمة، التي تعد أكبر هزيمة سجلت في التاريخ البحري. وفي هذا الوقت كانت سفن المجاديف تكاد تختفي من مسرح الحرب البحرية الأوروبية. ولم يبق إلا القليل من السفن الشراعية في بحر البلطيق ثم زالت.

كانت أول آلام الدولة العثمانية هي عدم الإستقرار. فحياة الصدر الأعظم تتعرض للخطر لأصغر هزيمة عسكرية أو انتكاسة ديبلوماسية. وحتى السلطان نفسه لم ينج من الخلع ما بين يوم وآخر. والوحدة الإدارية غير موجودة. وتبرز هنا وهناك زعامات محلية متمردة.

أما الحياة الإقتصادية فكانت تعيقها مجموعة من العوامل مثل الإدارة السيئة وتفشي الأوبئة والتخلف الثقافي. فأول مطبعة تركية يرجع تاريخها إلى عام ١٧٢٦ م وكانت حياتها قصيرة.

وزاد الأمور تعقيداً، إعطاء العثمانيون، رعاياهم النصارى، انطلاقاً من روح التسامح الديني الحق، الحرية الدينية، رغم بقاء القيادة بيدهم.

واختلف مصير البلقانيين في الدولة العثمانية حسب المناطق. فسكان البوسنه ومعظم الألبان، كما ذكرت سابقاً دخلوا في الإسلام. ولم يشعر سكان بلغاريا بالتبعية لفريق عرقي مختلف. واحتفظت الأفلاق والبغدان بالولاء للعقيدة النصرانية وتمتعتا بالإستقلال الذاتي. وخضعت جزر إيجه لنظام أكثر لينا أفادت منه. وألفّت قرى يونانية في شبه جزيرة موره القاحلة صحراوياً، طوائف مستقلة ظاهرياً، وليس لها مع الإدارة العثمانية إلا اتصالات نادرة. وفي العاصمة العثمانية ذاتها، تمتعت الجالية الإغريقية، بالرفاه والغنى والتعليم وهي المسماة بالفنار.



### ٣ - دور الصليبية العالمية:

ازداد تذمر السكان البلقان طيلة القرن الثامن عشر. وترجع الأسباب في جزء منها لانحطاط ظروف الأرياف كما ذكرت سابقاً. وشجع النمو الإقتصادي البطيء في الموانيء مثل سالونيك، شيئاً فشيئاً، على ظهور طبقة وسطى من التجار معادية للعثمانيين. وبدأت الإتصالات قبل الربع الثالث من القرن الثامن عشر بين أوروبا الوسطى والغربية وبعض مناطق البلقان، فحدثت روح عاطفية قومية معادية. وانتشرت الجرائد الإغريقية والصربية على التوالي.

ورغم كل المصائب والنكبات، ورغم كل المناورات، لم يظهر عجز الدولة العثمانية على الصعيد العسكري إلا ببطء شديد. وكان العثمانيون قادرون عام ١٧١١ م على فرض هزيمة ساحقة على بطرس الأكبر. وعاودوا القتال ضد آل هبسبورغ.

ولكن الأمير «أوجين»[١١]، القائد الأعلى للجيش النمساوي، فرض عليهم هزيمة منكرة. واجتاح جيش نمساوي الأفلاق، وخسر العثمانيون بلغراد، ذات الموقع الحصين. ولم تكن تلك الخسائر حاسمه، وعوضت الخسارة في الحرب ضد البنادقة، التي بدأت عام ١٧١٤ م (١١٢٦ هـ)، باسترداد موره، التي تم التنازل عنها إلى البندقية في معاهدة كارلوڤتش.

وتحققت بعض النجاحات العثمانية في الحرب ضد روسيا والنمسا عام

(١١) الأمير أوجين النمساوي: ولد عام ١٦٦٣ م (١٠٧٤ هـ) في باريز. جنرال عسكري يعد من أشهر رجال عصره. كان له التأثير القوي على بعض من أتوا بعده أمثال فردريك الثاني الكبير ونابليون. خاض معاركه الأولى أثناء فك الحصار العثماني عن ڤيينا عام ١٦٨٣ م (١٠٩٤ هـ) طارت شهرته إثر تسع معارك عسكرية خاضها وبعد انتصاره في (زميتا) على العثمانيين جرح ثلاث عشرة مرة وكانت معركة بلغراد أهم انتصاراته. توفي في نيسان عام ١٧٣٦ (١١٤٩) بڤيينا.

١٧٣٦ ـ ١٧٣٩ م. أما فرنسا فكانت هي الدولة الوحيدة، في النصف الأول من القرن الثامن عشر، التي لها مصالح سياسية وهامة في الشرق.

واستمر ازدهار التجارة البريطانية حتى عام ١٧٣٠ م (١١٤٣ هـ) ثم انحطت. ولكن السفير البريطاني في استانبول، ظل كما كان في الماضي، ممثلاً لشركة الشرق، كما هو ممثل لحكومة صاحبة الجلالة.

واعتبرت اسبانيا نفسها، العدو التقليدي لتركيا وللإسلام في البحر الأبيض المتوسط، فلم تقم بينها وبين الدولة العثمانية أية علاقات ديبلوماسية. ولم توقع أية معاهدة بين البلدين، إلّا في عام ١٧٨٣ م (الموافق (١١٨٧ هـ).

وحاولت فرنسا، كما فعلت في الماضي، أن تجرد موارد آل هبسبورغ عن القضايا السياسية في أوروبا الغربية، بإجبارها الدفاع عن نفسها ضد العثمانيين في البلقان. وتمتع النفوذ الفرنسي بمكانة مرموقة في العاصمة العثمانية. ونجح الفرنسيون في تجديد الإمتيازات الأجنبية التجارية وغير التجارية. وهي الامتيازات التي خولت لأول مرة من قبل سليمان القانوني في القرن السادس عشر الميلادي.

ثم تكشفت الأمور عن حقيقتها. وتوترت العلاقات العثمانية الفرنسية. وتعرضت لصدمة قاتلة عام ١٧٥٦ م (١١٦٩ هـ). فمعاهدة فرساي، أجْبرت الدول المتعاقدة في مايس عام ١٧٥٦ م، على نجدة بعضها البعض ضد أي هجوم. وكانت هذه بنظر الفرنسيين موجهة ضد بريطانيا، وبالتالي تطلب نص المعاهدة، أن تأتي فرنسا لنجدة النمسا، إذا تعرضت لهجوم عثماني، في الحدود الجنوبية لممتلكات أسرة هبسبورغ، رغم الصداقة العثمانية الفرنسية التقليدية.

وفهم الباب العالي ما يلوح بالخفاء وأدرك الأمور. وتعرضت العلاقات العثمانية الفرنسية لشكوك جديدة بعد التصرف الفرنسي، ولكن برود العلاقات الروسية الفرنسية، إثر تسنم (كاترينا الثانية)[١٢] العرش الروسي،

(١٢) كاترينا الثانية: امبراطورة روسيا الألمانية الأصل. ولدت في بولندا. قادت روسيا إلى حلبة =



مهد الطريق لتجديد الصداقة العثمانية الفرنسية. وارتبط الطرفان بخوف مشترك من الروس، انطلاقاً من عام ١٧٦٢ م الموافق (١١٧٦ هـ).

وقامت فرنسا بتعزيز قوة الجيش العثماني، وتجهيز المدربين والفنيين، ولكن بتعاون شكلي وظاهري وقليل، دون إبراز مقدرة فعالة لدى الجيش العثماني الذي يواجه الأعداء الروس. والجدير بالذكر أن هذا الأمر لا تزال تقوم به الدول الكبرى إزاء البلاد الإسلامية حتى وقتنا الحاضر. فهي تتظاهر بتجهيز جيوشها بالأسلحة، لكن دون تمكينهم من تحقيق نصر مؤزر ولا حتى دفاع مشروع.

وهكذا تزعزع الإيمان العثماني بالتحالف الفرنسي، عندما لم يعارض الفرنسيون دخول الأسطول الروسي البحر الأبيض المتوسط عام ١٧٧٠ م (١١٨٤ هـ). وأدرك العثمانيون اللعبة وكانوا أوعى بكثير من بعض حكام بلدان المسلمين هذه الأيام رغم تردي أوضاعهم. وازداد النفوذ الروسي في بلاد الشرق. وازدادت المكائد الروسية، بفضل القناصل التي اقامتها كاترينا عام ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ)، ولعقدها الصلات مع بعض صغار الزعماء المحليين ورجال الدين المسيحي. وازداد تحقيق المكاسب في القرم، وممارسة الضغط على الحدود القوقازية، والحدود الأوروبية العثمانية. وأنشأوا قواعد أسطول عظيم في البحر الأسود.

وأعود للتحدث عن الدور الصليبي الأوروبي المتزايد في الولايات البلقانية العثمانية. فبعد انقضاء عهد السلطان سليمان القانوني، تسلم زمام السلطة ابنه سليم الثاني، بعد تواطؤ تم داخل القصر اشتركت فيه زوجته اليهودية الأصل أم ابنه سليم. واستغل اليهود الأوضاع الجديدة. وابتدأ التأثير على السلطان الجديد. ومنحت الامتيازات للأجانب، وتقاعس السلطان عن

= الصراع السياسي والثقافي الأوروبي. انفصلت عن زوجها الشهواني الدوق الألماني «كارل أورليخ». وتوصلت إلى الحكم عن طريق عشيقها الجديد الجنرال «غريغوري أورلوف» ثم اغتالته فيما بعد. الحقت في عهدها بلاد القرم بالدولة الروسية.

قيادة الجيوش بنفسه خلافاً لما اتبع من قبل أجداده.

وابتدأ الداء العضال ينخر في جسم الدولة المترامية الأطراف. وتحفز الأعداء كي ينتقموا لبيزنطة والولايات الأوروبية البلقانية والقسطنطينية. فالبلقان اليوم بأكملها تظلها راية المسلمين دون إكراه على اعتناق العقيدة الجديدة، ودون اضطهاد.

واستغلت مبادىء حرية الإعتقاد، التي منحت لأقوام البلقان من قبل الفاتحين المسلمين، وسخرت لإثارة النعرات وإذكاء روح التفرقة. ولكنهم فشلوا إلى حد كبير. ولم تتمكن البابوية من ايقاف سيل الوافدين الجدد على اعتناق عقيدة الإسلام من أبناء البلقان وقد شعروا بالنقلة البعيدة الخطيرة في حوزة الدين الجديد.

وجاءت نقطة البدء طبقاً للمعطيات السابقة عندما فشل حصار ڤيينا الأخير عام ١٦٨٢ م (١٠٩٣ هـ). فرمزت إلى التحول الأوروبي الجديد، وبداية حملة تسديد ضربات جديدة إلى الدولة العثمانية الآخذة بالإنحطاط. وبلغت تلك الضربات منتهى قوتها في الاجتياح الروسي على الصعيد العسكري، والثورة الفرنسية وملابساتها على الصعيد الفكري. ولكننا سنبدأ بتناول آثار فشل حصار ڤيينا.

### ٤ ـ فشل حصار ڤيينا:

على الرغم من تحول المشكلات الداخلية، إلى مشكلات مزمنة أو حادة، فإن الأوضاع العثمانية البلقانية، بقيت سليمة على الصعيد الداخلي، وبلاد الدولة في أوروبا البلقانية لم تمس بأدنى سوء حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي.

وفي النصف الثاني من ذلك القرن، شن الأوروبيون هجومهم الضخم والأخير ضد الدولة العثمانية. وخسر الباب العالي ممتلكات في اوكرانيا، ولكن



نقطة التحول الكبرى كانت فشل حصار ڤيينا، وهو الذي شكل النكسة الكبيرة، وتحركت إثره الأطماع الأوروبية الصليبية من جديد. وانتظم الصليبيون في تحالف جدي، شمل كلاً من روسيا وبولونيا والبندقية والنمسا.

جرى حصار ڤيينا لأول مرة، بعد إعادة الملك «زابولي»[١٣] إلى عرش المجر بمساعدة الجيوش العثمانية عام ١٥٣٢ م (٩٣٨ هـ). وتوجه السلطان بعد هذا التنصيب مباشرة بصحبته نحو تلك المدينة. ووضع سليمان الحصار عليها. وسلط مدافعه على أسوارها. وعادت الجنود العثمانية بعد اقتحام الأسوار دون إنجاز الفتح لنفاذ الذخيرة وحلول الشتاء. ومن هناك عاد الجيش إلى (بوادبست) و (استانبول).

وفي ١٩ رمضان عام ٩٣٨ هـ، الموافق ٢٥ نيسان عام ١٥٣٢ م، عاود سليمان الكرة ماراً ببلغراد ونيش. ولكنه لم يحاصرها ومال إلى جهة اليسار عند اقترابه منها قاصداً إقليم «استيريا». ثم عاد إلى بلغراد لاقتراب الشتاء من جهة، ولوصول أنباء استعدادات شارلكان إلى مسامعه من جهة أخرى.

وفي الإتفاق الذي جرى، بين الدولة العثمانية وفرنسا، طبقاً للتحالف القائم بينهما، تقرر أن تجعل الدولة العثمانية وجهتها في الحروب بلاد نابولي وجزيرة صقلية واسبانيا عوضاً عن جهة النمسا التي تدعمها الإمارات والممالك الألمانية. وحال هياج الرأي العام الأوروبي دون «فرانسوا الأول»[١٤] وهذا التحالف.

وظهرت خيانة «زابولي» قبل أن يتوفى بقليل. وأغارت النمسا على المجر منتهزة الفرصة واحتلت بعض المواقع. فقصد السلطان بلاد المجر ووصل بودابست، فرفع النمساويون الحصار.

---

(١٣) الملك زابولي هو جون زالوبلي الذي حكم من عام ١٥٢٨ ـ ١٥٤٠ (٩٣٤ ـ ٩٤٧ هـ) كأمير لترانسلڤانيا المناوىء لأسرة هبسبورغ. فرض السلطان سليمان الحماية على بلاده مقابل استمرار الإدارة الوطنية والدفاع العسكري المحلي.

(١٤) فرانسوا الأول: امبراطور فرنسا.

وتألبت القوى الصليبية العالمية إثر فشل حصار ڤيينا، ضد المسلمين من جديد. وأثارت صيحات البابا دول وشعوب أوروبا. وتراجع المسلمون عن المرتفعات التي تحصنوا بها، واستمر القتال طيلة النهار. وانهزم (قره مصطفى)[١٥] وجيوشه وأخلى المواقع متقهقراً تجاه بودابست. وتعقبهم «سوبيسكي»[١٦] البولوني، وهو يعمل القتل في صفوفهم حتى أجرى الدماء أنهاراً. وصدرت الأوامر من السلطان محمد الرابع[١٧]، بقتل الصدر الأعظم قره مصطفى لفشله. وفاز النصارى بڤيينا. وتشكل التحالف المقدس كما ذكرت، بين النمسا وبولونيا والبندقية، ورهبان مالطا والبابا ومملكة روسيا في وجه الدولة العثمانية، في محاولة منهم لمحوها من العالم. وزاد الأمر ارتباكاً،

---

(١٥) قره مصطفى: ولد في (مرجيفون) في الأناضول عام ١٦٣٤ (١٠٧٤ هـ). تولى الصدارة العثمانية من عام ١٦٦١ - ١٦٨٣م (١٠٧١ - ١٠٩٤ هـ) حيث قاد في عام ١٦٨٣ الحصار غير الموفق على ڤيينا. خدم ضابطاً في الأسطول ووزيراً في مجلس الدولة. ثم وكيلاً للصدر الأعظم. قاد حملة غير ناجحة ضد بولندا وروسيا ثم تحرك ضد النمسا وحاصرها ثم هزم من قبل التحالف النمساوي البولوني.

(١٦) سوبيسكي البولوني: ولد عام ١٦٢٩ م (١٠٣٨ هـ) في أوليسكو ببولندا. وتوفي في حزيران عام ١٦٩٦ م (١٠٨٠ هـ) وهو جون الثالث أحد ملوك لتوانيا البولنديين المنتخبين. كان له دور كبير في الدفاع عن ڤيينا ضد العثمانيين عام ١٦٨٣ م (١٠٧٠ هـ). اشترك في صباه في الحروب السويدية البولونية ثم عين مارشالاً أكبر وقائد مشاة للجيش وهزم التتار والقوزاق. ثم عين رئيس أركان. وتحققت أمنيته بعد موت الملك مخائيل وأمنية زوجته بأن تراه ملكاً. انتصر على العثمانيين وانتخب ملكاً بعدها. وفشلت محاولته مدّ نفوذه إلى البحر الأسود.

(١٧) السلطان محمد الرابع. وهو ما يعرف باسم «أوجي» أو الصياد. ولد عام ١٦٤٢ م (١٠٥٢ هـ) وتوفي عام ١٦٩٣ م (١١٠٤ هـ). نصب سلطاناً في الدولة العثمانية وهو ابن سبع سنين. وخضعت الدولة في بداية حكمه لنفوذ بعض الرجال البارزين في القصر. تحاربت في عهده الإنكشارية والسباه. وربحت الدولة العثمانية الحرب ضد روسيا عام ١٦٥٩ م (١١٠٠ هـ) حيث كان كوبرولّي محمد باشا في منصب الصدارة. ثم بدأت الحرب مع الألمان وحوصرت بعض المواقع وتحقق نصر سرنوار وخضعت كامل كريت للدولة العثمانية وفي عهده حوصرت ڤيينا للمرة الثانية وخسر العثمانيون معركة ألمان داغي وتحفزت أوروبا.



قطع العلاقات بين الباب العالي وفرنسا بسبب المناوشات بين سفنها وفدائيي البحر من المغاربة المسلمين.

وهددت جيوش التحالف المقدس، كلاً من البغدان وبلاد الموره وسواحل اليونان، وتمكنت جيوش البنادقة من احتلال معظم مدن اليونان. كما أغارت النمسا على المجر عام ١٦٨٦ م. وكانت النمسا قد احتلت قبل عام، عدة حصون وقلاع شهيرة، مثل قلعة (نوهزل) وهكذا تمكن الجيش النمساوي من السيطرة على بودابست، بالتعاون بينه وبين حلفائه. ولم تمض أكثر من سنة، حتى حدثت الهزيمة الشنيعة في (موهاكس)[١٨] واحتل العدو إقليم (ترانسلڤانيا)، وعدة قلاع من (كرواسيا).

وعُزل السلطان محمد الرابع نتيجة لذلك. وحاول السلطان مصطفى الثاني[١٩]، المتصف بالشجاعة، الإغارة على بلاد المجر. وتمت الحملة، وفتح أحد الحصون «حصن لبا» وهزم الجنرال «فتراني» في موقعة «لوغوس». وقتل

---

(١٨) موهاكس: تقع مدينة موهاكس جنوب ووسط المجر على نهر الدانوب. وفي ٢٩ آب عام ١٥٢٦ م (٩٣٢ هـ) هزم العثمانيون المجر وفتح المجال أمام التقدم العثماني. واستفاد السلطان سليمان القانوني عام ١٥٢١ م (٩٥٧ هـ) من الإنحطاط الإقتصادي والعسكري والسياسي أثناء حكم فلاديسلاف وغيره. وطالب بالجزية. وعندما رفض الحاكم «لويس» تأديتها، تقدم الأتراك نحو المجر وحاصروا قلعتي (ساباج) و (بلغراد). ثم اوقفوا التقدم ثم استأنفوه في تموز عام ١٥٢٦ م (٩٦٢ هـ). وعندما تقدم لويس على رأس قوة ليلاقي العثمانيين في بودابست هاجمه سليمان في موهاكس وأباد قوته وقتله.

(١٩) السلطان مصطفى الثاني: حكم هذا السلطان العثماني من عام ١٦٩٥ - ١٧٠٣م (١١٠٦ - ١١١٥ هـ). وتوفي عام ١٧٠٤ م. وبعد توليه العرش مباشرة قال في بيان أصدره: «لقد حرمنا المتعة والراحة على أنفسنا» وقال في رسالة لأحد وزرائه «لا أريد كنوزاً ولا أجهزة. إني آكل الخبز اليابس وأبذل روحي عن رضى من أجل الدين. وأتحمل كل أنواع المشقة. إنني لن أدعو للتعبئة حتى أوفر خدمات شعبي كاملة. وأريد بالتحديد أن أشترك شخصياً بالمعارك المقبلة...» وقعت في عهده هزيمة زينتا الشهيرة في التاريخ حيث استشهد ٣٠ ألف جندي عثماني. وفي عهده أعيدت جزيرة ساقز وتحققت بعض الانتصارات البحرية وخاصة نصر لوغوس وأولاش.

ستة آلاف جندي من جيشه، كما انتصر السلطان على النمساويين.

ولجأ العدو إلى استعمال عنصر المفاجأة ضد العثمانيين الذين كانوا يعبرون نهر «التيس» وتمكن من قتل عدد كبير منهم، ومن بينهم الصدر الأعظم «الماس محمد باشا»، وغرقت الأعداد الكبيرة من الجند في النهر. ولولا وجود السلطان على الضفة الأخرى، لسقط في أيديهم عام ١٦٩٧ م الموافق (١١٠٨ هـ).

ووجهت النمسا أمهر قوادها إلى ساحة القتال بقيادة الأمير «أوجين دي ساڤوا»[٢٠]، فحقق انتصاراً على العثمانيين يوم ١٥ آب عام ١٧١٦ م (١١٢٨ هـ). وقتل الصدر الأعظم. واحتلت النمسا مدينة «تمسوار»[٢١] بعد حصار دام ٤٤ يوماً. ودخلت بلغراد في ١٩ آب عام ١٧١٧. ثم ابتدأت المفاوضات، واتفق الطرفان في ٢٢ شعبان عام ١١٣٠ هـ الموافق ٢١ تموز عام ١٧١٨ م، على أن تحتل النمسا ولاية تمسوار، ومدينة بلغراد، وقسم كبير من صربيا، وآخر من الفلاخ، وأن تستمر جمهورية البندقية باحتلالها ثغور شواطيء دالماسيا وأن تسترجع الدولة العثمانية الموره.

وعدّلت المعاهدة بطلب من الروس، بحيث يسمح لتجارهم المرور في

---

(٢٠) أوجين دي ساڤوا: هو الأمير الذي تكلمنا عنه قبل قليل والمهم هنا إعطاء لمحة عن معركة (زنتا). ففي ١١ أيلول من عام ١٦٩٧ م (١١٠٩ هـ) انتصر النمساويون على العثمانيين في جهات هذه البلدة التي تقع اليوم في يوغوسلاڤيا على ضفة نهر التيس أثناء حرب عام ١٦٨٣ - ١٦٩٩م (١٠٩٤ - ١١١١هـ). بين الدولة العثمانية والعصبة المقدسة. وبعدها برزت النمسا القوة الرائدة في وسط أوروبا. وكان الجيش العثماني يقوده السلطان مصطفى الثاني وقد تغلب عليه الأمير النمساوي أوجين عندما كان العثمانيون يعبرون نهر التيس. ودب الذعر في صفوفهم. وقتل الصدر الأعظم في المعركة من قبل الإنكشارية المتمردة. وفقد العثمانيون كافة مدافعهم وصندوق الكنوز لصالح النمسا. وجابه السلطان مصطفى الثاني تخاذل حلفائه الفرنسيين وتخليهم عن الوعد بمساعدته وفقد آزوف للروس عام ١٦٩٦ م (١١٠٨ هـ. ثم اجبر على توقيع معاهدة كارلوڤتش.

(٢١) تقع مدينة تمسوار غربي رومانيا قرب الحدود اليوغوسلاڤية إلى الشمال الشرقي من بلغراد.



أراضي الدولة العثمانية، وبيع سلعهم، والسماح لحجاجهم التوجه نحو الأراضي المقدسة والأماكن النصرانية الأخرى، دون دفع رسوم مدة إقامتهم. وتعهد الروس والعثمانيون، بمنع نفوذ ملك بولونيا المنتخب على نفوذ الأعيان، وأن لا يجعل منصبه وراثياً.

وبذلك كان الروس هم الحاصل على الورقة الرابحة. وحصل بطرس على تحقيق هدفه بالإيقاع بين الدولة العثمانية وبولونيا، وبتمزيق محور السويد - بولونيا - الدولة العثمانية. وكانت أكبر الأراضي التي خسرتها الدولة في القرن التالي بسبب الروس وهذا ما سنتحدث عنه مسهباً في الصفحات القليلة المقبلة.

## ٥ - الإجتياح الروسي:

كان «إيڤان الثالث»[٢٢]، أول قيصر روسي يظهر أطماعه العدائية نحو القسطنطينية، بعد أن حرر نفسه من التتار عام ١٤٨٢ م (٧٨٧ هـ). ولكن التوغل الروسي في البلاد العثمانية لم يبدأ إلا في عهد بطرس الأكبر، في نهاية القرن السابع عشر. فهو أول زعيم روسي يسفر عن عدائه الشديد للعثمانيين.

ومهما قيل عن أصل مشروعه الشهير، فإن الإجماع يؤكد أنه تجسيد للأطماع الروسية. ولا بأس من إلقاء بعض الأضواء على نواياه.

كان بطرس الأكبر قد استهل أعماله المبيتة، بإرساله الدعاة إلى الفلاخ

---

(٢٢) ايڤان الثالث: وهو إيڤان ڤاسيليڤتش المولود في موسكو عام ١٤٤٠ م (٨٤٤ هـ) والذي قوّي ودعم السلطة الملكية وأرسى قواعد الدولة المركزية وجعل من إمارة موسكو قوة كبيرةاستهلت بحكم اوكرانيا واستخلاصها من البولنديين واللتيوانيين. وهو ابن الأمير ڤاسيل الثاني امير موسكو الكبير. ورث عرش والده بعد هياج وصخب مر به اثناء صباه لسوء طالع اصابه لنقمة والده عليه. ثم وسع حدوده وأخمد النزاع العائلي وقضى على مسلمي القبيلة الذهبية التتارية.

والبغدان، في محاولة تحريضية منه ضد الدولة العثمانية. وبالرجوع إلى وصيته، نقرأ في البند الخامس أن يصير الإتفاق مع النمسا، على طرد الأتراك من أوروبا. ولهذا الغرض، يجب تجهيز جيش بري دائم، وأن تقام داراً لصناعة السفن على شواطيء البحر الأسود، ويستمر التقدم نحو القسطنطينية.

ويوصي الروس في البند الحادي عشر، أن يجمعوا كلمة الأرثوذوكس تحت حمايتهم، سواء منهم المتواجدين في الدولة العثمانية أو المجر أو بولونيا. وبواسطتهم تثار الفتن والحروب ضد العثمانيين.

خطط بطرس الأكبر، بعد أن تولى السلطة، إلى سياسة تهدف إزالة الحواجز بين بلاده وبين الغرب. وبرأيه أنها ثلاث حواجز: السويد ـ بولونيا ـ الدولة العثمانية. وباستيلائه على كافة الولايات السويدية الفاصلة بينه وبين ألمانيا، تمكن من إزالة الحاجز الأول، وأزيل الحاجز الثاني تقريباً، بتعيين أحد أتباع الإمبراطورة «كاترينا» ملكاً على بولونيا. ولم يبق أمام روسيا سوى الدولة العثمانية، حيث تحول إمارات البلقان العثمانية بينه وبين أوروبا.

وعمل بطرس على احتلال بعض هذه الإمارات، وإشعال الفتنة والقلاقل في بعضها الآخر. وعندها لا يصل الروس إلى أوروبا فقط، بل إلى هدفهم القديم، مياه البحرين الأبيض والأسود الدافئة، فيخرجوا من عزلتهم، ويتصلوا بالهند.

هذا ما عنته وصية بطرس الأكبر. ومن خلال معاهدة «كينارجي»[٢٣]، وبعد سقوط الحاجزان السابقان، تفرغ الروس لهدم الجدار الثالث، جدار الدولة العثمانية، لجهل بعض الوزراء وتخلف الدولة وانتشار الرشوة والفساد لدى الآخرين.

---

(٢٣) وقعت معاهدة كينارجي عام ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ) في عهد السلطان مصطفى الثالث بين الدولة العثمانية وروسيا. وقضت باعتراف الدولة العثمانية بحرية بلاد القرم وسحب قواتها منها. وتعهد الروس بحماية النصارى في الدولة العثمانية وكفالة حرية الملاحة لهم.



وتقدم الروس بعد أن رفع «بلطجي محمد باشا» الصدر الأعظم، الحصار عن بطرس وعن خليلته، إثر معركة أحاط بها الجند العثمانيون، تحت إغراء المجوهرات والمال. وهكذا كانت الأقدار تخبىء. وابتلع الروس القرم وامتلكوا سواحل البحر الأسود الشمالية في غضون عام ١٧٧٣ م.

ولجأت فرنسا إلى الخبث، وحاولت إقناع العثمانيين، صرف أنظارهم عن استئناف الحرب مع الروس، متذرعة بحلول الدمار من جهة، ولاتفاق سري جرى بين كاترينا والإمبراطور يوسف الثاني[٢٤] في «كرزون» قضى بتشكيل دولة مستقلة تضم الأفلاق والبغدان وإقليم بسارابيا وتسمى مملكة «داسي» الإسم التاريخي الذي مر ذكره معنا. وبذا تقف هذه المملكة حاجزاً بين العثمانيين والدولتين.

وطبقاً لهذا الإتفاق عين ملك لهذه الدولة ارثوذوكسي المذهب. واحتفظ الروس بميناء «أوتشاكوف» وبعض جزر القرم. وبقيت البوسنه والهرسك وبلاد الصرب بيد النمسا. وجرى الترتيب على دخول الروس الآستانة بعد تحقيق النصر وإحياء مجد بيزنطة كما كانت قبل الفتح العثماني. واعترفت الدولة العثمانية بضم القرم لروسيا نزولاً عند رغبة فرنسا.

وبدأ الروس التحرش بالدولة العثمانية، وحصنوا «سباستيبول»[٢٥]. وأنشأوا عمارة بحرية من الطراز الأول. وأرسلوا الجواسيس إلى اليونان وولايتي الأفلاق والبغدان. وكتبت لافتة ترحيب بكاترينا، عند جولة قامت بها في بلاد القرم تقول: «هنا طريق بيزنطة» إفصاحاً عن نوايا الروس المبينة.

---

(٢٤) الامبراطور يوسف الثاني: ولد في آذار من عام ١٧٤١م (١١٥٤ هـ) في فيينا وتوفي في شباط عام ١٧٩٠ م. وهو أحد مشاهير السياسة في القرن الثامن عشر الذي عمل على تحديث امبراطورية هبسبورغ. تحكمت أمه بحياته المبكرة وهي ماريا تيريزا. رقي إلى العرش عام ١٧٦٥ م (١١٧٩ هـ). واستأنف اصلاحات أمه مثل القانون المدني. خطط لتقسيم بولونيا وإلحاق بوكوڤينا. عانى من السخط والاستياء في المجر وغيرها.

(٢٥) سباستيبول: مدينة تقع جنوب شبه جزيرة القرم على ساحل البحر الأسود.

واشتد الخطر الروسي في عهد «كاترينا الثانية» على الدولة العثمانية. وجرى اتفاق بين القيصرة الروسية، والإمبراطور النمساوي «يوسف الثاني»، يقضي بتقسيم الدولة العثمانية. واقترح الروس إقامة اتحاد بين النمسا وروسيا وبروسيا، من أجل تحقيق أهدافهم العدوانية. ولكن النمسا خشيت سقوط الدولة العثمانية بصورة نهائية لاستفحال أمر السلاف.

ومني الروس بهزيمة شنيعة أمام مدينتي «روستجوق»[٢٦] و«سلستريا»[٢٧] عام ١٧٧٣ م. وتكبدوا ثمانية آلاف قبيل بأيدي الجندالعثمانية. وتحفزوا من جديد للانتقام لشرفهم الممرغ إثر التقهقر الذي حل بهم. وانتهت الحرب ووقعت معاهدة قرب «قوزليجق» وهي معاهدة «كينارجه».

ونال الروس امنياتهم، فأذلوا السويد، وطمسوا آثار بولونيا. وبذلك اسقطوا الحاجزان الكبيران وتفرغوا للجدار العثماني.

ثم عاد التحالف النمساوي الروسي للظهور مرة أخرى. وتشكل حلف عسكري بين الدولتين ضد العثمانيين. وتمكن الروس من احتلال مدينة «بندر» ومعظم الفلاخ والبغدان وبسارابيا. واحتلت النمسا الصرب. ثم تفرغ الطرفاذ لكبح جماح الثورة الفرنسية.

وتوسطت بعض الدول، فوقعت معاهدة «ستووا»، فأعادت للدولة العثمانية بعض اعتباراتها، وتصالح الباب العالي والنمسا.

والتقت كاترينا مع يوسف الثاني في ٣٠ مايس عام ١٧٨٠ م (١١٨٤ هـ)، واتفقا على إسقاط الدولة العثمانية، وإعادة الجمهوريات اليونانية القديمة. ولكن الثمرة التي غرسها الروس لم تكن لهم آنذاك. وأعادت كاترينا سعيها الحثيث لدى الامبراطور النمساوي في إتمام مشروع التقسيم. وكان الامبراطور لا يزال يتردد لشدة معارضة فرنسا. وأجاب الامبراطور على

(٢٦، ٢٧) روستجوق وسلستريا: مدينتان تقعان اليوم شمالي غربي بلغاريا على الحدود البلغارية الرومانية.



مذكرة بأنه لا يمكن منع الحرب بين روسيا والدولة العثمانية. وبذا فإنه لا يمكنه، وحفظاً لسلامة بلاده حالياً ومستقبلاً، أن يشاهد مجرى الحوادث من بعيد. واضطر الباب العالي عقد معاهدة مع الروس، تخلى بموجبها عن شبه جزيرة القرم في ٨ كانون الثاني عام ١١٧٨٤ م الموافق (١١٨٨ هـ).

وعقد صلح بين الأتراك والنمسا، ولم يقبل الروس بهذا الصلح، واجتاحوا معظم إمارتي الأفلاق والبغدان وبسارابيا، بعد أن احتلوا مدينة بندر الحصينة. وتشكل تحالف روسي نمساوي، وجرت مباشرة الأعمال العسكرية في ٣١ تموز و٢٢ أيلول عام ١٧٨٩ م الموافق (١٢٠٣ هـ).

واستولى الروس على مدينة «إسماعيل» عام ١٧٩٠ م وارتكبوا أفظع الأعمال الوحشية، وقتلوا النساء والأطفال.

وتوسط الإنكليز والهولنديون، فوقعت معاهدة «ياشي»[٢٨]. وبعد أن توفي

(٢٨) تقع مدينة ياشي شمالي غرب رومانيا قرب الحدود الروسية. وكانت عاصمة بلاد البغدان.
وكانت الدولة العثمانية في المدة الواقعة بين حصار ڤيينا الثاني عام ١٦٨٣ م (١٠٩٤ هـ) ومعاهدة ياشي عام ١٧٩٢ م (١٢٠٦ هـ) في حالة حروب مستمرة دامت أكثر من أربعين سنة مع الصليبيين.
ومن عام ١٦٨٣م (١٠٩٤ هـ) حتى عام ١٦٩٩ م (١١١١ هـ) حاربت جيوش العصبة المقدسة والتي انتهت بمعاهدة كارلوڤتش عام ١٦٩٩ م (١١١١ هـ). ومن عام ١٧١٠ - ١٧١١ م (١١٢٢ - ١١٢٣ هـ) حاربت روسيا مرة أخرى واسترجعت بعض ما فقدته بموجب معاهدة البروت الموقعة عام ١٧١١م.
وكانت الحرب مع البندقية والنمسا ١٧١٤ - ١٧١٨ م (١١٢٦ - ١١٣٠ هـ) قد انتهيت بتوقيع معاهدة بساروڤتش عام ١٧١٨ م (١١٣٠ هـ). ومن عام ١٧٣٦ م (١١٤٩ هـ) حتى عام ١٧٣٩ م (١١٥٢ هـ) وقعت ثلاث حروب بين الدولة العثمانية وروسيا والنمسا انتهت بمعاهدة بلغراد لعام ١٧٣٩ م (١١٥٢ هـ) ومن عام ١٧٦٨ - ١٧٧٤ م (١١٨٢ - ١١٨٨هـ) وقعت معاهدة كوجوك كينارجي. ومن عام ١٧٨٧ - ١٧٩٢م (١٢٠١ - ١٢٠٦هـ) وقعت معاهدة باشي لعام ١٧٩٢ م ١٠٢٦ م. والخلاصة أن الدولة فقدت أثناء ذلك المجر وتمسوار وترانسلڤانيا وبوكوڤينا في اوروبا وتخلت لصالح الروس عن كافة ممتلكاتها الواقعة على الشاطيء الشمالي من البحر الأسود ابتداء من الإمارات حتى القوقاز بما فيها بسارابيا، بودوليا والقرم.

الإمبراطور النمساوي، انشغل خلفه بالثورة الفرنسية خوفاً منها، وبادر لعقد صلح مع العثمانيين في ٢٢ ذي الحجة عام ١٢٠٥هـ الموافق ١٤ آب عام ١٧٩١ م في مدينة «ستووا» وردّت النمسا بلاد الصرب وبلغراد وجميع ما احتلته تقريباً.

واستمر الروس في عدائهم التقليدي للباب العالي. ولجأوا إلى إثارة النعرات والتمردات المحلية في البلقان، وأشعلوا نار العصيان والثورة. وهاجر قسم كبير من سكان البلقان نتيجة الحرب الأخيرة والأوضاع الداخلية المزرية ميممين وجوههم شطر المجر. وانتظموا في سلك الخدمة العسكرية النمساوية، ضمن مخطط للإرتداد على السلطة العثمانية. وعندما وضعت الحرب أوزارها، عادوا إلى بلادهم وهم أكثر اتقاناً لفن القتال والنزال، وقد شحنت عقولهم بالمبادىء الجديدة المستوردة. واستأنف الروس إعمالهم العدائية. وشنوا حرباً جديدة ضد الباب العالي. ولكن العثمانيين هزموا، واحتل الروس اسماعيل وسلسترية وروستجوق ونيكوبلي وبازارجق بين عامي ١٨٠٩ ـ ١٨١٠ م (١٢٢٤ ـ ١٢٢٥ هـ). وعاود العثمانيون الكرّة من جديد بعد عام واحد فقط، وأجبروا الروس إخلاء «روستجوق» مكرهين، ولكنهم عادوا فاحتلوها.

وأجبرت سحب الخطر التي خيمت فوق روسيا من جراء ظهور نابليون، الحكام الروس على إبرام صلح مع الباب العالي. فمعاهدة «تلسيت»[٢٩] مع نابليون لم تنفذ. ووقعت معاهدة بخارست عام ١٨١٢ م (١٢٢٧ هـ) حيث تمكن الروس من إلحاق الهزيمة بالمغامر الفرنسي.

وهكذا تمكن الإجتياح الروسي، من ابتلاع الأجزاء المتلاحقة من بلاد البلقان شيئاً فشيئاً، وأخضعها لنير العبودية القيصرية. وفي هذه المناسبة يقول أحد قناصل فرنسا في إزمير، أنه إذا ما تقدم الروس صوب البلاد العثمانية

---

(٢٩) معاهدة تلسيت. تقع بلدة تلسيت شرقي روسيا على نهر نيمان الذي يفصل روسيا عن بروسيا. واجتمع فيها نابليون الأول واسكندر الأول قيصر روسيا واتفقا على تقسيم أوروبا واختلفا عند بحثهما مصير الآستانة فكل فريق كان يريدها.



البلقانية، ودخلت هذه في حوزتهم، جاء وقت تأسف فيه المسيحيون الذين في هذه البلدان، على الحرية التي يتمتعون بها في ظل الترك، وذلك بما سيقاسونه من فظائع الاستعباد الروسي، الذي يعرفه جميع الشعوب التي دخلت تحت حكم الروسيا، ويصف المسامحات العظيمة، التي يتمتع بها النصارى في ظل سلاطين آل عثمان، ويذكر الإمتيازات المعطاة للأجانب، بما لا يمكن أن تعطيه دولة أخرى.

ويقول «دولاتور» أيضاً، عام ١٧٨٨ م (١٢٠٢ هـ)، بأن الأتراك لم يكونوا معتدين، وأن سلطنة الروسيا، أصبحت واسعة جداً، وأنه ليس يكون إصلاحاً لحال المسيحيين الذين تحت حكم تركيا، إدخالهم تحت حكم روسيا.

وفي الوثائق السرية، التي نشرت من قبل وزارة الخارجية الإنكليزية عام ١٨٥٤ م (١٢٧٠ هـ)، اقترح الإمبراطور الروسي «نيقولا الأول»[٣٠] على انكلترا، اقتسام الدولة العثمانية. وقال الإمبراطور للسفير الإنكليزي السير «هاملتون» ما يلي: «تأمل. نحن بين أيدينا رجل مريض، ومريض جداً. ويكوَن بالفعل وبالاً علينا، إن خرج أمره من أيدينا» ويقول القيصر في موضع آخر: إن تركيا هي على مقربة منا، وإن فيها عدة ملايين من المسيحيين. من وظيفتي السهر على مصالحهم، وبيدي معاهدات لم تعطني هذا الحق. ويخاطب القيصر السفير الإنكليزي قائلاً: تكون الفلاخ والبغدان مملكة تحت حمايتي. وتكون صربيا حكومة مثلها أيضاً. وتكون بلغاريا أيضاً من هذا النمط، إذ لا مانع يمنع من استقلالها.

وهكذا كان يجري التفاهم بين الدول المعادية للمسلمين فيما سبق، كما

---

(٣٠) نيقولا الأول: وهو امبراطور روسيا المولود عام ١٧٩٦ م (١٢١١ هـ) في بوشكين في روسيا والمتوفي عام ١٨٥٥ م (١٢٧٢ هـ) في سان بطرسبورغ «لينينغراد». كان يهتم كثيراً في شؤونه الخاصة. تزوج الأميرة «كارلوكه» البروسية. وخاض قبل تسلم العرش عام ١٨١٥ م (١٢٣٠ هـ) عدة معارك عسكرية. حكم بصورة أوتوقراطية بيروقراطية عسكرية. انتهى حكمه بالهزيمة الروسية في حرب القرم.

يجري اليوم، ولكن في شكل آخر وأسلوب أشد مكراً وخداعاً في السر والعلن، فتعددت الصور مع دوران الزمن وإن كان المضمون واحداً.

## ٦ - دور الثورة الفرنسية:

ترجع الأطماع الفرنسية في الدولة العثمانية إلى ما قبل عهد الثورة. ومنذ عهد لويس الرابع عشر[٣١]، أراد الفرنسيون سلخ ولايتي الأفلاق والبغدان عن جسم الدولة وضمها إلى بولونيا. بحجة ردع الحظر العثماني المحدق بڤيينا. وترجع المشروعات الفرنسية التي وضعت بهدف اقتطاع القسطنطينية وأدرنه، إلى بداية القرن الثامن عشر وما قبله.

وفي مشروع وضعه الكاردينال الإيطالي الأصل «بروني» عام ١٧٣٦ م (١١٤٩ هـ) نقرأ خلاصة أفكاره السياسية. فعلى فرنسا وأسبانيا، دعم النمسا ضد العثمانيين أعداء النصرانية، حتى يتسنى للأخيرة باتفاق يبرم مع الروس، طرد الأتراك من أوروبا واسترجاع الأراضي المقدسة... ونقرأ له في مكان آخر، وجوب إلحاق البوسنه وصربيا ومكدونيا والأفلاق وغيرها من الولايات العثمانية، إلى الإمبراطورية الجرمانية، وأن تعطى بولونيا مكافأة لها بلاد البغدان. ويتجدد العداء الفرنسي العثماني في أواخر القرن الثامن عشر. وحتى الفلاسفة من أتباع الفكر الحر لم يخفوا صليبيتهم المغروسة في أعماق لا شعورهم. فهذا ڤولتير يدعو إلى نصرة الأروام. وكان قبله صحفي ومحام فرنسي اسمه «لنفه» قد حرر مشروعاً يرجع تاريخه إلى عام ١٧٧٦ م (١١٩٠ هـ)، يهدف إلى طرد الأتراك من أوروبا وإقامة توازن سياسي جديد.

---

(٣١) ولد لويس الرابع عشر عام ١٦٣٨ م (١٠٤٧ هـ) وتوفي عام ١٧١٥ م (١١٢٧ هـ). حكم فرنسا وهي تمر بأحد ادوارها المشرقة. كان رمزاً للملكية المطلقة في العصور الكلاسيكية. وهو ابن لويس الثالث عشر. تسلم الحكم بعد وفاة أبيه عام ١٦٤٣ حيث كان صغير السن. وتجلت قوته فيها بعد عندما وسع حدود فرنسا الشرقية وعادى التحالف الأوروبي وبنى قصر ڤرساي.



ويقول بأنه لا خطر يخشى على أوروبا إلّا من غارة تركية أو روسية.

ويشير الكاتب الفرنسي الشهير «ڤولناي» عام ١٧٨٦ م (١٢٠٠ هـ)، بوجوب انقراض الدولة العثمانية. وأن على فرنسا الإتفاق مع روسيا، وعدم معارضتها في نزع القسطنطينية من يد الأتراك. وأن يكون تاج القسطنطينية لامبراطور يوناني، وأن يكون له المورة والأرخبيل. وتؤول الأفلاق والبغدان لأيدي الروس.

وفي ٢٧ كانون ثاني من عام ١٨٠٧ م، كتب «تاليران» إلى سفير فرنسا في ڤيينا يقول: إن عقدة العقد كلها هي الدولة العثمانية.

وكتب تاليران أيضاً، بعد أن تسلم منصب الخارجية في عهد نابليون ولويس الثامن عشر مشيراً إلى منح الفلاخ والبغدان وبسارابيا وشمالي بلغاريا للنمسا، منعاً لامتداد روسيا صوب أوروبا. وقال لبونابرت: بعد أن تهزم جيوش النمسا في معركة فاصلة، يكون من باب الجزم أن تقول للنمسا احتلي الفلاخ والبغدان وبسارابيا، وأنا أحمل الباب العالي على تخليتها لك. وإن عارض الروس في ذلك كنت معك عليهم. ورأى تاليران أن اقتطاع اجزاء من الدولة العثمانية يزيدها قوة، ولذلك فقد أراد إعطاء الولايات الدانوبية لامبراطورية النمسا، وعقد معاهدة بينها وبين الباب العالي، يتعهد بها الإمبراطور المحافظة على سلامة الدولة العثمانية.

أما نابليون، فهو الذي قال في منفاه بجزيرة القديسة هيلانه: تذاكرت مراراً مع الروس، في أمر قسمة الدولة العثمانية، وكان ذلك ممكناً لولا القسطنطينية، التي كانت دائماً سبباً لمنع الإتفاق. فقد كان الروس يريدونها، وأنا لم أكن أرضى باستيلائهم عليها. فإن القسطنطينية وحدها مملكة. ومن ملك القسطنطينية أمكنه أن يسود كل الدنيا. وقال مرة أخرى: القسطنطينية مفتاح العالم. ولم يبد نابليون رأياً صريحاً حول الدولة العثمانية. فهو تارة يريد تقويتها ضد روسيا ومرة أخرى يبغي العكس. ولكنه كان دائماً يتزلف للإمبراطور الروسي «اسكندر الأول»[٣٢]، ويؤثر سياسة التقارب مع الروس.

وأبرمت ثلاث معاهدات عام ١٨٠٧ م (١٢٢٢ هـ). واتفق نابليون واسكندر الأول في معاهدة سرية نصت بنودها على اتفاق روسي فرنسي، إذا لم يقبل الباب العالي وساطة فرنسية لسلخ الولايات العثمانية الأوروبية.

وأرسل اسكندر الأول إلى الكونت «تولستوي» سفيره في باريز، يطلب بسارابيا والأفلاق والبغدان وقلاع واكرمان واسماعيل وهويتن، وجزءاً من الساحل الغربي للبحر الأسود، وأن تؤسس إمارة صربية.

وساوم نابليون القيصر على إخلاء الأفلاق والبغدان، مقابل جلاء فرنسي عن أراضي بروسيا، وتمسك نابليون بسيليزيا. واحتفظ بسرية موافقة نابليون امتلاك الروس للأفلاق والبغدان، التي جرت في اجتماعه مع القيصر في ٢٩ ايلول عام ١٨٠٨ م (١٢٢٣ هـ).

كان للحروب التي اشتعلت ذلك الحين، أثراً عميقاً على البلقان، للأوضاع الدولية الناجمة آنذاك، وللمسؤولية العقائدية التي تحملت تبعاتها الثورة الفرنسية بنفخها روحاً جديدة في شبه الجزيرة البلقانية.

وفي تلك الآونة شهد العالم نوعاً من السباق الفرنسي البريطاني، على الصعيدين السياسي والعسكري، في محاولة من كلتاهما السيطرة على البلاد العثمانية. وفجأة وجد الباب العالي نفسه، وهو في أشد أزماته الداخلية عنفاً يتعرض لهجوم فرنسي.

ولجأ الفرنسيون إلى احتلال الجزر الأيونية عام ١٧٩٧ م (١٢١٢ هـ). وحضّر نابليون بعد عام لشن هجوم على مصر وسوريا. وتحالفت الدولة العثمانية مع بريطانيا وروسيا عام ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ) حتى عام ١٨٠٢ م (١٢١٧ هـ) نظراً للظروف والملابسات الطارئة.

وانتقل الباب العالي، بعد اجتياز مدة من الاستقرار السلمي امتدت من عام ١٨٠٢ م (١٢١٧ هـ) وحتى ١٨٠٦ م (١٢٢١ هـ)، إلى عقد تحالف مع الفرنسيين ضد الروس. وأدى هذا التحالف إلى كارثة. فمعاهدة تلسيت كما



ذكرت وقعت في السنة التالية، وتفاهمت من خلالها فرنسا وروسيا. والجدير بالذكر أن هاتين الدولتين ناقشتا مشروع تقسيم الدولة العثمانية كما ألمحت، ولكنهم لم يكن باستطاعتهم التوصل إلى اتفاق حول مستقبل القسطنطينية أو مصيرها آنذاك.

وجابه الروس هجوماً فرنسياً وشيك الوقوع عام ١٨١٢ م (١٢٢٧ هـ). ولجأوا إلى توقيع معاهدة صلح مع الباب العالي الذي تخلى عن الأراضي البسارابية الرومانية للروس.

لم تتأثر شعوب البلقان بالحروب والمصادمات العسكرية التي وقعت فوق أراضيها، ولكنها عانت من المخططات والتدبيرات السياسية التي حاكتها القوى الكبرى آنذاك. وتأثر مستقبل المنطقة إلى أبعد الحدود بالتدخل الفرنسي فوق ربوع بلادهم عن طريق المؤسسات الثورية التي تحمل الأفكار والعقائد الجديدة التي جلبها حكام نابليون وولاته.

وتأسست حكومات دستورية على الطراز الغربي، فوق تراب الجزر الأيونية التي حكمتها فرنسا من عام ١٧٩٧ م (١٢١٢ هـ) حتى عام ١٧٩٩ م (١٢١٤ م) ومن عام ١٨٠٧ م (١٢٢٢ هـ) حتى عام ١٨١٤ م (١٢٣٠ هـ). فكانت حكومة «سبتنسولر» الحكومة اليونانية القومية الأولى في العصور الحديثة.

وتورط الفرنسيون في جنوبي بلاد السلاف. وأجبرت النمسا على التخلي مكرهة عن ممتلكاتها العثمانية عام ١٨٠٩ م (١٢٢٤ هـ) أو تشكيل كيان جديد يضم: دالماسيا، سلوفينيا، أستريا، تريستا وبعض أجزاء من كرواتيا. كما تشكلت المقاطعات الأليرية، وأصبحت جزءاً من الإمبراطورية الفرنسية، واستندت إلى المبادىء الثورية الفرنسية، أسوة بالجزر الأيونية. وعدّت هذه المقاطعات من بعض الوجوه، الدولة اليوغوسلافية الأولى، إذ ضمت بين جنبيها، الصرب والكروات والسلوفين.

وجرت في تلك الآونة، تغييرات هامة في كل من الأفلاق والبغدان

والصرب. واضطر العثمانيون قبول النفوذ الروسي المتزايد في الإمارات الدانوبية. وأصبح من المتعذر طرد أية حاكم لهما، إلا بحصول الموافقة الروسية المسبقة. وهكذا ربحت روسيا في الحقيقة، نوعاً من الحماية الفعلية عليها، ولعبت دوراً مهماً في الأحداث التي جرت فيما بعد في صربيا.

وعادت الأوضاع السياسية والإقليمية الراهنة إلى ربوع البلقان بعد هزيمة نابليون عام ١٨١٥ م (١٢٣٠ هـ). واحتفظ الروس بالطبع بإقليم بسارابيا، كما وضعت الجزر الأيونية تحت الحماية البريطانية، واختفى من الوجود، الكيان السياسي الأليري. واستعادت النمسا أرضها السابقة، فضلاً عن اكتساب دالماسيًا. ولم يحضر العثمانيون مؤتمر ڤيينا الذي انعقد بعد الهزيمة الفرنسية، لكنهم احتفظوا بمعظم أراضيهم سليمة لم تمس بأدنى سوء. وجرى دعمها من قبل المحافظين خصوم نابليون، خوفاً من خطر آخر محدق ومرتقب.

زرعت الثورة الفرنسية ما تمخضت عنه من أفكار في مناطق شتى من العالم. وأثمرت هذه الأفكار في القرن التاسع عشر بعد أن صيغت في قالب عملي. وقد أغرى الروس والنمساويون، رعايا البلقان ووعدوهم بالدعم والمساعدة ضد العثمانيين. والغريب أن هاتين الدولتين، كانتا أشد الخصوم للخط الفكري الفرنسي الثوري، ومع ذلك فإن من مبادىء الأخلاق عندهم أن لا يرون ضيراً في تصديره إلى مناطق أخرى بهدف تخريبها. وأحفادهم اليوم يقومون بالفعلة ذاتها عندما يكافحون مبادىء معينة في بلادهم ولا يشجبون نشرها في بلاد غيرهم وخاصة في العالم الإسلامي. ومن مسرح الأحداث التي جرت في تلك الآونة، يتبين للمراقب مدى الضعف العسكري العثماني. فها هي الأفواج المتتالية من أبناء القوميات البلقانية المتلاحقة تشترك في الحروب إلى جانب دول أوروبا، وتكتسب الأساليب العسكرية الحديثة وتتزود بما يلزمها من السلاح للمستقبل، أما أبوابها فلم توصد في يوم من الأيام في وجه التأثيرات الفكرية الأجنبية.



وأعدت العقائدية القومية والليبرالية الفرنسية برنامجاً مكثفاً للتحرك. وسمح لقادة البلقان، ليس التصدي فقط للسلطة الشرعية الحاكمة، بل دق إسفين يكرس العداء الفكري والثقافي والديني على أوسع نطاق.

نتيجة لما ذكرت أصبحت بلاد البلقان جاهزة للثورة، ولكن الوضع الدولي لم يأذن بعد في إعطاء إشارة الإنطلاق. فالدول كانت ترغب بالسلام قبل كل شيء بعد أن وضعت الحرب أوزارها. ونشدت الاستقرار السياسي والإجتماعي بعد القضاء على حكم نابليون. وسرت موجة مضادة للإتجاه الثوري والليبرالي. ومن هنا، كان على الرعايا البلقان، عدم توقع الدعم من وراء الحدود في ذلك الوقت حتى وإن كان معنوياً.

ثم التفت الأوروبيون إلى فريستهم. وأغراهم الوضع الخطير الذي تعانيه الدولة العثمانية، فالتحلل الداخلي، والضعف العسكري أنهك قواها. وسال لعابهم لهذا المغنم السمين والخصم العنيد القديم. وانشدّ انتباههم إلى اللعبة القديمة، لعبة اقتسام الأراضي العثمانية، والنظر في مصيرها، وسبل السيطرة عليها بعد مؤتمر ڤيينا. وكانت تلك المسألة التي دعوها بالمسألة الشرقية في الواقع، إفصاح واضح عن نواياهم الصليبية المقنّعة، التي كانت هي السبب الرئيسي المباشر للحربين اللتين نشبتا فيما بعد، أي حرب القرم، والحرب العالمية الأولى.

كانت المشكلة الكبرى التي شغلت بال أعداء الدولة العثمانية، كونها تقع بين ثلاث قارات من جهة، والمجابهة التي اعترضتهم في محاولة التغلب على عامل التاريخ من جهة أخرى. ثم الإرتباط الصميمي بين الشعوب البلقانية وأوروبا من خلال الكنيسة الأرثوذوكسية. ونال الروس حصة الأسد في تبوء قيادة حسم الأمور. ولعبوا الدور الفعال في المنطقة، في ظل أوضاع برز لهم فيها مناوئون جدد هم النمساويون والإنكليز.

ولم يكن من اليسير على آل هبسبورغ، السماح للروس فرض سيطرة سياسية في بلاد تحاذي أراضيهم، في حين انتاب الإنكليز الخوف من تهديد

محتمل لطرق مواصلاتهم التي تمر عبر شرقي المتوسط والتي تربطهم مع اجزاء امبراطوريتهم الأخرى، والسيطرة عليها وعلى بلاد الهند.

ووقفت روسيا أولاً موقفاً سلبياً، على الرغم من صلاتها الودية مع الشعوب البلقانية في ثوراتهم المتمردة. نظراً لمقتها الشديد للنشاط الثوري وبرامج الإصلاح الليبرالية مرحلياً وفق خطة مرسومة. وهكذا تمكنت الحروب الفرنسية من تحضير الشعوب البلقانية لمرحلة التمرد والعصيان. ولم يكن الوضع الداخلي مهيأً. وشهدت الخمسة والستون عاماً المقبلة، تشييد دعائم الإستقلال والحكم الذاتي. في معظم البلاد العثمانية البلقانية.

تبقى كلمة أخيرة حول الثورة الفرنسية. إن شعار هذه الثورة كما هو معروف هو شعار الماسونية «حرية»، مساواة، إخاء»، ولم يكن دور اليهود المحرك للأحداث من خلف الستار بخاف أو في عالم المجهول. فممولوهم ومخططوهم سعوا إلى إثقال البلاد الفرنسية بالديون. وتبدو الروح التلمودية في خطط هذه الثورة ودستورها الأخلاقي. فهي في حقيقتها تعد من أسباب شقاء العالم وتسحير شعوبه وإذلالها خدمة لليهودية العالمية. وتحويل العالم إلى مزرعة يهودية وبؤرة للفساد ونشر الدعارة والرذيلة والفجور.





# الباب السابع

## الحركات المضادة والثورات الانفصالية الأولى.

١ ـ الحركة المضادة في يوغوسلافيا وانتفاضة ميلوش.
٢ ـ الثورة اليونانية والصليبية العالمية وموقعة ناورون.
٣ ـ رومانيا في أوائل القرن التاسع عشر.
٤ ـ البلغار في أوائل القرن التاسع عشر.

## توطئة:

استمرت الدولة العثمانية في اعتمادها على الفصائل الإنكشارية القديمة حتى مستهل القرن الماضي. وكما ذكرت سابقاً، كان الانحطاط والتدهور في نظام الدولة، يرجع في جانب هام منه إلى تفسخ هذه الفصائل. وأمام هذا الواقع الأليم، حاول بعض السلاطين إرجاع الأحوال إلى نصابها. وبادر سليم الثالث[1] القيام بخطوة جرئية في طريق تحجيمها، والبدء في تشكيل قوات

---

(١) السلطان سليم الثالث: وهو ابن السلطان مصطفى الثالث. ولد في ٢٤ كانون الأول عام ١٧٦١م (١١٧٥) هـ. وحكم الدولة العثمانية ١٨ سنة. كان يجيد العربية والفارسية ويهتم بالأدب والخط.. امتاز بالحنكة السياسية البارعة. أقصي عن الحكم عام ١٨٠٧ م (١٢٢٢) هـ. ثم اغتيل بعد سنة وكان يبلغ من العمر ٤٦ سنة ولم يرزق بأولاد. كان شديد التدين وشديد الحرص على الوطن والشعب. ومما ينسب له بعض الشعر الذي قاله بعد احتلال الروس للقرم. وهذه ترجمة لبعض أبياته نقلاً عن اللغة الانكليزية:

هل لنا في هذه الحال أنسب من الصمود تحت ظلال السيوف؟

إنهم أكرهوا التتار على الإستسلام.

فهل نترك القرم ترزح تحت حكم روسيا؟

دعوني أثأر بنفسي من أولئك الروس.

دعوني أذهب إلى ساحة الوغي وأقتل شهيداً من أجل بلدي.

توفي رحمه الله في ٢٨ تموز عام ١٨٠٨ م.

جديدة. ونشب العداء. وانصبت معظم طاقته. وانصرفت غالب همته الى معالجة حركات الوجهاء المحليين، والحكام شبه المستقلين هنا وهناك، في جنوب شرقي أوروبا والأناضول وفي الولايات العربية. وانشدّ اهتمام السلطان المتحمس إلى إخماد هذه الحركات، ومواجهة الحملة الفرنسية على مصر التي أدّت به إلى إقامة تحالف مع الإنكليز والروس.

وحرّضت روسيا والنمسا أدعياء النزعة القومية من رعايا الدولة العثمانية. وأذكت أوارها الثورة الفرنسية كما ذكرت سابقاً. وبلغ التحريض أوجه، عند ابتداء الثورة الصربية لعام ١٨٠٤ م. ولم يكن من السهل على السلطان العثماني، مقاومة الطموحات الإنكشارية. فالحرب الجديدة الناشبة مع الروس، حدّت من قدرته في وقت كانت فصائلهم لا تزال تشكل قوام الجيش وعماده. وضعفت شخصية السلطان، وأدت به الأحداث التخلي عن الإصلاحات والجيش الجديد في الوقت الذي اشتد فيه ساعد معارضيه. وائتلفت قواهم المختلفة وتمكنوا في النهاية من قلب نظام حكمه. وأودع سليم الثالث داخل أسوار أحد القصور السلطانية. وانفسح المجال لتيار المحافظين تحت قيادة السلطان الجديد (مصطفى الرابع)[٢] الذي أنهى فكرة الإصلاح وتخلّص من معظم دعاتها. وبذلت جهود جديدة لإرجاع السلطان السابق. وتزعم الوجيه البلغاري الأصل بيرقدار مصطفى باشا الحملة. ولكنها باءت بالفشل وأدّت من ثم إلى مقتل سليم بعد فترة وجيزة من حكم مصطفى الرابع.

ولم يدم حكم مصطفى سوى سنة وشهرين. وتسلم الحكم ابن عمه

(٢) السلطان مصطفى الرابع: وهو ابن السلطان عبد الحميد الأول. ولد في ٨ ايلول عام ١٧٧٩ م١١٩٣هـ وحكم الدولة العثمانية سنة واحدة فقط. بذلت أمه جهداً عظيماً من أجل تدريبه وتعليمه. تولى الحكم بعد خلع سليم الثالث. وتجمع حوله بعض المحافظين. ثم أجبر على التنازل عن الحكم والإقامة داخل أسوار طوب قابي. ثم قتل بعد استصدار فتوى. ونصب السلطان محمود الثاني.



السلطان محمود الثاني[٣]، ونبذ فكرة الإصلاح في البداية. ثم بدأ إنشاء المدارس على النمط الجديد. واعيدت بعض الإصلاحات التي استهلت منذ عهد سليم.

وشعر الوجهاء المحليون «آيان» بالخطر يحدق بهم، وبما كدّسوه وجمعوه. وبادروا إلى عقد اجتماع لتأمين مركزهم. وأصدروا ميثاق الإتحاد «صندي إي إتفاق» الذي تكفل بتعيين وضمان حقوقهم أمام الحكومة المركزية. ولكن اتفاقهم لم يعمر طويلاً. ونشب تمرد انكشاري آخر عام ١٨٠٨ م (١٢٢٣) هـ أودى بحياة بيرقدار وأدى إلى إعادة الحكم المحافظ.

وفي ذلك الحين كان الوضع العثماني يبدو وعليه قسمات التعاسة واليأس. فالحكومة المركزية تتدنى سلطتها إلى الحضيض. وها هي شمال أفريقيا يضعف زمام الأمور أو ينفلت عنها. ومحمد علي باشا ينتصر في مصر ويضع الأسس والخطط لإعلان الاستقلال المستقبلي، والمماليك والباشوات في العراق، لم يؤدوا للحكومة المركزية سوى الكلام والوعود الفارغة مثلما يفعل غيرهم من الحكام المستقلين في سوريا، والوهابيون يعلنون التمرد في شبه الجزيرة العربية. وأخيراً لم يكن في كافة الأناضول سوى ولايتين فقط تحت الحكم المركزي المباشر.

أما في أوروبا، فكانت المقاطعات والمناطق الإدارية، تسقط الواحدة تلو الأخرى، بأيدي الوجهاء المحليين، أمثال علي باشا الذي سيطر على جنوب ألبانيا، وعثمان باشوان أوغلو، الذي احتل بلغاريا الشمالية واحتفظ بها حتى

(٣) وهو ابن السلطان عبد الحميد الأول: ولد في ٢٠ تموز عام ١٧٨٥ م (١١٩٩) هـ وتوفي في ٣٠ حزيران عام ١٨٣٩ م (١٢٥٥) هـ. حكم البلاد العثمانية ٣١ سنة. كان جيد الثقافة. وشخصيته قوية. درب السلطان سليم الثالث تحت إشرافه. كان شاعراً وخطاطاً. امتاز بالشجاعة لكنه كان مريضاً. امتاز بالتصميم وقوة الإرادة. قتل المتمردين عام ١٨٠٨. وفي شهر تموز من عام ١٨٣٩ اشتدت عليه هجمة السل عندما كان يعاني من أوضاع سياسية يائسة وقضى نحبه إثرها.

وفاته، وجورج بيتروفتش الذي خضعت صبريا له وجعلها في حالة تمرد واضطراب منذ عام ١٨٠٤ م الموافق ١٢١٩ هـ. أما على الصعيد الخارجي، فلم يكن الوضع أقل شؤماً. وها هو سليم الثالث قد أمل في حث فرنسا على تقديم المساعدة له، كي يستعيد الأراضي التي فقدها والتي احتلها الروس. ولم يجد العثمانيون أنفسهم إلّا أمام مواجهة عسكرية صعبة تجاه الروس الذين اكتسحوا الإمارات الدانوبية عام ١٨٠٦ م (١٢٢١) هـ. وأمام الإنكليز الذين كانوا يحاولون وضع أيديهم على مضيق الدردنيل عن طريق أسطول بحري ضخم في شباط من عام ١٨٠٧ م (١٢٢٢) هـ، واحتلال مصر في آذار من العام ذاته.

ولم يبر نابليون بتعهداته. ففي ذلك الحين لم يعارض الروس، بل قبل باحتلالهم للإمارات طبقاً لصلح تلسيت وايرفورت[٤] عام ١٨٠٨ م الموافق (١٢٢٣) هـ.

وجاءت ظروف دولية خاصة. وانهمكت قوى أوروبا باهتمامات أخرى فرمم العثمانيون بعض جراحهم. وعقدت بريطانيا صلح الدردنيل[٥] في ٥ كانون ثاني ١٨٠٩ م. ووقع الروس معاهدة بخارست في ٢٨ مايس ١٨١٢ م

---

(٤) صلح ايرفورت لعام ١٨٠٨ م (١٢٢٣) هـ. في هذا اللقاء الذي تم في مدينة ايرفورت جنوب غربي المانيا الشرقية اليوم، وبتشجيع من وزير خارجية فرنسا «ڤاليران» رفض القيصر الروسي اسكندر الأول المجتمع آنذاك مع نابليون وملوك باڤاريا وسكسونيا ووستڤاليا وڤورتمبرغ، منح نابليون الأول الدعم ضد النمسا.

(٥) صلح الدردنيل لعام ١٨٠٩ م (١٢٢٤) هـ. وهي معاهدة (جاناق) وقعت في ٥ كانون أول عام ١٨٠٩ م (١٢٢٤) هـ كحلف ضم الدولة العثمانية وبريطانيا في (جانا قلعة). وأكدت مبدأ عدم دخول أية سفينة حربية لأية قوة، مضيقي البوسفور والدردنيل. فكان المؤتمر استباقاً لاتفاقية لندن لعام ١٨٤١ م (١٢٥٧) هـ. الخاصة بالمضائق. والإتفاق ضمناً موجة ضد روسيا التي وقعت صلح تلسيت لعام ١٨٠٧ م (١٢٢٢) هـ. وصلح ايرفورت لعام ١٨٠٨ م مع نابليون. وبموجب هذا الاتفاق أمنت بريطانيا شر دخول الأسطول الروسي المضائق من البحر الأسود إلى البحر الأبيض المتوسط. ومن بنوده السرية اشتراط الإنكليز مساعدة العثمانيين فقط في حالة حدوث إعلان فرنسي للحرب ضدهم.



(١٢٢٧) هـ واسترجعت بموجبها الإمارات الدانوبية العثمانية رغم احتفاظ الروس بمعظم «بسارابيا».

في هذه الظروف تمكن محمود الثاني من القيام ببعض الإصلاحات الداخلية. وابتدأ بالجيش كي يجعل منه أداة صالحة تحفظ أمن الدولة وتحمي البلاد من الأجنبي الطامع والمتمرد العميل. واصطدم منذ البداية مع الإنكشارية. وطرح اقتراحاته حول جيش جديد وعارض الإنكشارية الذين تعرضوا من ثم للمذبحة الشهيرة.

كان محمود بارعاً في مناوراته أكثر من سليم فازداد نفوره منهم. ونال دعم معظم العلماء في الوقت الذي نال الإنكشارية تأييد الغوغاء في العاصمة.

وانهدّت أركان الجيش القديم. وانتهى بالتدمير عام ١٨٣١ م (١٢٤٧) هـ. وألغي «التيمار» ذلك النظام الأقطاعي دون رجعه. وتولت الدولة إدارة الإقطاعات الباقية. وجهز الجيش ودرب على شاكلة الجيوش الأوروبية. وزود بالخبراء والمستشارين الغربيين بما فيهم رئيس الأركان الألماني المقبل الجنرال «هيلميت فون مولتكه». واختلف عن سابقه. وتميز بالولاء والطاعة والنظام إلى حد كبير. وهكذا أصبح أداة طيعّة بيد السلطان لحفظ السياسة المركزية وصيانة الدولة، وبرهن على أنه الباعث المحرك لعملية التحديث. ولكن الأمور لم تسر على ما يرام وطبقاً لما خطط لها رغم الجهود والإنجازات التالية. إن الحاجة المستمرة لتجهيز الجيش، والضرورة الملحة لتدريب الضباط والأخصائيين، والجهود المبذولة لدعم مركزهم وتثبيته، كما أن المحاولات لحفظ السلام مع أوروبا، استلزمت إصلاحاً سياسياً واقتصادياً. وابتكار مؤسسات حكومية جديدة. وابتدأ تحديث التعليم العالي مع بروز الحاجة الملحة لتدريب الضباط والأطباء العسكريين والجراحين. وازدادت الحاجة لجبي ضرائب جديدة لتغطية النفقات الجديدة. واستبدال الجهاز الداخلي الصغير الحجم. وتركت القرارات الاقتصادية والسياسية والإجتماعية

لتنظيمات مختصة محلية. فاستبدلت بجهاز جعل الدولة مركزية السلطة والقرار.

وابتدأ محمود بكبح جماح القوى المناوئة. وحدّ من نفوذ العلماء واضعف سلطتهم ونفوذ المنظمات الدينية الشعبية الإسلامية. وابتدع مديرية أوقاف جديدة. وشق طرق مواصلات حديثة ودشن مركز البريد.

أما الإدارة المركزية، فقد أعيد تنظيمها. وأنشئت وزارات جديدة على الطراز الأوروبي، كي تحل محل السلطة القديمة الضيقة المدى، والتي كان يتحمل تبعاتها الإدارية والعالمية الصدر الأعظم. كما أسست مجالس جديدة، كي تساعد على المدى الطويل المخطط لها حسب المراحل. ومنها المجلس القضائي الأعلى. واعطيت البيروقراطية الأمان بإلغاء المصادرات بعد الموت. وافتتح مكتب الترجمان عام ١٨٣٣ م (١٢٤٩) هـ. وافتتحت السفارات واعطيت الفرص لتعلم اللغات الأوروبية ومواجهة أفكار الغرب الجديدة. وأصبحت الإدارة والجيش الجديدان، العاملان اللذان مد السلطان عن طريقهما نفوذه وسلطته فوق سلطة الحكام المحليين أو شبه المستقلين، والوجهاء والبيكوات وسادة الدروب والجماعات الأخرى التي استخدمت سلطتها السياسية ببراعة في أجزاء مختلفة من الدولة. وتجسدت إرادة الإصلاح بعد عام ١٨١٢ م (١٢٢٧) هـ مباشرة. وأخمدت الثورة الصربية مؤقتاً كما سنذكر بعد قليل رغم نشوبها مرة أخرى. وتوطد الحكم العثماني الحازم فوق ربوع الأناضول والعراق والكثير من أرجاء الروملي.

أما ما كان يجري في مصر فكان مختلفاً. فقد شق محمد علي باشا عصا الطاعة وطرح برنامجاً للإصلاح أكثر تطرفاً. ومن ثم غزت القوات المصرية سورية، وهاجمت القوات العثمانية ولاحقتها حتى قونية، وهددت بالتالي العاصمة.

واضطر السلطان محمود اللجوء للعون الروسي. ووقعت في ٨ تموز عام



١٨٣٣ م (١٢٤٩) هـ معاهدة خنكار اسكلاسي[٦]. ولم يمكنه السلطان من تحقيق مطالبه. وبدعم من الأوروبيين هاجم مصر دون تأييد فرنسا. واستعاد العثمانيون سوريا. ووطد دعائم حكمهم هناك بمساندة من الغرب من خلال معاهدة لندن لعام ١٨٤٠ م (١٢٥٦) هـ. واستحصل محمد علي باشا بالمقابل على اعتراف عثماني بحكمه الوراثي لمصر عام ١٨٤١ م (١٢٥٧) هـ.

أما في أوروبا فقد احبطت محاولات الباب العالي. وخاصة في اليونان وصربيا والإمارات الدانوبية. فالثورة اليونانية ـ نتاج أفكار نابليون وحروبه ـ دمرت الإقتصاد الوطني، وكشفت ظهر اليونان أمام أفكار أوروبا. أما رد الفعل الذي حدث ضد المركزية العثمانية، فكان له مصدران: أولهما المعارضة التي تزعمتها العصابات والفلاحين، وثانيهما مؤامرة التنظيم السياسي المتآمر «فيلكي ايتريا» اللاحق الذكر.

وأحبطت محاولات العثمانيين استعادة نفوذهم على تراب صربيا والإمارات. وكان الروس وراء ذلك الإحباط الذي انقلب إلى حرب عثمانية روسية نشبت عام ١٨٢٨ م (١٢٤٤) هـ ـ ١٨٢٩ م (١٢٤٥) هـ. واضطر العثمانيون التخلي عن مصبات الدانوب. وأراض هامة في شرقي آسيا الصغرى، وتقديم التنازلات الجديدة للإمارات والصرب. وامتد نفوذ المتمردين الصرب بعد الإعتراف باستقلالهم الذاتي عام ١٨٣٠ م (١٢٤٥) هـ. واشتمل

---

(٦) معاهدة خنكار اسكلاسي: وقعت هذه المعاهدة في ٨ تموز عام ١٨٣٣ م (١٢٤٩) هـ. بين الدولة العثمانية وروسيا في قرية خنكار اسكلاسي قرب استانبول. وبموجبها خضعت الدولة عملياً من بعض الوجوه للحماية الروسية. فبعد انهزام السلطان محمود الثاني أمام قوات محمد علي، طلب المساعدات الأوروبية، فرفض طلبه من قبل النمسا وبريطانيا وفرنسا. وكانت روسيا من قبل قد قبلت التأييد العسكري فارتبط معها في خنكار اسكلاسي بمعاهدة مدتها ثمان سنوات. ونادت بنودها بالصداقة والسلام بين الأمتين، والشروع في الوصول إلى اتفاق مشترك حول كافة المسائل المتعلقة بالأمن والسلام. وبمنح المساعدات لكلا الطرفين. ومع ذلك فإن أهمية المعاهدة حقيقة، تكمن في نص سري يحدد المساعدة العثمانية لروسيا بإغلاق المضائق أمام الأساطيل الحربية العسكرية عدا روسيا.

كامل الأراضي الصربية عام ۱۸۳۳ م الموافق ١٢٤٨ هـ.

وفي ١ تموز عام ١٨٣٩ م (١٢٥٤) هـ توفي السلطان محمود الثاني والدولة تؤول رقعتها في التقلص إلى أبعد الحدود. لقد كانت حقاً قوية ومتحدة، لكنها تزداد تعرضاً للضغوط الأوروبية، وخضوعاً لقوى الغرب. فالروس يضغطون ويدعمون الانفصاليين والمتمردين. والإنكليز يعارضون الروس. والقوى الأوروبية الأخرى تتذبذب بين الطرفين. ومع ذلك فإن آثار العلاج الذي بدأ تطبيقه، أخذت ثماره بالنضوج. فقد وضع محمود أسس الإصلاح وفرض احترامه. وإن كان رمزياً في كثير من الأحيان. ثم بدأ عهد التنظيمات في ولايتي عبد المجيد وعبد العزيز، وكانت موضع نقاش عند كتاب الغرب ومؤرخيه. فالكثير منهم رفضوا وعود الإصلاح كرغبة عثمانية إلاّ مجرد كونها محاولة لدعم الغرب واكتساب تأييده الديبلوماسي في لحظات حرجة. وباتت بعض الملامح تومىء بدعم هذا الرأي. فالنصارى لم تنفذ بعض الوعود المقطوعة لهم حول حقوق المساواة مع المسلمين. ولم يعتزم الباب العالي إلغاء الجزية المفروضة عليهم كضريبة مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية.

إن عهد التنظيمات حقاً كان يترافق بأزمات خطيرة. فالعثمانيون بحاجة إلى دعم الغرب ضد محمد علي باشا. وعندها صدر المرسوم العالي لعام ١٨٣٩ م (١٢٥٥) هـ. وهم بحاجة إلى الغرب أثناء تقدمهم في حرب القرم، وعندها صدر المرسوم الآخر لعام ١٨٥٦ م (١٢٧٣) هـ. وأخيراً وعندما صدر الدستور العثماني، في عام ١٨٧٦ م (١٢٩٣) هـ كانت أوروبا قبل صدوره قد تحركت وضغطت من أجل ما تدعيه وتدعوه بالإصلاح.

ان فكرة الإصلاح استندت إلى اعتقاد خاطىء حول هدفها. فالغرب الذي اهتم أساساً بكسب التأييد الأفضل والظروف الأحسن لامتداده النصراني في البلاد العثمانية، نظر إلى هذه الإجراءات التنظيمية، وكأنها موجهة إلى هدفه الصليبي في المنطقة ولم يقتنع بالمراسيم التي صدرت حول مبادىء الحرية الشخصية والتحرر والمساواة. ومع ذلك فإن ما أراده العثمانيون حقاً كان



العمل على حفظ دولتهم وصيانتها من الإنهيار.

وأخيراً فإن بعض المبادىء قد طبقت. ووضعت بعض المبادىء نصب أعين العديد من المصلحين. ولكن أوروبا لم يثنها هذا التغير عن هدفها الحقيقي غير المعلن، فهي لا تريد إلا تحقيق أهدافها التي تمتد جذورها إلى مئات السنين.

بعد هذه المقدمة التاريخية الموجزة، نعود إلى البحث في الحركات المضادة والثورات الإنفصالية الأولى التي نشبت في ربوع البلقان. ففي بداية القرن التاسع عشر الميلادي، كانت الدولة العثمانية تسيطر على أهم الأقاليم الوسطى والجنوبية لشبه الجزيرة البلقانية. بينما خضعت في الوقت ذاته الأجزاء الشمالية الغربية لحكم أسرة «هبسبورغ».

وتطورت الحركات القومية في هذه البلاد، وهيأت لها الظروف السياسية والإجتماعية السائدة. واستغلت من خارج الحدود، وفقاً للمخططات الدولية البعيدة المدى.

إن عوامل الفساد في أسلوب الحكم لدى الإدارة العثمانية، كانت تربة خصبة نشأت وترعرعت فيها أفكار أوروبا الحديثة المخربة، وهذا ما حدا بالطامعين العمل على بث سمومهم بين أوساط الشعوب البلقانية. فزرع سياسة التفرقة هدفهم، ومحاولة تأليب الجماهير غايتهم. وهكذا نبتت بذور النعرة القومية، واستغلت الأوضاع الاجتماعية والسياسية الراهنة أبشع استغلال. وأشعلت نار العصيان بانتهاز ثلاث فرص رئيسية توفرت لهم هي :

١ - انحطاط الدولة العثمانية.

٢ - التذمر والشكوى من السياسة الإجتماعية والاقتصادية.

٣ - تشكيلة المجتمع البلقاني.

ورفدت الأوضاع الجديدة عوامل أخرى، وتفرعت عنها مشكلات طارئة. فالإحتكاك الاقتصادي مع أوروبا تمخضت عنه مشكلة، والحكم الذاتي والمحلي

الذي برز، أبرز مشكلة، والجاليات البلقانية والأثر الذي تركته على الصرب جنوب المجر، كالمستعمرات التجارية اليونانية والبلغارية والألبانية في البحر الأبيض المتوسط ومناطق البحر الأسود مشكلة أيضاً. وتوسعت حركات التمرد الثورية عموماً واتخذت وجهين مختلفين. فهي سعت لإقامة الدول القومية بإذكاء روح ما سمي بالتحرر الوطني، وتأسيس التنظيمات القومية والسياسية والإقتصادية والثقافية. واستغلت الفلاحين ضد الملاك، وحرضتهم على احتلال الأراضي من جانب آخر.

### أ ـ الحركة المضادة في يوغوسلافيا:

اجتازت الحركة الإنفصالية ثلاث مراحل. تميزت أولاها بالظهور والطفو على السطح. واتسمت المرحلة الثانية بالتراجع. وانتهت أخيراً مرحلتها الثالثة بممارسة الحكم الذاتي.

كانت يوغوسلافيا مجزأة بين الدولة العثمانية وامبراطورية «هبسبرغ» فالصرب في الجنوب والشرق يشكلون جزءاً من الدولة العثمانية، والسلوڤينيون والكروات في الشمال والغرب يخضعون للإمبراطورية النمساوية.

ولعبت الأحداث المحلية التي جرت بين السلطة الحاكمة والإنكشارية دوراً في نشوب التمرد، فعندما نشبت الحرب الأخيرة بين الدولة العثمانية والنمسا. التجأ الكثير من أبناء الصرب إلى بلاد المجر، وانتظموا في سلك الخدمة العسكرية النمساوية. وما أن وضعت الحرب أوزارها، حتى عادوا إلى بلادهم، وقد تمرسوا على فنون القتال والنزال، وأشبعوا بروح التمرد والعصيان.

وكان لا بد من تأديبهم لما اقترفوا، وللتواطؤ الذي حبكت خيوطه بينهم وبين الأجنبي. ولكن علاج هذا الإنحراف، لم يكن يتسم بالحكمة. فالإنكشارية قد أعملوا فيهم القتل والنهب. وهذا ما أدى بالباب العالي، وبمعاونة السباه، إلى إخراج الإنكشارية خارج بلغراد، وقتل رئيسهم «دلي



أحمد». فما كان منهم إلا اللجوء إلى أحضان أحد المتمردين السابقين «بازوندا أوغلي». وتوسط لهم الأخير مع سلطات الباب العالي وعمل على إعادتهم. وما أن رجعوا حتى عادوا لسابق ما اقترفوا. واستأنفوا اضطهاد الصرب وحاصروا بلغراد. ودخلوها وقتلوا واليها، وعاثوا فساداً في الأرض.

هذه الأحداث الخطيرة، أدت بالصرب إلى لم الشمل، في محاولة للدفاع عن أموالهم وأعراضهم. وبادروا إلى انتخاب رئيس لهم هو «جورج بتروڤتش»[٧]. وبدأوا حملة مطاردة للإنكشارية حتى تمكنوا من إبعادهم عن قراهم. وإلزامهم الإعتصام في داخل المدن الكبرى.

وخاف الباب العالي من استفحال خطر الإنكشارية. وطلب من والي البوسنه «بكيرباشا»، التحرك بجيش نحو بلغراد. ودخل الجيش العثماني عاصمة الصرب بالتعاون مع «بتروڤتش»، وطرد الإنكشارية ثانية، وحقق الأمن والطمأنينة للأهلين.

ولكن الهدوء لم يلبث أن تعكر بعد مغادرة «بكيرباشا» إلى ولايته. فأوداج الصرب انتفخت لهذا النصر وطمح زعماؤهم بالإستقلال المحلي. وما كان من السلطان العثماني سليم الثالث إلا أن رفض مطاليبهم فأعلنوا الحرب. وتألبت الجماعات الإنفصالية بقيادة «بتروڤتش» الملقب بالأسود، ضد السلطة الشرعية. وتطلعت إلى الإستقلال في عام ١٨٠٥ م (١٢٢٠) هـ.

---

(٧) وهو قره جورج: ولد عام ١٧٦٢م (١١٧٦)هـ. في قرية (ڤيشيڤاك) الواقعة في صربيا بيوغوسلافيا اليوم. وتوفي عام ١٨١٧ م (١٢٣٢) هـ. في (رادوڤانيا) بيوغوسلاڤيا أيضاً. سمي بـ جورج الأسود للمزاج السوداوي المتصف به. كان راعياً للماعز والخنازير في صباه . ثم هاجر إلى النمسا والتحق بالجيش. وخدم بتفوق في ايطاليا. ثم تعاطى تجارة الدواجن والمواشي. وعندما تمرد الصربيون ضد الإنكشارية انتخبوه قائداً لهم. وهزم الإنكشارية بصورة مفاجئة للموافقة الضمنية التي منحها الباب العالي، والسلطان سليم الثالث الذي عدّهم متمردين. ولكن قره جورج أعلن حرب استقلال الصرب فهزمه العثمانيون. اعطاه المجلس الوطني الصربي بموجب الدستور الأول لقب القائد الأعلى الوراثي الصربي. هرب بعد الهجوم العثماني إلى النمسا. ثم روسيا ثم رجع سراً إلى البلاد. وخاف منه ميلوش منافسه فاغتاله أثناء نومه.

وأدت التحريضات المستمرة، إلى نشوب الفوضى والإضطراب في بلاد الصرب، وعمت روح التمرد أرجاء البلاد. وسرعان ما حصلت المصادمات العسكرية. بين الأهلين والسلطة الحاكمة التي حاولت كبح جماح الفوضى وإرساء الأمن. واستمرت الأحوال المضطربة حتى أواخر عام ١٨٠٦ م، عندما قبل «بتروفتش» عرض والي «اشقودره» بمنح الإدارة المستقلة بالتوسط لدى الباب العالي، وأن يدفع العصاة مبلغاً قدره ٦٠٠ ألف فلورين كتعويض لأصحاب الإلتزامات الذين تركوا التزاماتهم للإدارة الصربية. ورفضت الإدارة العثمانية الإقتراح، وتوقف البحث في هذا الأمر لنشوب الحرب العثمانية الروسية عام ١٨٠٧ م (١٢٢٢) هـ. ثم جرى تغيير الحكام المحليين، وأمل العصاة الصرب في قبول طلبهم الحماية من روسيا والنمسا. وتطلعوا إلى العون المادي في تحقيق الإنفصال. كما أملوا في استجداء المساعدة حتى من نابليون. ولكن حروب الأخير، وأوضاعه الدولية، جعلت الأمر يقتضي التأجيل وعدم البت في أمر تحقيقه. وما كان من العصاة إلا الاعتماد على أنفسهم في هذه المرحلة، والاقتناع بالعون القليل فقط، وخاصة بالقوة الرمزية الروسية. واقتنع «بتروفتش» بأن أمته ليست أكثر من مخلب قط في سياسة نابليون المضطربة. كما أنهم فشلوا في الإشارة العلنية إلى ذكر صربيا في هدنة «سلوبوزيا»[٨] مع الأتراك.

وتوسع العصاة في تحركهم بتوسع برامجهم. ولكن الضغط الروسي المهدد عاد من جديد. واستأنف الروس أعمالهم التحريضية المثيرة. ومنح المجلس الوطني الصربي الدستور الأول تحت تأثير هذا الضغط. وأعلن «قره جورج» قائداً أعلى وأميراً وراثياً على صربيا عام ١٨٠٨ م الموافق (١٢٢٣) هـ.

وتحسنت العلاقات الصربية الروسية بعد الصراعات العسكرية العثمانية الروسية عام ١٨٠٩ م (١٢٢٤)هـ. وأدى التواطؤ الصربي الروسي إلى هزيمة

(٨) سلوبوزيا: عاصمة لالوميتا الواقعة في جنوبي شرق رومانيا على نهر (لالوميتا) وسط سهل (باراغان).



العثمانيين في «ڤارڤارين» و«لوزنيكا»[٩] عام ١٨١٠ م (١٢٢٥) هـ ولكن الروس أرغموا عند بداية الهجوم النابليوني، إلى عقد معاهدة سرية مع خصومهم العثمانيين في «بخارست» عام ١٨١٢ م (١٢٢٧) هـ. وتخلوا عن صربيا - ورقة الرهان الرابحة. وعن استقلالها. وشن السلطان بجيشه الجديد، بعد أن قضى على الفصائل القديمة، هجوماً عسكرياً من ثلاث جهات. وسحق محاولات المعارضة وأخمد التمرد عام ١٨١٣ م (١٢٢٤) هـ. وفي حالة معنوية يائسة، هرب «قره جورج» وأنصاره، وسط معاناة من مرض عضال إلى النمسا. وضاع الإستقلال الصربي الذاتي. وتمكن جنود السباه من استرجاع اقطاعاتهم السابقة.

ولعبت الأطماع الشخصية والدعايات الأجنبية دوراً بارزاً. ورفعت راية العصيان من جديث بحلول عام ١٨١٥ م (١٢٢٦) هـ. ووضع المتمرد الجديد «ميلوش أوبرينوفتش» نصب عينيه الحيلولة دون عودة خصمه «قره جورج» إلى البلاد. وسرعان ما لجأ إلى اغتياله سراً أثناء نومه، منتهزاً فرصة عودته بالخفاء من روسيا إلى صربيا كي يشهر سلاح عصيان جديد قوامه هذه المرة تحالف يوناني.

وهكذا قتل [قره جورج]، واشتعلت نار الثارات والفتن الداخلية بين ابناء الأسر المتنافسة. وجرت انهار غزيرة من الدماء لأكثر من قرن من الزمان.

وبذا تمخضت حركة العصيان الصربية، عن تدمير الإقتصاد العثماني، وتحطيم الجهاز السياسي والإداري والإجتماعي في صربيا. وزرعت في الوقت ذاته بذور الشقاق تحت ستار حركة الإستقلال الصربية المزعومة. ورفع الفلاحون المغرر بهم، شعارات مضللة، روجها لهم أدعياء المناصب الشخصية وطلابها، ضد الملاك والإقطاعيين. واصطنعوا كياناً زائفاً قوامه طبقة من الفلاحين الملّاك كان لها دوراً هاماً فيما بعد.

(٩) لوزنيكا: قرية صغيرة تقع في يوغوسلافيا اليوم. إلى الجنوبي الشرقي من بلغراد.

وانفسح المجال على الصعيد الأدبي في أعمال كل من «دوزيتج اوبرادوفتج» و «فوك قره تزيج». فقام الأول بأعمال الترجمة وإصلاح التعليم. وعمل الثاني على إصلاح الحروف الهجائية. ووضع نظاماً أكثر منطقية وعلماً. واحتوى كتابه الأول على مائة أغنية صربية، وستة قصائد استعراضية. كما نشر أيضاً مقالة حول قواعد اللغة العامية الصربية. ومنذ ذلك الحين، انصب نشاطه حول إعطاء تبربر علمي لتبني القواعد العامية الصربية كلغة أدبية. واهتم بجمع الأغاني القومية والأهازيج الشعبية. ولكنه جابه المعارضة القوية بين صفوف الكتاب كما عارضته الكنيسة. وكان أهم أعماله الكبيرة: الموسوعة الصربية لعام ١٨١٨ م (١٢٣٣) هـ، والقاموس الألماني الصربي اللاتيني المحتوي على أكثر من ٢٦٢٧٠ كلمة.

وطاف «قره تزيج» أرجاء صربيا، أثناء جمعه الأدب الشعبي الصربي. وتنقل بين البوسنة وكرواتيا وبعض المناطق الأخرى. وتجلت نتائج جولاته، في كتاب الأشعار الفلكلورية الصربية. الذي وضعه في أربع مجلدات، وكتاب آخر عن القصص الشعبية، ومنتخبات من الأمثال الصربية، وترجمة العهد الجديد باللغة الصربية. وتوفي عام ١٨٦٤ م.

## انتفاضة ميلوش:

بعد القضاء على حركة ١٨٠٤ ـ ١٨١٣ م [١٢١٩ ـ ١٢٢٢] هـ، تعذر استعادة الهيمنة العثمانية على البلاد الصربية، نتيجة المشكلات التي نجمت. وفي هذا الوقت بالذات، بدأ «أوبرينوفتش» برفع راية العصيان بعد أن تخلص من مناوئه قره جورج.

ولد ميلوش تيودورفتش في ١٨ آذار عام ١٧٨٠ م (١١٩٤) هـ، في بلدة «ستردنيا دوبرنيا» في صربيا. وكان يعمل فلاحاً. ومارس في بداية حياته رعي المواشي مع أخيه غير الشقيق. ثم انضم إلى عصابات قره جورج. وما أن حلّ عام ١٨٠٥ م، حتى عيّن قائداً في قواد التمرد. واتخذ لنفسه لقب



«أوبرينوفتش» بعد ان جرى قتل أخيه من قبل قره جورج ثم استأنف أعمال العداء للتو ضده.

وبعد انهيار حركة الأخير عام ١٨١٣ م (١٢٢٨) هـ، وبعد فراره إلى المجر. بقي ميلوش في صربيا. وجرى تعيينه من قبل الباب العالي أميراً على ثلاث مناطق مركزية هناك. ثم تعاون معهم في تهدئة البلاد وإخماد حركة ١٨١٤ م (١٢٢٩) هـ الجديدة.

لم يلبث (ميلوش) أن جمع الأنصار حوله في «تاكوفو»[١٠] في صربيا. وبدأ من ثم ثورته في يوم أحد السعف الذي يسبق عيد الفصح في نيسان من عام ١٨١٥ م (١٢٣٠) هـ. وتمكن بسرعة من تحقيق بعض النصر. وهكذا وبعد أن جمع سكان قريته والقرى المجاورة لها، أعلن لواء العصيان داعياً للثورة. وانضم المهاجرون إلى دعوته، وعادوا إلى قراهم، وشمل العصيان كافة أرجاء الصرب.

ولم تذعن السلطات العثمانية لمطالب المتمرد الجديد. وتصدت له من أول لحظة. واستمر القتال حوالي السنتين. وأخيراً خضع ميلوش للسلطة الشرعية، وأذعن للسيادة العثمانية ولكن ضمن شروط كان أهمها: عدم التدخل في الشؤون الداخلية الصربية وإجراءات تحصيل الضرائب، بل يجب أن يجري الإتفاق على تعيين مجلس مؤلف من اثني عشر عضواً ينتخبه الأهلون من الوجهاء الذين بدورهم ينتخبون رئيساً لهم كحاكم عام. وأخيراً بأن تتلخص مسؤولية الدولة في المراقبة واحتلال الحصون والقلاع.

وقبل الباب العالي هذه الشروط. وعين «مرعشلي باشا» والياً على الصرب. وأعطى التعليمات بمعاملة الأهلين بالرفق واللين. ولم يكن تهاون العثمانيين في الحقيقة وتنازلهم إلا لخشيتهم من تدخل روسي محتمل ومتوقع لصالح المتمردين. وهذا ما أدى بهم إلى ترتيب التسوية السلمية، وتعيين

(١٠) تاكوفو: بلدة تقع في جنوب شرقي يوغوسلافيا اليوم قرب الحدود الالبانية.

ميلوش رئيساً لمجلس الصرب الذي أطلق عليه اسم «سوبرانيا» واعترفوا به أميراً على صربيا التي بذلك حصلت على نوع من الحكم الذاتي مع بقائها جزءاً من الدولة العثمانية. وسمح للصرب الإحتفاظ بأسلحتهم وجمعيتهم الوطنية.

وقوي مركز ميلوش. وخاصة بعد تخلصه من خصمه العنيد (قره جورج) كما ذكرت سابقاً. واستبد بالسلطة كملك مطلق التصرف حيث لا سلطة للوالي العثماني عليه. وفي تشرين الثاني من عام ١٨١٧ م (١٢٣٢) هـ، سمي ميلوش أميراً يحكم بصورة وراثية من قبل المجلس الوطني. وتمكن عن طريق الديبلوماسية والمفاوضات الطويلة من التوصل إلى اعتراف عثماني بوضعه الجديد كأمير وراثي. ومنحت صربيا استقلالها الذاتي في ٢٨ آب عام ١٨٣٠ م.

وتمكن ميلوش، بعد سنوات قليلة من اكتساب ممتلكات جديدة في أراضي صربيا الجنوبية. فما بين الأعوام ١٨١٥ - ١٨٣٣ م (١٢٣٠ - ١٢٤٩) هـ. استفاد من تنامي قوة صربيا. كما انتهز فرصة الضعف في السلطة العثمانية. وقوّي مركزه نتيجة التطورات المتلاحقة في شبه الجزيرة البلقانية. فالإنتفاضات التي حدثت في الأفلاق والبغدان، وتمرد الباشوات الأتراك في ألبانيا والبوسنة والهرسك، والثورة اليونانية، وأخيراً الحرب التركية الروسية لعام ١٨٢٨ - ١٨٢٩ م [١٢٤٤ - ١٢٤٥]، لعبت دوراً حاسماً في تدعيم مركزه وسلطته.

واقتضت بنود المعاهدة التركية الروسية، التي وقعت عام ١٨٢٦ م (١٢٢٢) هـ في (آق كرمان)(١١)، أن تنفذ الدولة العثمانية احترامها لاستقلال

(١١) معاهدة آق قرمان: وقعت هذه المعاهدة في ٧ تشرين أول عام ١٨٢٦ م (١٢٤٢) هـ. في بلدة آق قرمان الواقعة في رومانيا، بين الدولة العثمانية وروسيا. وبموجبها قبل العثمانيون تحت تهديد الحرب، المطالب الروسية حول صربيا والإمارات الدانوبية. وقد عززت معاهدة بخارست لعام ١٨١٢ م (١٢٢٧) هـ. واعترفت باستقلال صربيا الذاتي. وضمنت حق روسيا في حمايتها استقلال الإمارتين الدانوبيتين الذاتي. وأصبح مركز الخوسبودار =



صربيا طبقاً لنصوص معاهدة بخارست لعام ١٨١٢ م (١٢٢٧) هـ. وذكرت هذه الشروط مرة أخرى في المعاهدة التركية الروسية «معاهدة أدرنة» لعام ١٨٢٩ م (١٢٤٥) هـ. وطلبت من الدولة العثمانية، أعادة المناطق الشرقية، التي تحررت في الانتفاضة الأولى إلى يد الصرب. تلك المناطق التي احتلها الأتراك أخيراً. ولكن العثمانيين لم يستجيبوا لهذه المطالب المجحفة. وبادر (ميلوش) إلى تنظيم حركة عصيان في تلك المقاطعات، وأعلن انضمامها إلى صربيا عام ١٨٣٣ م الموافق ١٢٤٩ هـ.

أدت السياسة المطلقة والحكم الاستبدادي أثناء حكم ميلوش، إلى إثارة المعارضة الشديدة ضده. وأرغم عام ١٨٣٨ م (١٢٥٤) هـ على منح دستور جديد. وبموجب هذا الدستور يعين مجلس مؤلف من سبعة عشر شيخاً.

وما أن تم تعيين المجلس حتى تنازل عن الحكم لإبنه «ميلان». وكان ذلك في ١٣ حزيران من عام ١٨٣٩ م (١٢٥٥) هـ. ولكن المجلس الوطني طلب منه الرجوع إلى الحكم بعد انقضاء عشرين سنة. ثم حل محله ابنه «اسكندر قره جورج ڤيتش» الذي حكم من عام ١٨٤٢ م (١٢٥٨) هـ حتى عام ١٨٥٨ م الموافق ١٢٧٥ هـ.

وعاد ميلوش إلى سابق عهده. ومارس أساليب الحكم الظالم المطلق. وفرض تحدياته السياسية على النمسا التي كان لها نفوذه على بلاده إبان حكم إبنه. ثم توفي أخيراً في ٢٦ ايلول من عام ١٨٦٠ م (١٢٧٧) هـ. وهو يطالب العثمانيين الاعتراف بحكمه الوراثي وإقرار سلطته داخل بلاد الصرب.

### ٢ - الثورة اليونانية:

رسخت أقدام الإنفصال في شبه الجزيرة اليونانية أثناء تلك الآونة.

= «الأمير» لا يمكن تغييره دون موافقة روسيا وفتحت المضائق للتجارة الروسية. وعندما حاول العثمانيون استعادة سيادتهم على الإمارات والصرب، نشبت الحرب التركية الروسية لعام ١٨٢٨ م.

وتقدم دعاة الإنفصال بخطوات سريعة تختلف عما عهدنا سابقاً.

ترجع الأسباب الحقيقية للثورة اليونانية إلى عاملين هامين هما: تطور المجتمع اليوناني والتدخل الأوروبي المباشر. وفي العهد العثماني، كانت بلاد اليونان من الوجهة الجغرافية تتألف من مجتمعين متغايرين. أحدهما على البر الرئيسي والآخر في المستعمرات التي أقامها التجار اليونان في كافة أرجاء البلقان والبحر الأبيض المتوسط وغربي أوروبا. وشكل هؤلاء قوام الطبقة اليونانية الوسطى. إضافة إلى ذلك، فلا يمكننا تجاهل الدور الذي لعبته الكنيسة اليونانية لدى العائلات الفنارية في القسطنطينية، وهي التي حكمت الإمارات العثمانية الدانوبية من عام ١٧١١م (١١٢٣)هـ، وحتى عام ١٨٢١م (١٢٤٣)هـ، كما لا يخفى الدور الذي لعبه الأسطول التجاري اليوناني في شرقي المتوسط، وهو الذي كان يشكل عام ١٨١٣ م قاعدة قوامها ٦١٥ سفينة و ٣٧٥٠٠ ملاّحاً.

ومع ظهور نابليون على مسرح الأحداث، هبت رياح الثورة اليونانية. وكانت قد هيأت لها مبادىء الثورة الفرنسية وأفكارها الماسونية. وسرعان ما سرت في أوروبا سريان النار في الهشيم، وخاصة في المناطق التي خضعت لاحتلال جيوشه. وكانت اليونان إحدى الضحايا. واستخدمت الجزر الأيونية التي احتلها الفرنسيون عام ١٧٩٧ م - ١٧٩٩ م ومن عام ١٨٠٧ م - ١٨١٤ م (١٢٢٢ - ١٢٢٩) هـ أيضاً، كقاعدة للإنطلاق. وعصفت بسرعة موجة عارية من الأفكار الحديثة. ووجدت لها مسلكاً سهلاً هناك. وازداد النمو، وتشكلت المنظمات السرية العديدة التي دعت إلى تحرير اليونان.

ووجد دعاة الإنفصال والثورة، أن ليس بالإمكان القيام بأعمالهم المضادة للسلطة الشرعية الحاكمة، إلا بإرسال أبنائهم إلى أوروبا تذرعاً بطلب العلم والمعرفة. وهكذا تعرفوا عن كثب على المبادىء الجديدة. وبدأوا بتشكيل الجمعيات العديدة، تحت ستار العلم والمعرفة، وفي الخفاء تكمن نوايا الحقد والغدر بالسلطة العثمانية. ووقع الخيار على روسيا والنمسا كي تؤوي المتآمرين.



وكانت أكثر الجمعيات فعالية ونشاطاً جمعية «فيلكي ايتريا» السرية. وهذه الكلمة تعني باليونانية «صداقة الإخوان». ونبتت وترعرعت بذرتها الأولى في مدينة «أوديسا» الروسية عام ١٨١٤ م (١٢٢٩) هـ. ووضعت نصب عينيها منذ يوم مولدها الأول، قلب نظام الحكم العثماني، وتأسيس دولة مستقلة.

وانبهر الألوف من الرعاع والعاطفين بمبادئها البراقة. والروس من الخلف ينفخون في أبواق نشاطاتها السرية ويوجهونها بقيادة وزير خارجيتهم. وتسلم القيادة، الكونت والضباط الروسي «اسكندر يبسيلانتس» عام ١٨٢٠ م (١٢٣٥) هـ. وخطط لبدء عصيان في الإمارات الدانوبية، فتنتشر من ثم إلى كافة أرجاء البلقان. وكي يحاصر الجزر اليونانية، ويكفل امتداد لهيب الثورة إلى ربوعها، لجأ إلى مهاجمة البغدان في آذار، ودخل بوخارست. ولكن محاولته باءت بالفشل. ولجأ إثر انتكاسته إلى إضرام نار الثورة في بيلوبونيس[١٢] والجزر اليونانية في ربيع عام ١٨٢١ م الموافق ١٢٣٦ هـ.

والجدير بالذكر، أن تحريض القيصر الروسي الأول لإيجاد هذه الجمعيات، ما كان سوى محاولة رخيصة منه لافتعال الأزمات والمشكلات العثمانية والعمل لتطفو على السطح ويتهيأ الجو لتنفيذ وصية بطرس الأكبر.

وانتشرت جمعية (صداقة الإخوان) في كافة أرجاء اليونان وفي إقليم موره. وبلغ عدد أعضائها ما ينوف على العشرين ألفاً أوائل عام ١٨٢١ م (١٢٣٦) هـ. وكلهم من الشبان الأقوياء القادرين على حمل السلاح. وتهيأت بعض الظروف التي أتاحت لها الوقوف على قدميها، إذ انشغلت الدولة بقمع تمرد (علي باشا) والي يانية.

ولكن القيصر الروسي، رفض منح الدعم الكامل للعصاة في تلك المرحلة. فعندما هاجم «يبسيلانتس» البغدان خذله. وانتهت المحاولة بالفشل كما ذكرت. كما أن الإنتفاضة لم تحدث في عموم البلقان. وفضلاً عن ذلك فقد

(١٢) بيلوبونيس: وهي ما عرفت منذ القرن الرابع عشر الميلادي باسم (موره).

اصطدمت الحركة اليونانية في الإمارات الدانوبية مع حركة رومانية مشابهة.

وأجبر «يبسيلانتس» على الهرب، بعد الهزيمة المنكرة التي حلت به أمام الفصائل العثمانية في « دراغاجاني »[١٣]. ولكن الدعم الخارجي سرعان ما انصب على الجمعية، إثر النشاط المحموم الذي قامت به، ولانشغال الدولة بتمرد علي باشا في أبيروس.

ثم حدثت انتفاضةٌ في البر اليوناني. ورفع المطران «جيرمانوس» في ٢٥ آذار راية الثورة فوق دير «آغيالافرا» في «بيلوبونيسوس». ودخلت الثورة اليونانية في ثلاث مراحل: ١ ـ مرحلة النجاح المحلي ١٨٢١ ـ ١٨٢٥ م. ٢ ـ مرحلة الأزمات الناجمة عن تدخل محمد علي باشا عام ١٨٢٦ ـ ١٨٢٨ م. ١٢٤١ هـ ـ ١٢٤٣ هـ. ٣ ـ عهد التدخل الأوروبي الذي انتهى باعتراف الدولة العثمانية باستقلال اليونان عام ١٨٣٢ م (١٢٤٨) هـ. وتوسعت آفاق الثورة بسرعة فائقة. وشملت بيلوبونيسوس وأواسط اليونان وجزيرة كريت. واحتل الثوار «ميسولونغي»[١٤] ـ «أثينا» ـ «ثيبيس»[١٥]. وهذا ما سنستعرضه ببعض من التفصيل:

وجهت الدولة العثمانية «خورشيد باشا» إلى بلاد اليونان، للقضاء على فتنة والي يانية. وانتهت الحملة بمقتله يوم ٥ شباط عام ١٨٢٢ م ١٢٣٧ هـ. ولكن المتمردين تغلبوا على القائد العثماني، وهو الذي قهر والي يانيا. وآثر الموت على تحمل عار الهزيمة. وأدى الفشل إلى حرق المراكب العثمانية يوم ٢٧ رمضان من عام ١٢٣٧ هـ الموافق ١٨ حزيران عام ١٨٢٢ م في ميناء «ساقز».

---

(١٣) هزيمة دراغاجاني: جرت معركة دراغاجاني في ١٩ حزيران عام ١٨٢١ م (١٢٣٦) هـ. وفيها هزم العثمانيون قوات التمرد اليونانية «فيلكي ايتريا» وأنهى العصيان المسلح اليوناني الأول الذي هدف إلى قلب الحكم العثماني في البلقان، وإقامة دولة يونانية مستقلة. وتبعد بلدة دراغاجاني ١٤٥ كم عن بخارست باتجاه الغرب.

(١٤) ميسولونجي: مدينة ساحلية يونانية تقع إلى الشمال الغربي من خليج باتريكو وخليج كورنثة. احتلها الثوار في صيف عام ١٨٢٢ م وكذلك ثيبس وأثينا. وهي مفتاح قلعة كورنث.

(١٥) ثيبس: تقع إلى الشمال الغربي من أثينا. وهي عاصمة بوتيا.



الثورة اليونانية وحملة ابراهيم باشا.

واستشهد نتيجة هذه الحوادث المؤلمة ثلاثة آلاف بحار مسلم بعد أن تم تحرير جزائر «ساموس»[١٦] و«ساقز» وغيرها من أيدي العصاة وأعمال القتل والتدمير في صفوفهم. واستمرت الحرب ولم تتوقف.

ولما رأى السلطان محمود ما ألم بجيشه من هزيمة مرّة، أمام اليونانيين المعتصمين بالجبال، أمر محمد علي باشا والي مصر، في محاولة منه لصرفه عن طلب الإستقلال في شؤون مصر بقمع الفتنة. وصدرت الأوامر بتعيينه والياً على جزيرة كريت وإقليم المورة، حيث الثورة الملتهبة. وفي الحال استعدت ألوية من المصريين المشاة بلغ تعدادها سبعة عشر ألفاً من الجنود المدعومة بالمدفعية والفرسان. وقاد ابنه البكر الجيش برفقة (سليمان باشا الفرنساوي) كمستشار وخبير عسكري. وأبحرت السفن من ميناء الاسكندرية في يوم ١٩ ذي القعدة عام ١٢٣٩ هـ الموافق ١٦ تموز من عام ١٨٢٤ م. ويممت الحملة وجهها شطر رودوس كي تلتقي هناك بالقوة العثمانية، كما هو مقرر من قبل.

وانتقل إبراهيم باشا إلى كريت، بعد أن أوكل سليمان باشا، مع حامية كافية في رودوس. ووصل إلى كريت واحتلها. ثم قصد سواحل المورة. وتمكن من إنزال جنوده في ميناء «مودون»، حيث المدينة الوحيدة التي تبقت بأيدي العثمانيين باستثناء كورون[١٧]. وأسرع ابراهيم باشا لمد «كورون» ـ المدينة التي يحاصرها اليونانيون ـ بالرجال والذخيرة. ثم فتح «ناورين»[١٨] بعد حصار شديد، ودخلها في ٢٨ رمضان عام ١٢٤٠ هـ الموافق ١٦ مايس عام ١٨٢٥ م. ثم فتح «كلاماتا»[١٩] و«تريبولستا»[٢٠]. ولم يفلح

---

(١٦) جزيرة ساموس: تقع قرب البر الأناضولي في بحر إيجه إلى الجنوب والغرب قليلاً من مدينة إزمير.

(١٧) كورون: وهي ميناء صغير يقع على رأس في جنوب جزيرة موره.

(١٨) ناورين: وفي جليجها جرت المعركة في ٢٠ تشرين أول عام ١٨٢٧ م (١٢٤٣) هـ. وهو خليج عميق وصغير في مديرية مسينيا في الجنوب الغربي من موره.

(١٩) كلاماتا: تقع إلى الجنوب من شبه جزيرة موره.

(٢٠) ثريبولستا: في وسط شبه جزيرة موره.



رشيد باشا في محاولة حصار مدينة «ميسولونجي» نظراً لموقعها الجغرافي وتسرب الإمدادات البرية إليها سراً. واستنجد بقوات إبراهيم باشا الذي أسرع لتلبيته. وبعد عناء شديد تم فتحها. ودخلتها الجيوش العثمانية في ١٤ رمضان عام ١٢٤١ هـ الموافق ٢٢ نيسان ١٨٢٦ م. وأخيراً فتحت «أثينا» وقلعتها الشهيرة، رغم استماتة اللورد «كوشروان» الإنكليزي في الدفاع عنها. وكان قد عينه اليونانيون العصاة قائداً عاماً لجيوشهم البرية والبحرية عندما اختلفوا فيما بينهم حول منصب القيادة العامة.

## الثورة اليونانية والصليبية، وموقعة ناورين:

إن المقاومة التي أبداها العصاة المتمردون، لم يكن من المعقول استمرارها، لولا الدعم الصليبي الأوروبي. فمنذ الساعة الأولى التي رفعت فيها راية الثورة، تشكلت في أوروبا جمعيات محبي اليونان كما ذكرت سالفاً.

إن تاريخ اليونان وأدبها، كان منتشراً وشائعاً لدى الأوروبيين. ولا يختلف في هذا الأمر اثنان. وهذا هو الدافع الذي حرك الأطماع الصليبية وأجج الأحقاد القديمة. وأعطى الحرب بين المسلمين والصليبيين التي لم تنقطع دفعة قوية إلى الأمام.

وهكذا جمعت التبرعات، وتدفقت الأموال إلى جيوب الثائرين. وانهالت سيول الأسلحة والذخائر. وانتظمت صفوف المتطوعين وأرتالهم في أعداد لا حصر لها. والأمر الذي يلفت النظر، كان تطوع المشاهير من رجال الفكر والأدب في أوروبا، ممن ينعتون أنفسهم بعدم التعصب الديني وبالتفكير الحر، وتقديمهم أنفسهم وأرواحهم لهذه الثورة. وحتى أميركا قامت بتقديم المتطوعين من أبرز رجالها. ووقف اللورد بيرون، الشاعر الإنكليزي وغيره، حياتهم، لما أسموه زوراً وبهتاناً، امتهان الحرية والكرامة. وطارت شهرة القصائد التي نظمها الشاعر الفرنسي «فكتور هوغو» و«كازيمير دولافين» الناظم الشهير. وألهبت عواطف الأوروبيين. وتحركت نار قديمة كمنت تحت الرماد. والجدير

بالذكر أن ما يجري اليوم في بلاد العرب والإسلام، على أيدي أحفاد اولئك الحاقدين، شبيه بما جرى في الماضي القريب والبعيد.

لم يرق للدول الأوروبية ما أحرزه الباب العالي من نصر مؤزر. واحتج الغرب بحماية اليونان وتدخلت دوله تحت اسم المسألة الشرقية، كي يتمكنوا من تقسيم الدولة العثمانية. ولم يعر الروس أذناً صاغية للنصيحة العثمانية بعدم دعم الثوار وحمايتهم. وهذا أمر طبيعي. واستمروا في طغيانهم وغيّهم وهم يطمحون في تحقيق أهدافهم القديمة. وجرت مفاوضات ولكن دون جدوى. والباب العالي يرفض محاولات التدخل في شؤونه. ثم مات القيصر الروسي «اسكندر الأول» وتولى الحكم «نيقولا الأول» فاتّبع الخطط السابقة وتواطأ مع الإنكليز. واضطر الباب العالي من ثم إلى التوقيع على معاهدة آق كرمان في ٢٨ صفر عام ١٢٤٢ هـ الموافق ايلول من عام ١٨٢٦ م.

واشتد غيظ الدول الأوروبية من الإنتصارات العثمانية. ولجأ الإنكليز إلى دهائهم المعهود وعرضوا وساطتهم. ولكن الباب العالي رفض تدخلهم بشؤونه الداخلية. وأجاب بأنه لن يسمح مطلقاً بهذا العمل. وازداد غيظ الأعداء وحقدهم. واتفقوا في ٦ تموز عام ١٨٢٧ م على إلزام الدولة العثمانية بالقوة منح الإستقلال الإداري لليونان، شريطة دفع الجزية المحددة. وأمهل الباب العالي مدة شهر واحد كي يوقف حركاته العسكرية ضد اليونان. ولكنه لم يأبه بما يدبرون ويكيدون.

وبعد شهر من التاريخ المحدد، أصدرت الدول أوامرها إلى أساطيلها البحرية، بالتوجه إلى سواحل اليونان. وطلبت من إبراهيم باشا ايقاف القتال. ولكنه لم يقبل واكتفى بهدنة مدتها عشرين يوماً، ريثما تصدر التعليمات الجديدة.

واجتمع الحلفاء الصليبيون في ميناء ناورين. وقرروا محاصرة الأسطول العثماني والمصري. والحيلولة دون خروجهما من الميناء. وعين اللورد



«كودرنجنون» أميرالاً للأساطيل الإنكليزية، وقائداً عاماً لأساطيل الدول المتحالفة. وسرعان ما نشب القتال بين الطرفين لأوهن الأسباب. وسلطت نيران المدافع المتحالفة على السفن العثمانية وجرى تدميرها. واستمر القتال بضع ساعات.

وهكذا حقق الغرب الصليبي نصراً آخر على المسلمين. وظن الفرنسيون أنهم استعادوا سمعتهم وشرفهم الذي فقدوه إثر ما ألم بهم من عار وانهزام على يد بونابرت. ولكن الإنكليز خشوا من محاولات الفرنسيين قطف ثمار النصر وتدخلوا. وكان الرابح الوحيد هم الروس.

ووصلت أخبار الهزيمة المره إلى مسامع السلطة العثمانية في العاصمة. وبادرت لتوها إلى نشر بلاغ وجهته إلى سفراء الدول الثلاث. واستنكرت العمل المجحف المرتكب والمخالف للقوانين الدولية. وطلبت من الجميع عدم التدخل ودفع التعويضات. ولكن الحلفاء لم يلقوا بالاً لهذا الإحتجاج، بل قطعوا علاقاتهم مع الباب العالي. وأصدر السلطان مرسوماً عاماً بيّن فيه شراسة الحملة الصليبية الموجهة ضد المسلمين، وبين أهدافها وخاصة ما يبيته الروس، وأن الهدف من المؤامرة هو الإسلام لا السياسة. وحض المسلمين على الجهاد دفاعاً عن عقيدتهم.

وحنقت روسيا على العثمانيين نتيجة لما حدث. وأعلنت الحرب في شوال من عام ١٢٤٣ هـ الموافق ٢٦ نيسان عام ١٨٢٨ م. وانسحب إبراهيم باشا من موره بعد علمه بمراوغات الدول وبخطط فرنسا إرسال جيش لقتاله وتحقيق استقلال اليونان، ولتلقيه أوامر من والده. ورجع على ظهر السفن المصرية التي تبقت لديه. وترك بعض الحامية ريثما تتسلم الدولة العثمانية زمام الأمور. وبدأ انسحاب الجنود المصريين دون الوصول للهدف المنشود. وفي ٨ جمادي الآخره عام ١٢٤٤ هـ الموافق ١٦ تشرين ثاني ١٨٢٨ م، عقدت الدول المتحالفة الثلاث مؤتمراً لتقرير أحوال اليونان في لندن. ودعيت الدولة العثمانية إلى حضوره. ولكنها رفضت ولم يعبأوا لرفضها. وقرروا الإتفاق حول استقلال

موره وبعض الجزر، وتشكيل حكومة يرأسها حاكم نصراني تنتخبه الدول ويكون تحت حمايتها. وأن تدفع الحكومة اليونانية للباب العالي جزية سنوية مقدارها خمسمائة ألف قرش. ورفض الباب العالي هذه القرارات والتفت إلى قتال الروس الذين أعلنوا الحرب عليه بعد تدمير أسطوله وقبل إتمام استعدادته وتشكيل جيشه النظامي الجديد.

### ٣ ـ رومانيا في أوائل القرن التاسع عشر:

عند إلقاء نظرة سريعة إلى الخارطة الجغرافية في ذلك الحين، يتبين للمرء وجود جارتين قويتين تحيطان بالولايتين الرومانيتين هما روسيا وامبراطورية النمسا. ومن الوجهة التاريخية كانت الدولة العثمانية آنذاك هي صاحبة الحق الشرعي في هاتين الولايتين. «الفلاح والبغدان» وقد وقعت بسارابيا تحت الإحتلال الروسي منذ عام ١٨١٢ م (١٢٢٧) هـ. ووضعت النمسا يدها على ترانسلڤانيا و«تيمسوار» و«بوكوڤينا».

ومن الوجهة الإجتماعية، فقد تقلد الفنار والبويار والكنيسة مقاليد الحكم. وعانى الفلاحون من أوضاع سيئة تحت ظلهم.

وكان المورد الإقتصادي الهام في البلاد هو تصدير الحبوب. وساعد في ازدهار البلاد التي انتعشت أيضاً، للحركة التجارية السائدة في الدانوب وموانىء البحر الأسود.

أدى ظهور الطبقة الرومانية الوسطى، إلى المساهمة في إذكاء روح الإنفصال والاستقلال عن الدولة العثمانية. وتمكن الأثرياء من إيفاد أبنائهم إلى غربي أوروبا لتحصيل العلم والمعرفة وتلقف المبادىء القومية الحديثة. وهذا ما أدى بهم في نهاية الأمر إلى أخذ مواقعهم كبدلاء لليونان والسلوڤين واللاتين من المحافظين القدامى. واستوردوا معهم نوعاً من الثقافة الرومانية القومية الخاصة.

وفي الوقت الذي كانت فيه الثورة اليونانية في أوج اشتعالها، كانت



حركة رومانية قومية انفصالية تعمل في خط مواز لها، ويتزعمها (ڤلاديميرسكو).

ولد «تيودور ڤلاديميرسكو» في بلدة «ڤلاديميري» الواقعة في ولاية الفلاخ عام ١٧٨٠ م (١٢٨٧) هـ. وخدم في شبابه كضابط في الجيش الروسي. ثم تأثر بالحركات الإستقلالية الصربية التي ذكرت. وابتدأ بالتالي في إيجاد تحالف مع التنظيمات الثورية اليونانية «فيلكي ايتريا» التي كان ينتسب إليها، تلك الحركات التي عملت لقلب نظام الحكم العثماني في كافة أرجاء البلقان.

وبعد أن قويت شوكة الإيتيريين البغدانيين، تحت قيادة الأمير «اسكندر يبسيلانتس» في آذار من عام ١٨٢١ م (١٢٣٦) هـ، ضعف مركز «فلاديميرسكو» فتنحى جانباً وتنصل من القيادة الثورية في الولايتين الرومانيتين. ثم بادر إلى تنظيم حركة شعبية في الأفلاق وهدفت الحركة إلى إقصاء الإدارة اليونانية التي عينتها الدولة العثمانية. وطرح وعوداً ورفع شعارات ونسج آمالاً حول إنهاء النهب الارستقراطي الوطني الروماني الذي تمارسه طبقة البويار.

ونال في البداية التأييد الشعبي نظراً لانخداع الجماهير الرعناء بالشعارات الخداعة التي رفعها. وارتفع بدعم من هذه الجماهير إلى مصاف القيادة. وأمام سحر المنصب وجاذبية الجاه والقيادة، فترت اندفاعته الثورية. ولجأ للتواطؤ مع من كان يدعو إلى إزاحتهم بالأمس، وجامل الحكومة في بخارست. وهكذا تراجع التأييد الشعبي له وخابت آمال الجماهير.

اشتملت خطط فلاديميرسكو الإصلاحية على انتخاب جمعية وطنية وتشكيل جيش وطني إضافة إلى اصلاحات معينة في الجهاز الضرائبي. ولكن عزلته التي شعر بها، ومركزه الذي تهدد، دفعه إلى التفاوض مع العثمانيين المتقدمين بقواتهم المسلحة. وسرعان ما اعتقل من قبل الإيتيريين وأعدم في صيف عام ١٨٢١ م (١٢٣٦) هـ. وأخمد العثمانيون حركته. وأشرف الحكم اليوناني الفناري هناك على نهايته عام ١٨٢١ م كما ذكرت. واستبدل بحكم الوجهاء البويار الذي عيّنه الباب العالي. ولكن الروس لم يلبثوا أن احتلوا الإمارتين

إبان الحرب الروسية التركية لعام ١٨٢٨ م. ولن اتحدث هنا عن سير المعارك ولكني سوف أعطي فكرة عنها، للصلة الوثيقة التي تربطها مع الأفلاق والبغدان.

استغل الروس الهزيمة العثمانية التي حلت في ناورون. وتقدمت جيوشهم حتى نهر الطونه، واحتلت عدة مدن واقعة على ضفتيه. ثم حاصرت قارنه. ولم تتمكن من احتلالها للبسالة العثمانية التي ظهرت. ثم جاء دور الخيانة ولعبت دورها فسلمت لهم آنذاك. ثم جرى احتلال عدة حصون وقلاع بعد ذلك. ووصلوا أدرنة. وهيأت لتقدمهم بعض الظروف المساعدة كان على رأسها حداثة الجيوش العثمانية المنتظمة وقلة عددها بعد إلغاء الإنكشارية.

خشيت انكلترا وفرنسا من هذا التقدم الروسي. وتوسطت مملكة بروسيا، فأوقف الروس مسيرة جيوشهم. ثم جرت مفاوضات بين الطرفين قضت بإعادة ما احتله الروس من البلاد العثمانية بعد الحرب.

وقضى البند الخامس من المعاهدة التي رقعت، باحتفاظ الأفلاق والبغدان بالإمتيازات السابقة وبالحرية الدينية والحكم الذاتي والإدارة الأهلية المستقلة وحرية التجارة. وجاء في البند الحادي عشر أن تبقى الإدارة الروسية في الإمارات حتى الجلاء التام من الأقاليم المحتلة، وأنه لا يمكن للباب العالي التدخل بأي كيفية كانت.

ووضع ملحق خاص بولايتي الأفلاق والبغدان ومما جاء فيه: أن يجعل منصب حاكم الولايتين مدى الحياة. وتعهد الباب العالي عدم المس بالامتيازات الممنوحة للولايتين وبإزالة الحصون، وعدم تشييد أي بناء لرعاياه المسلمين على الشاطىء الأيسر من الدانوب. كما أكد على عدم إمكانية أي مسلم اتخاذ مسكن ثابت في بقعة منها. وأن تسلم البلاد العثمانية الواقعة على الشاطىء الأيسر من الدانوب إلى الأفلاق، وكذلك الحصون. كما أنه أجبر الذين يمتلكون عقارات على الشاطىء الأيسر ببيعها للوطنيين. وقد أعفيت الولايتين من تقديم الحبوب والأغنام والأخشاب والمحصولات الأخرى. وقضى



بعدم الطلب من سكان هاتين الولايتين بأي حال من الأحوال الإشتغال بالحصون أو السخرة. وأوجب أخيراً تمتع سكان الإمارتين بحرية التجارة وإعفائهم من دفع الخراج السنوي مدة سنتين ابتداء من اليوم الذي تنجلي فيه الجيوش الروسية تماماً عن الإمارتين.

ولجأ الروس بعد احتلالهم أراضي الولايتين العثمانيتين، إلى تعيين لجنة من النبلاء لوضع دستور جديد. وهو الدستور الذي أوحى به الروس. وأصبح «ريغلمنت». القانون الأساسي في الأفلاق في تموز من عام ١٨٣١ م (١٢٤٧) هـ. وفي البغدان في كانون الثاني من العام التالي. واضطرت الدولة العثمانية تحت ظروف الحرب إلى إقرار الوضع الجديد عام ١٨٣٤ م (١٢٥٠) هـ. ولو نظرنا في بنود الدستور الجديد الذي أوحى به الروس، لوجدناه يدعو إلى تشكيل لجنة خاصة قوامها البويار، وبعضاً من أبناء الطبقة الوسطى، تنتخب أميراً لكل إمارة يرشحه أبناء البويار ونظرائهم من النبلاء. وطبقاً لأحكامه فإن السلطة السياسية العليا تكون بأيدي البويار.

أما الفلاحون فقد خفضت مساحة الأراضي الزراعية المعدة لهم. وهيىء النبلاء في الوقت ذاته ليصبحوا مالكين. وتعرض الفلاحون للإضطهاد وهضم الحقوق والإجحاف بشكل منقطع النظير. وزادت أيام العمل التي يؤدوها لدى الإقطاعيين طبقاً لأحكامه. كما أجبروا على البقاء في قراهم. ومنعوا من الهجرة وأثقلوا بالقيود التي زادت في فداحة وضعهم المأساوي، حتى لاحت بوادر أمل جديد لهم أثناء انتفاضة عام ١٨٤٨ م (١٢٦٤) هـ. ولكن جماعة «ريغلمنت» أعادت تنظيم نفسها بعد إخمادها آنذاك. واستمرت في ممارسة الحكم تحت الحماية الروسية حتى تم تشكيل جمعية تشريعية جديدة بعد انتهاء الحماية الروسية عام ١٨٥٦ م (١٢٧٣) هـ. وهكذا كان الروس يطمحون من وراء احتلال الولايتين العثمانيين الرومانيين إلى تثبيت موطيء جديد لأقدامهم، وترسيخ أوضاعهم العدوانية السياسية والعسكرية. إنهم أرادوا احتلال بلاد الشراكسة. فأبعدوا الدولة العثمانية عن مصبات الدانوب وما حوله، كي لا

تحول بينهم وبين المسلمين إخوانهم في العقيدة. لقد استغلوا الضعف العثماني والوضع العسكري الداخلي، ومنعوا الدولة من إتمام بناء جيشها وأسطولها الحديث، وأغرقوها بالديون الباهظة. إن الروس كانوا يتحركون من موقع الحقد والكراهية والتعصب ـ فالمسلمون القاطنون في الأفلاق والبغدان يجب أن يرحلوا في مدة ثمانية عشر شهراً فقط. ولا يمكن لأي مسلم أن يتخذ مسكناً ثابتاً في أي بقعة من هاتين الولايتين طبقاً للبنود المنصوص عنها في المعاهدة.

ووافقت الدولة العثمانية، وأمليت عليها شروط المنتصر. ولكن العدو الحاقد لا يهتم إلا بمصلحته ولا يلتفت إلى إجراء الأعمال العمرانية والإنشاءات إذا لم يكن هو الرابح الوحيد من جراء تنفيذ خططه.

إن الروس لم يهدفوا إلى تحسين أوضاع أبناء الولايتين العثمانيتين الإجتماعية كما يدّعون، بل هدفوا إلى بسط سيطرتهم، عن طريق عملائهم الذين باعوا ضمائرهم للأجنبي بثمن بخس فكانوا دمىً صغيرة في يدهم يحركوها كيفما يشاؤن.

إن ادّعاءهم نصرة الضعيف والمظلوم، لم تزد أحوال البائسين إلّا بؤساً. فالقيود الجديدة قد فرضت على الفلاحين الرومانين. وأخيراً أدرك أولئك المساكين حقيقة الأمور وعادوا إلى صوابهم وتبين لهم بما لا يدعوا للشك أو الريب، أن العثمانيين كانوا أرأف بهم حالاً من أولئك المستعمرين الذين ينتسبون إليهم في العقيدة، وان السياسة الاقتصادية السابقة، والعلاقات الإقطاعية القديمة، كان فيها الكثير من الإنصاف والعدل نسبة لما ابتلوا به على أيدي الروس وعملائهم المأجورين.

## ٤ ـ العثمانيون والبلغار في أوائل القرن التاسع عشر:

إن الموقع الجغرافي الذي تتمتع به بلاد البلغار، وسط الدولة العثمانية، جعل من اليسير أن يكون اقتصادها ذو أهمية كبيرة في الدولة العثمانية والسوق



العثمانية. كما جعل من اليسير توارد التيارات اليونانية القومية على أبنائها. وبذا تفجرت لديهم مصادر الإندفاع القومي العاطفي فتفاعلت مع الأوضاع الإقتصادية الداخلية، والفعاليات الإجتماعية الخارجية. فضلاً عن الدور المهم الذي لعبته المستعمرات البلغارية في منطقة البحر الأسود.

وزاد انحطاط الدولة العثمانية من تفاقم الأمور. وانعكست الأوضاع السيئة على الفلاحين البلغار فساء وصفهم. وانتشرت العصابات المسلحة ما بين عامي ١٧٩٢ م ـ ١٨١٥ م. (١٢٠٧) هـ ـ ١٢٣٠ هـ. في سائر أرجاء بلغاريا. وهي العصابات المعروفة باسم «كردازلي» المؤلفة من كبار اللصوص وقطاع الطرق. فعاثت فساداً في الأرض، وهاجمت السلطة المركزية المناوئة لها. وقتلت السكان الآمنين، واحرقت الممتلكات لمدة عشرين عام كاملة.

كان تمرد الإقطاعي الشهير «عثمان باشوان أوغلو» أكثر القلاقل أثارة. وقد احتل في عام ١٧٩٤ م (١٢٠٩) هـ، قلعة ودين، وحكم بصورة مستقلة عن العثمانيين. ولم تعجبه الإصلاحات التي جرت في الدولة العثمانية. وما أن أعلن التمرد حتى انضم إليه العديد من أبناء الصرب أيضاً. وسرعان ما تحولت الأراضي البلغارية إلى مسرح للعمليات. ولجأ الباب العالي ألى استخدام العنف ضد المتمردين. وازدادت النقمة بين صفوف البلغار. وامتنع اصحاب الأراضي وملاكها عن دفع الضرائب وتهربوا. فصودرت أراضيهم وضمت إلى الدولة. وأعلنت الدولة توزيعها على الشوربجيه. ونشأت طبقة من صغار الملاك البلغار وغيرهم. وأرسل الباب العالي «كوجك حسين باشا» لقمع ثورة المترد عثمان باشوان أوغلوا. ودارت مناوشات عدة بين المتمردين وقوات الحكومة. وخشي الوزير العثماني آخر الأمر من انتشار الفتنة واستغلالها لإشعال عصيان جديد. واضطر إلى منحه ولاية (ودين) يحكمها مدى الحياة. وانتهى التمرد عام ١٧٩٧ م الموافق ١٢١٢ هـ.

كان المتطوعون البلغار قد اشتركوا في الثورات الصربية واليونانية ولعبوا دوراً هاماً وفعالاً شبيهاً بالدور الذي لعبوه في الحرب الروسية التركية. وبحثت

اللجان البلغارية في بخارست، أثناء حرب ١٨٢٨ م (١٢٣٧) هـ، موضوع مطالبة الروس الحقوق نفسها التي منحت لصربيا واليونان والإمارات الدانوبية. وقاد «جورجي مامارتشيف» انتفاضة فاشلة وغير مجديه عام ١٨٢٩ م (١٢٤٥) هـ في «سيلفن»[٢١]. وانتهت محاولة أخرى قام بها التاجر التورنوفي «فيلشو آتاناسوف» عام ١٨٣٥ م (١٢٥١) هـ بالفشل. وألقى القبض عليه وجرى إعدامه. تفتحت بواكير الإنتفاضة البلغارية عند بداية القرن. ، وأخذت طابعاً أدبياً حتى عام ١٨٣٠ م (١٢٤٥) هـ. وكان الرهبان اليونان يقومون بشؤون التعليم الإبتدائي في المدارس. وذاعت شهرة القس «باييسي خلندارسكي» بعد عام ١٧٦٢ م (١١٧٦) هـ، عندما انتهى من وضع كتابه: التاريخ السلافي البلغاري ـ ذلك الكتاب الذي اعتمد التحريض ضد العثمانيين، والدعوة لفكر وانبعاث قومي. وساعده مركزه الوظيفي، كمرشد لقوافل الحجاج إلى مختلف الأديرة والأماكن الدينية في بلغاريا. واتخذ من تعصبه الديني موضعاً لإثارة الحماس ضد المسلمين.

دعى «خلندارسكي» البلغار إلى تعلم اللغة البلغارية وافتتاح المدارس. واحتج على تحويل بلغاريا إلى مقاطعة يونانية خاضعة للكنيسة اليونانية. ودفعت له المبالغ الطائلة كي ينشر كتابه. وشارك العديد من الناسخين والخطاطين في العمل. واعتمد الكتاب في الكنائس كمادة تعليميه. وكان من آثاره تحريك عواطف الشباب والمراهقين وأبناء العصابات، وتقوية مراكزهم. كما كان له دور يذكر في التأثير على العالم البلغاري «بيترو بيرون».

وهكذا استبدلت تدريجياً المدارس السابقة بالمدارس البلغارية الهيلينية. وجرى تحديث التعليم. وقام البلغار مع اليونان في العمل. ولكن الاندفاع القومي نحو بلغرة التعليم، لم يجر بشكل رئيسي إلا بعد الهجرة من الإمارات الدانوبية وروسيا.

---

(٢١) سيلفن: مدينة بلغارية تقع في وسط وشرق بلغاريا على السفوح الجنوبية لجبال البلقان الشرقية.





ورافق هذه التطورات، بروز الحاجة الملحة إلى وجود المدرسة البلغارية والكتاب البلغاري. وعاد الكثير من أبناء البلاد الذين درسوا في الخارج إلى بلادهم، يحملون المبادىء الجديدة وينتصرون لها. وقاموا بإنشاء المدارس. وكان «بيترو بيرون» في مقدمتهم. وهو الذي بادر إلى طبع كتاب خاص عن التدريس الحديث. وكي يشحن الشعب البلغاري بالمبادىء القومية، فإنه أسس مدرسة في مدينة «غابروفو»[٢٢]. وحقق نجاحاً كبيراً. ثم انشئت على غرارها عدة مدارس مماثلة وشملت فيما بعد كافة المدن البلغارية. لم تلبث جهود الأب «بايسي» أن فشلت، ولم تعط الثمار المطلوبة. وبينما كانت الدولة العثمانية منشغلة منذ بداية القرن في حروب طاحنة مع أعدائها، استغل رجل دين آخر هو «سوفروني فوتشانسكي» الوضع الراهن. ولكنه فشل وعجز في تنظيم حركة عصيان مسلح ضد السلطة الحاكمة، رغم كتاباته، التي ساعدت في إكمال عمل سابقه، وكأنها مرحلة تحضيرية فكرية، لحركة عصيان مسلح منظم.

كان «سوفروني فرتشانسكي» من أشد المتحمسين للثقافة البلغارية، واللغة السلافية البلغارية. وأول كتاب له طبع وعرف في الأدب البلغاري الحديث، كان بعنوان «نيدلنك» حيث صدر في عام ١٨٠٦ م (١٢٢١) هـ. فبلور وعمق فكرة التعليم البلغاري العلماني، ونظم حركة التدريس وانشاء المدارس الدينية المعدّة لمقاومة الحكم العثماني.

---

(٢٢) غابروفو: مدينة بلغارية، تقع في وسط بلغاريا عند السفوح الشمال لجبال البلقان.

# الباب الثامن

## ظهور الدول البلقانية

١ - الدولة العثمانية ويوغوسلافيا.
ظهور الصرب والجبل الأسود.
٢ - العثمانيون وبلغاريا.
حركة راكوفسكي.
٣ - مولد رومانيا.
٤ - العثمانيون والسياسة اليونانية.

وأخيراً أجهزت قوى الأعداء شيئاً فشيئاً على ما أسموه بالرجل المريض. وتصاعدت مخاطر النزعة القومية في شبه الجزيرة البلقانية، ومالت الأحداث إلى التعقيد والفشل في معظم الأحيان عند تطبيق الإصلاحات العثمانية في القرن التاسع عشر. وهذا ما أرادته أوروبا.

واكتسبت الحركات الإنفصالية دفعة جديدة إلى الأمام. ووصلت إلى أوجها بما سمي بالمسألة الشرقية لعام. ١٨٧٠ م ـ ١٨٨٨ م [١٢٨٧ ـ ١٣٠٥] هـ. وتميز القرن بظهور دول بلقانية مستقلة عن الكيان العثماني وهي: رومانيا ـ الجبل الأسود ـ بلغاريا.

### ١ ـ الدولة العثمانية ويوغوسلافيا:

في صدد بحثنا حول العلاقات العثمانية اليوغوسلافية، لن نتعرض إلا بشكل لمحات عن أحوال السلوفين والكروات الخاضعين لحكم آل هيسبورغ. فالبعث القومي الكرواتي بدا واضحاً في الحركة الأليريه السابقة الذكر. وهي التي تحولت الآن من حركة أدبية إلى أخرى سياسية، تعارض الحكم المجري، وتدعو إلى توحيد كامل البلاد ومن ثم تخلص إلى تحقيق الحكم الذاتي، واستخدام اللغة العامية في التعليم والحياة العامة.

إن المد الثوري القومي الجارف، والذي بلغ منتهاه عام ١٨٤٨ م

(١٢٦٤) هـ. منح السلوڤين والكروات، تحت ظل آل هبسبورغ، فرصة كي يؤكدوا إصرارهم، على الوحدة السلوڤينية في النمسا الفيدرالية. ويزيدوا من استخدامهم اللغة العامية، ومن التعاون مع السلوڤين الآخرين في الجنوب.

وهكذا وبعد إخماد حركة عام ١٨٤٨ م (١٢٦٤) هـ. خضع اليوغوسلاف، للسياسة النمساوية المركزية. وتجزأت السياسة الكرواتيه بين ثلاث محاور انتقلت من الفدرالية والتسوية الوسط مع المجر، إلى الحكم الذاتي تحت إدارة آل هبسبورغ.

أما الحكم الثنائي النمساوي المجري الذي قام عام ١٨٦٧ م (١٢٨٤) هـ. فقد أدى إلى تسوية بين كرواتيا والمجر تمت في العام الذي تلى ذلك الحدث. كما منحت مملكة كرواتيا نوعاً من الإستقلال الذاتي تحت حكم المجر. إلا أن الفشل كان نصيبهم لعدم تمكنهم من إقناع القوميين المندفعين في كرواتيا.

### الصرب والجبل الأسود:

قلنا سابقاً أن الصربيين توصلوا إلى نوع من الإستقلال الذاتي عام ١٨٣٠ م (١٢٤٥) هـ. وأن الخلافات الناجمة والمحن الطارئة، قد أدت إلى حدوث صراع داخلي بعد تحقيق هذا الاستقلال ثم ازدادت وطأة النزاع الداخلي. واضطر الحاكم «ميلوش أو برينوڤتش» إلى التنازل عن العرش عام ١٨٣٩ م (١٢٥٥) هـ وتولى الحكم خلفاً له ابنه «اسكندر». وبذا ضمنت بعض المكاسب المدنية والسياسية حسب القانون المدني لعام ١٨٤٤ م (١٢٦٠) هـ والذي استصدر بناء على القانون الأساسي لعام ١٨٣٣ م (١٢٤٩) هـ إثر الثورة الفلاحية.

لم تلبث الدول الأوروبية، ذات الأطماع الإستعمارية، أن ذرت قرنها من جديد. وتذرعت بشعارات إصلاح شؤون الرعايا البلقان. فحرّضت الصرب على التمرد، وأعلن قادة الحركات الإنفصالية القومية، عن برنامج



قومي لعام ١٨٤٤ م (١٢٦٠) هـ. ودعوا في برنامجهم إلى اتحاد جميع الصرب، والإقتراب من الأدرياتيك. وكل ذلك بدعم وتأييد من الغرب واليوغوسلاف الآخرين. وتمكن الليبراليون الشبان من إعادة (ميلوش) إلى سدة الحكم من جديد ولكن الأجل لم يمهله أكثر من عامين وخلفه ابنه الأمير مخائيل أو برينوڤتش.

كانت الروح الصليبية الأوروبية تعمل سراً وعلناً. وهي تسعى لإشعال حرب لم تطفأ أوارها حتى الآن ضد المسلمين. ولكنها اتخذت طابعاً قومياً في تلك المرحلة. وطغت الشعارات المعلنة على السياسات الصربية في الستينات من ذلك القرن. وانحدرت سياسة (مخائيل) إلى أقصى اليسار. ودعا إلى بعث بلقاني يشمل عموم البلاد. ودعم سياسة التخالف البلقاني وأذكى نار حرب كانت لا تزال تشتعل ضد العثمانيين.

وانتصرت المجر وبولونيا لهذه الدعوة. وشجع رجال السياسة أمثال (كاڤور) و (بسمارك) الصرب، وكلهم أمل في إضعاف الباب العالي العثماني والإمبراطورية النمساوية معاً.

وبمقتضى المعاهدات الأخيرة، وخاصة معاهدة باريس المؤرخة في ٣٠ آذار عام ١٨٥٦ م (١٢٧٣) هـ جُعلت الصرب مستقلة تحت السيادة العثمانية. وجاء في بنود الإتفاق أن يكون للباب العالي الحق في وضع حامية في ست قلاع منها قلعة بلغراد.. ولكن التعصب دفعهم إلى وضع شروط تحرم المسلمين من السكنى في مناطق خارج هذه الحصون. ولم يكترث المسلمون لهذا الإنحياز الفاضح. ولجأوا إلى الإقامة بين النصارى والتعايش معهم. كما كانت تجري الأمور من قبل. ودعمتهم السلطة العثمانية. ووزعت عدداً من المخافر في كافة أرجاء المدينة بغية حمايتهم.

وخشي الباب العالي من امتداد لهيب الثائرين الصرب، وهو يعلم حجم الإمدادات الأجنبية التي تتدفق عليهم. وبادر على الفور إلى حشد عدد كبير من الجنود. وانطلقت شرارة تسببت عن بعض الإخلال بالنظام لمشاجرات

جرت مع الأهلين فسالت الدماء. وعلم سكان بلغراد، وأبدوا التذمر، وأظهروا العداوة ضد السلطة الحاكمة. وحصل أن تعدى في ذلك الحين أحد السكان على جندي عثماني عام ١٨٦٢ م (١٢٧٩) هـ. فقتله الجندي. وثارت سحابة من الكراهية والتعصب، وانتشرت الفتنة حتى كاد البلاء يغرق البلاد. وبادر القائد العثماني إلى التدخل. واحتمى المسلمون بالقلعة حرصاً على حياة النساء والأطفال.

ثم لجأت الحامية إلى قصف المدينة طوال أربع ساعات متواليات. وجرى اطلاق القذائف من المدافع الرابضة داخل القلعة. وما أن دوّى صوتها إلى مسامع الغرب، حتى أسرع فوراً إلى التدخل لصالح النصارى. وقتل الباشا وأخليت المخافر وانسحب المسلمون إلى داخل القلعة.

أدت هذه الحادثة بالأمير (مخائيل)، إرسال خطاب إلى ناظر الخارجية الإنكليزية طالباً منه التوسط. ولكن الإنكليز كان لهم أهدافاً أخرى، فلم يذعنوا لطلبه، بل نصحوه بالإنصياع للسلطة الحاكمة.

ثم انعقد مؤتمر الآستانة. وحضرته الدول الموقعة على معاهدة باريس، تحت إلحاح من فرنسا وروسيا. وبعد مناقشات طويلة طلبت فرنسا جلاء العثمانيين عن القلاع. ولكن الطلب لم يؤيد. واقتصر الأمر على إخلاء قلعتين فقط من الجنود العثمانيين واحتفاظهم بأربعة منها قلاع (بلغراد) و (سمندريه) و (شباتس).

وطلب الأعداء من الإدارة العثمانية، عدم التدخل في شؤون البلاد الداخلية. ولم يقتصروا على هذا الظلم والإجحاف. بل أجبروا المسلمين القاطنين خارج القلاع على بيع ممتلكاتهم والجلاء عن البلاد والإقامة داخل الحصون فقط. ووقع اتفاق بتاريخ ١١ ربيع الأول عام ١٢٧٩ هـ، الموافق ٨ أيلول عام ١٨٦٢ م.

والجدير بالذكر أن التهجير القسري والتصفية الجسدية، هما الأسلوب



الذي اتّبعه الصليبيون ضد المسلمين في الأندلس قديماً وفي روسيا وبلاد البلقان حديثاً. وهي الطريقة ذاتها التي يحاول اليهود اليوم إتمام تنفيذها في فلسطين كما نفذها الهندوس ضد المسلمين في الهند بالأمس. إنهم جميعاً يدركون أنها الوسيلة الناجحة للقضاء على ابناء هذا الدين بعد فشل حملات التنصير والإرتداد.

وعانى العثمانيون من أوضاع صعبة وحرجة للغاية. واستحال عليهم إصلاح الإدارة في بعض الولايات الأخرى. فالثورات المحلية المدعومة من الأوروبيين أنهكت قواهم، والمعارضة التي يتزعمها الحكام والبيكوات المحليون عرقلت جهودهم وخاصة في البانيا والبوسنه والهرسك. واضطروا المرة تلو الأخرى إلى إرسال الجيوش بين الأعوام ١٨٣٠ م - ١٨٥٠ م. لوضع حد لهذه التمردات.

أما ما جرى في الجبل الأسود، فيقتضي لسرد أحداثه الرجوع قليلاً إلى الوراء. ومن المعلوم أن الحكم هناك كان قد انتقل في عام ١٤٩٩ م (٩٠٤) هـ إلى أيدي الأساقفه. وأن السلطة الدينية والزمنية جمعت في يد شخص واحد. ولكن رئيس الأساقفة بادر للإتصال بالروس وتحول إلى حكم التابع إبان عهد بطرس الأكبر، الذي سلط بطشه وإرهابه المعروف، ونصبّ نفسه قاضياً لإصلاح ذات البين. واستجدى رئيس الأساقفة عطف الإمبراطور الروسي. بصفته رئيساً للمذهب الأرثوذكسي، عندما توجه إلى سان بطرسبورغ طلباً للدعم والتأييد ضد السلطة العثمانية الشرعية.

وعندما تولى الأمير «دانيال» السلطة كحاكم للجبل. فصل السلطة الزمنية عن الدينية. واستبقى على مركز رئيس الأساقفة في أيدي أعرق العائلات. وتقرب من النمسا كي يحافظ على حكمه المستقل عن الدولة العثمانية التي رأت سبباً وجيهاً للتدخل وتقرير سيادتها. وهكذا تقدم القائد العثماني الشهير «عمر باشا» لقتال دانيال عام ١٨٥٣ م (١٢٦٩) هـ. وهرعت النمسا وروسيا للتوسط، وأشغلتاه عن إتمام مهمته. وهو القائد الشجاع الذي

عرفوا هم أنفسهم شجاعته وأرهبتهم حنكته. ولكن الدولة العثمانية اضطرت تحت ضغط الأحوال الطارئة ايقاف العمل العسكري.

وطلب الأمير دانيال من مندوبي الدول الإعتراف باستقلاله أثناء انعقاد مؤتمر باريس بعد حرب القرم. ولكن اللعبة الصليبية العالمية كان لها مخططات أوسع، وتنفذ على مراحل كما هو الحال اليوم. ونصحوه الإنقياد للدولة العثمانية، مقابل إعطائه قسماً من بلاد الهرسك لتوسيع حدوده. ومنح رتبة مشير، وصرف له مرتب مالي من باب المساعدة. والتزم بالإنصياع لأسياده الأوروبيين وفي نفسه طموحات مستقبلية.

وعندما نشبت بعض المعارك بين سكان الجبل الأسود والدولة العثمانية عام ١٨٥٨ م (١٢٧٥) هـ من أجل نقاط الحدود، عادت الدول الأوروبية للتدخل من جديد. وحالت دون نشوب القتال وانتشاره، وعينت لجنة من مندوبين عثمانيين وأوروبيين وجبليين لحسم النزاع. ثم قتل الأمير دانيال في ٢٥ محرم عام ١٢٧٧ هـ الموافق ١٣ آب عام ١٨٦٠ م، فتولى زمام الأمور ابن أخيه الأمير (نيقولا). وانتهز الإنفصاليون فرصة حدوث انتفاضة الهرسك وبادروا إلى العصيان. ولكن عمر باشا الذي أرسل لإخماد ثورة الهرسك سحقهم. وحاصر إمارة الجبل. وأمر (نيقولا) بأن يحل جيشه فلم يذعن. واندلع القتال. وتقدم القائد العثماني صوب الجبل من ثلاث اتجاهات. والتقت الجيوش الثلاثة في قلب الجبل، بعد أن اكتسحت قوات المتمردين وقضت على معاقلهم. وأرغمت الأمير نيقولا التوقيع على الشروط الجديدة في ٣١ آب عام ١٨٦٢ م الموافق ٤ ربيع الأول عام ١٢٧٩ هـ.

وبموجب هذه الشروط، يبقى والد الأمير خارج الجبل. وتبني الدولة العثمانية حصوناً وقلاعاً على الطريق الموصلة بين مدينة أشقوده وبلاد الهرسك مارة ببلاد الجبل. وجرى العمل فوراً في بناء حصن داخل البلاد على خلاف ما جرت عليه العادة من قبل.

لم ترق هذه المعاهدة للقوى الأوروبية كالعادة. وادّعت أنها مجحفة بحق



أمة مسيحية. والحت فرنسا وبروسيا على الباب العالي عدم إبعاد الأمير (ميركو) والد (نيقولا). وتساهل العثمانيون من قبيل الشفقة، رغم استمرارهم في التصميم على بناء الحصون. وأعلن الباب العالي في ٢٣ رمضان عام ١٢٨٠ هـ الموافق ٣ آذار عام ١٨٦٤ م، التنازل عن بناء القلاع موقتاً، مقابل تعهد الأمير حفظ طريق الهرسك، ودفعه تعويضاً مالياً عن ما سلبه من أموال تعود للتجار العثمانيين. ووافق الأمير لأن ذلك لمصلحته. ومع ذلك فلم يهدم العثمانيون القلاع التي شيدوها وسط بلاد الجبل الأسود، إلا في محرم من عام ١٢٨١ هـ، بعد أن أقاموا على الحدود قلعة منيعة مرتفعة يمكن للمدفعية الرمي منها لمسافات بعيدة. ثم انتهت الحروب وهدأت بلاد الهرسك.

### العثمانيون وظهور بلغاريا:

كانت الثورة اليونانية التي التهبت منذ بداية القرن، إيذاناً ببدء مرحلة انتقالية جديدة. فالفلاحون البلغار ساهموا في تلك الثورة. ثم أخذت حركة العصيان التي فرّخت في أحضان بعض فئات المجتمع البلغاري، شكلاً دينياً يدّعي العمل على إصلاح الكنيسة البلغارية، وإعادة اليونانية التي اتخذت من استانبول مركزاً لها، حيث يجري تعيين المسؤولين في كنائس الشعوب البلقانية من بين اليونان. وبذلك فقد تمسكوا باللغة اليونانية إلى جانب اللاتينية والعبرية القديمة.

ثم بدأ إرسال المتطوعين إلى اليونان عام ١٨٢١ م (١٢٣٦) هـ. لنجدة الحركة العصيانية هناك وتجمع الإنفصاليون في رومانيا، واتجهوا من هناك إلى اليونان. ولكن الهزيمة التي مني بها العصاة اليونان، أدت إلى هياج الثائرين البلغار، وتكريس روح التمرد في نفوسهم. ثم أعطيت الحركة دفعة جديدة عندما وصلتها أنباء الإحتجاج والاستنكار الأوروبي. وعندما انتهز الروس الفرصة واعلنوا الحرب على الدولة العثمانية، وقفوا إلى جانبهم. وتم التوقيع إثر ذلك على معاهدة أدرنه لعام ١٨٢٩ م الموافق ١٢٤٥ هـ.

اتخذت حركة التمرد البلغارية لهذه المرحلة كما ذكرت طابعاً كنسياً محصناً، وجرى إصلاح الكنيسة دون استقلاليتها. ثم قامت حركة بقيادة الأب «نيوفيت بوزفيلي»، وأعلن الأسقف «إيلاربون مكاريو بولسكي» إثرها استقلال الكنسة البلغارية عام ١٨٦٠ م (١٢٧٧) هـ ووافقت السلطة العثمانية بشكل رسمي على هذا الإعلان، بموجب الإصلاحات التي نشرها محمود الثاني وعبد المجيد من بعده. وأعطي لبلغاريا الحق في أن يكون لها كنيسة في استانبول تمثل كافة القضايا الدينية. كما جرى تعيين مطران وهيئة مساعدة له، للإشراف على ممتلكاتها. وانشأ السلطان العثماني عام ١٨٧٠ م (١٢٨٧) هـ، مركز نائب البطريركية البلغاري مع خمسة عشر أسقفاً. ثم جرت بعد سنتين من هذا التاريخ أول انتخابات لنائب البطريرك. ولكن السلطة العثمانية لم تلبث أن تعرضت لتقويض جديد، إثر الإنتفاضة الفلاحية التي حدثت في الثلاثينات والأربعينات من القرن. وصورت الأحداث بشكل مسرحي في أوروبا بغية إثارة شعوبها وكسب عطفها وتأييدها ولفت الأنظار إلى وجود مسألة بلغارية. وشكل الإنفصاليون الذين عملوا في صفوف الجيش الروسي أثناء حرب القرم في الإمارات الدانوبية تنظيماً جديداً. وتوقع الفلاحون بعد صدور التنظيمات العثمانية حلاً للمسألة الزراعية. وبالفعل فقد انتقل قسم من الأراضي لأيدي الفلاحين. ومع ذلك فإن بعض المظاهر المسلحة في المناطق البلغارية الغربية والشمالية لم تلبث أن طغت على سطح الأحداث. ورافقتها حملة لجمع التبرعات وتحصين القلاع القديمة لاستخدامها حصوناً للمقاومة ومراكز للدفاع. وسرعان ما حلت الهزيمة بالعصاة. ومنوا بشر هزيمة على أيدي العثمانيين. وهكم على قادتهم بالموت.

## حركة راكوفسكي:

لم تخمد الحركات العصيانية بخمود التمرد الأخير. واندلعت من جديد في شمال بلغاريا حركة جديدة بقيادة «جورج سافاراكوفسكي» في «بركوفسكي» و«بلغراد تشيك». ولد هذا الثائر المتمرد عام ١٨٢١ م



(١٢٣٦) هـ في «كوتل»[1] في بلغاريا. وتكونت أفكاره نتيجة الموجة الثورية التي عمت أوروبا. وأطلّع عليها منذ صباه أثناء دراسته تاريخ روسيا القيصرية وأوروبا الغربية. ثم تعمق في مطالعة تاريخ الحركات التحررية القومية الإيطالية بقيادة «غاريبا لدي» وبدأ حياته السياسية بالعمل على تحرير الكنيسة. وعارض المواقف الأوروبية الرامية إلى إبعاد بلاده عن روسيا القيصرية. وتصدى للإرساليات الأجنبية.

عمل راكوفسكي، منذ سني شبابه، على تأسيس حركة انفصالية مسلحة ضد العثمانيين. وجمع التبرعات والمساعدات المالية. وأقام بالتالي مراكز التدريب واستخدام الأسلحة في خارج البلاد. ثم كتب مؤلفه الشهير «غورسكي بتنك» أي ـ الغابه. وتحدث فيه عن الطريق الثوري والحاجة الماسة للقوة المادية والثورة العاصفة. وحهز الإمكانيات للإستفادة من الدعم المتدفق من وراء الحدود. وأكد بأن الثورة يجب أن تبدأ من هناك. وأنه لا بد من محرضين في الغرب والبلدان المجاورة.

تصدت الدولة العثمانية لهذا المتمرد الجديد. وكافحت كتابه بقوة. ولكن جريدته كانت تنشر فقرات من كتابه. ثم أصدر جريدة أخرى أشبعها بأفكاره. وكتب حول ضرورة تكوين مركز موحد للحركة واقترح «أوديسا» مقر إصدار جريدته «الخطة». كما أنه طالب بضرورة وجود ممثلين في العاصمة الروسية والعواصم الأوروبية. وعلى صفحات جريدته، طالب بإسقاط نظام الحكم العثماني، وتحقيق استقلال بلغاريا. كما دعا إلى الوحدة. ولكن دعوته، لم تحظ بالتأييد الكافي بين صفوف البلغار المتشتتين إلى مجموعات مختلفة. وفشلت الحركة، وفشل مسعاه، وحكم عليه بالموت، ولكنه هرب، وتوفي في رومانيا عام ١٨٦٧ م (١٢٨٤) هـ في مدينة بخارست.

واتجه العصاة نحو أسلوب جديد. وبرز من بين صفوفهم «فاسيلفسكي»

(١) كوتل: وهي بلدة تقع في وسط وشرقي بلغاريا في المرتفعات البلقانية.

و «خريستو بوتيف». وظهرت اللجنة المركزية الثورية البلغارية التي اتخذت لها مقراً في بخارست عام ١٨٦٩ م الموافق ١٢٨٧ هـ.

ولد «فاسيل ليفسكي» في ٦ تموز عام ١٨٣٧ م (١٢٥٣) هـ في مدينة «كارلوڤو»[٢]. ودخل أحد الأديرة. ثم رقي إلى رتبة شماس. وانخرط في صفوف الثائرين العصاة، اعتباراً من عام ١٨٦١ م (١٢٧٨) هـ. وبعد أن تخرج من المدرسة الحربية، عمل في مجال الدعاية والتحريض والتنظيم الثوري. وذهب إلى رومانيا في آب من عام ١٨٦٩ م في محاولة لإقناع المهاجرين بالتعاون والتحضير للعمل المسلح. ولكنه رجع إلى بلغاريا، لعدم حصول توافق في الآراء عام ١٨٧٠ م. كي يعمل على تشكيل تنظيم مسلح جديد.

تأثر نصارى البلقان بأحداث عام ١٨٧١ ـ ١٨٧٢ م [١٤٨٨ ـ ١٢٨٢] هـ التي جرت في فرنسا وايطاليا. وجرفتهم قوة حماسية عاطفية. وتحركوا طلباً للعون من الصرب والروس حيث الظروف مواتيه. ورفض فاسيل، وشن حملة للوحدة الثورية. وبدأ يدعو للتزود بالسلاح والتدريب وإلى جمع التبرعات. واستعمل التهديد والوعيد ضد المتقاعسين عن دعم حركته.

ثم بدأت شرارة العصيان، عندما سطت جماعة من المتمردين على مركز البريد عام ١٨٧٢ م (١٢٨٩) هـ. وهوجم المركز ونهبت الأموال ورصيد الدولة العثمانية. وتمكن رجال الشرطة من اكتشاف المتورطين، وألقوا القبض عليهم ولاحقوا الفارين. وانهار مدبر المؤامرة «ديميتر أوبشتي» واعترف بنشاط منظمته. وشُدد الخناق على المتآمرين، وفرض الحصار، وأجريت عمليات التفتيش والمداهمة على أوسع نطاق.

وعلم «ليفسكي» بالأمر، وسارع يدعو لانتفاضة مسلحة. وسافر إلى

(٢) كاولوفو: بلدة تقع في وسط بلغاريا على المرتفعات البلقانية.



رومانيا. ولكنه اعتقل أثناء عودته، وسيق إلى المحاكمة. وأعدم شنقاً في صوفيا.

واستغل العصاة الأحوال الطبيعية التي طرأت في ذلك العام. حيث شح المطر وحصل الجفاف وقلت الموارد. وحاولوا العبث بالأمن واشعال الفتن. ولكن قضي عليهم سريعاً. ثم ظهرت قيادة جديدة للعصاة. وتولى زعامتها «خريستو بوتيف» أبرز القادة. ولد هذا الثائر في مدينة «كالوڤير»[٣] عام ١٨٤٨ م (١٢٦٤) هـ، من أسرة يعمل ربها في الطباعة والتعليم ودور النشر. ثم انتقل إلى أوديسا، وحصّل تعليمه الثانوي على نفقة الجمعية البلغارية الأوديسيه. وهناك تعرف على الأفكار الثورية. وبعد أن عاد إلى بلغاريا عام ١٨٦٧ م (١٢٨٤) هـ، ساهم في الحياة الأدبية والثقافية وامتهن الصحافة، ثم هاجر إلى رومانيا وعمل معلماً.

نادى (خريستو بوتيف) باتحاد فدرالي بين شعوب البلقان على المستوى الشعبي. ثم بدأ التحضير للثورة بعد أن تقلد مركزاً في اللجنة الثورية للمنظمة الديموقراطية الداخلية. وحرّض الجماهير وجمع المال من المهاجرين البلغار في كل من روسيا ورومانيا. ثم دعا إلى اجتماع ثوري في «بخارست»، حيث جرت مناقشة الأوضاع الداخلية والظروف العالمية . وانتخبت لجنة مركزية وضعت خطةً، قسمت بموجبها بلغاريا إلى أربع مناطق. وعينت قائداً ثورياً.

وتزودت الدولة العثمانية بالمعلومات الكافية عن خطط المتمردين. وقامت الشرطة بحملة اعتقالات واسعة داخل المناطق الأربع، وهذا ما دفع إلى التعجيل في الموعد المقرر. ولجأ الثوار في ٢٥ نيسان إلى احتلال مراكز الشرطة العثمانية. وقرعوا أجراس الكنائس، وأعلنوا النفير العام بمدينة «كوبريفو تشيستا» التي استولوا عليها. ولكن محاولاتهم أحبطت، وقضى الباب

(٣) كالوفير: بلدة جبلية تقع في وسط بلغاريا وهي صغيرة وقريبة من كارلوفو.

العالي على الفتنة بسرعة، وأخمدت بشدة. وتحرك الرأي العام الأوروبي بدافع الروح الصليبية العدوانية.

وبادرت روسيا للتدخل. وطالبت بعقد مؤتمر القسطنطينية لعام ١٨٧٦ م (١٢٩٣) هـ. أما مجموعة خريستو التي سارعت في العودة إلى بلغاريا، بعد اختفائها عن مسرح الأحداث، فقد حدثت معها آخر المعارك. وعلى ظهر باخرة نمساوية، انتقل وجماعته عبر الدانوب، وهم يخفون أسلحتهم وألبستهم في صناديق مغلقة، منتحلين صفات فلاحين وعمال خضار من المهاجرين البلغار. وسيطروا على الباخرة، وأمروا ربانها، التوجه نحو الشواطيء البلغارية. ثم نزل كافة الأفراد، وعلى رأسهم «بوتيف» بالقرب من قربة «كوزلودي»[٥] واتجهوا إلى «فراتسيا»[٦]. وهناك اصطدموا بالقوات العثمانية التي سرعان ما قضت عليهم جميعاً وعددهم مائتي شخص.

إن هذه الوقائع التي حدثت طيلة شهري نيسان وأيار عام ١٨٧٦ م (١٢٩٣) هـ، أحدثت ضجة عظيمة وصدى واسعاً في بلاد الغرب. وقلبت الحقائق رأساً على عقب. وبشكل مثير، صورت الصحف، زوراً وبهتاناً، ما يثير حفيظة القاريء الأوروبي. وانبرت الأقلام وتعالت الصيحات الحاقدة. ومن بينها بعض من يسمون أنفسهم بالمتنورين الغير متعصبين، والمفكرين الأحرار، أمثال «فيكتور هيجو» الكاتب الفرنسي العالمي الشهير و«غلادستون» زعيم جناح المعارضة في البرلمان البريطاني. وحتى العلماء والباحثين أمثال «داروين» و«أوسكرو إيلد» أبدوا استنكارهم وكذلك الزعيم الإيطالي «غاريبالدي». وجرت في روسيا حملة مماثلة، تزعمها العالم الروسي «ماندا لييف» والكاتب «تورجينيف» و«دوستويفسكي». وتحرك الروس مطالبين بعقد مؤتمر دولي للنظر في قضية بلغاريا.

(٤) كوبري فوتشيستا: تقع شمال غرب بلغاريا قرب الحدود اليوغوسلافية.

(٥) كوزلودي: قرية بلغارية. تقع شمال غرب البلاد عند الحدود الرومانية.

(٦) فراتسيا: مدينة بلغارية تقع في الجهة الشمالية الغربية من البلاد.



وهكذا لم يلتفت أولئك المتعصبون الحقيقيون، إلى المذابح التي ارتكبها عصاة البلغار عندما قتلوا المسلمين، وأضرموا النار في «أدرنه» في أكثر من مائة موضع. وفي «فيليبه»[٧] في ستين موضع. وإلى المجازر التي ارتكبها ثلاثة آلاف منهم بشنهم هجوماً على المسلمين في «بازارجق»[٨]. أما المذابح التي يتعرض لها المسلمون العزل من السلاح هنا وهناك فهي مباحة في نظر «غلاد ستون» زعيم الأحرار عندما ألقى الخطب الرنانة وألف الرسائل المطولة ضد الدولة العثمانية، ناسياً أو متناسياً ما لم يسمع به التاريخ من أكاذيب. وإن نسي أو تناسى، فإنه لم ينس ما فعلته بلاده وحكومته مع الارلنديين والاستراليين الذين جرى إعدامهم بالجملة من قبل جيش بلاده.

## مولد رومانيا:

قلنا سابقاً أن الإمارتين، كانتا نقطة الإنطلاقة الأولى، في إحداث القلاقل داخل البلاد البلقانية العثمانية. والحقيقة فخلال نصف قرن لجأ المتمردون في الفلاخ والبغدان، إلى تقديم الملجأ الأمين والضيافة السخيه للعصاة من كافة البلاد البلقانية. وبذلك فإن التنظيمات السرية، والحركات الإنفصالية التي نشبت في الأربعينات من ذلك القرن، كانت تحبك خيوطها، وتدبر في الخفاء أمورها هناك. وفي ذلك الوقت استنبطت فكرة الوحدة القومية الرومانية. ورعاها البعض من رجال الفكر والسياسة الرومانيين. وقام التنظيم اليساري الفلهاروموني عام ١٨٣٣ م (١٢٤٩) هـ. فأكد على الوحدة والحرية السياسية ولكنه فشل في نيل أغراضه أثناء الأزمات الشرقية التي حدثت من عام ١٨٣٩ م (١٢٥٥) هـ حتى عام ١٨٤١ م (١٢٥٧) هـ. وتوفرت فرصة أخرى أمام دعاة التوحيد عام ١٨٤٨ م (١٢٦٤) هـ. ففي تلك السنة سقطت

(٧) فيليبه: مدينة يونانية مرتفعة، تشرف على السهل الساحلي وخليج كاڤالا.

(٨) بازارجق: مدينة بلغارية. تقع وسط وغربي البلاد عند أهالي نهر ماريتزا وهي مركز صناعي وعقدة مواصلات للسكك الحديدية.

حكومة لويس فيليب، وظهرت الجمهورية الفرنسية الثانيه. وتظاهر الأهلون في برلين وڤيينا وبراغ. واستعملت الشدة ضد المتظاهرين. واقتضى الأمر استخدام سلاح المدفعية. وامتد لهيب الفوضى إلى بولونيا والمجر.

ولما كانت روسيا ، لا ترغب بإرجاع مملكة بولندا، إلى سابق وحدتها، ولا ترغب بانفصال المجر عن النمسا وتشكيلها حكومة مستقلة قد تكون حجر عثرة في طريق تقدمها نحو القسطنطينية، لذا أرسلت جيوشها إلى بولونيا لإخماد الثورة. وطلبت من الدولة العثمانية تسليم اللاجئين من زعماء المجر. وامتنعت الدولة عن تسليمهم، وتوترت العلاقات بين الدولتين.

نتيجة الحركة الدستورية تلك، تعلقت انظار بعض السكان من ابناء الولايتين، بالإستقلال والإنضمام إلى سكان (ترانسلڤانيا) وتكوين مملكة رومانية. وثار الأهلون على أميريهما، وشكلا حكومة موقته. فما كان من الدولة العثمانية إلا التحرك لإخماد العصيان. وأرسلت جيشها لقمع الحركة وإعادة الأمور إلى نصابها. ولم يرض الروس عن هذا العمل الشرعي الذي تقوم به السلطة المركزية لإخماد الفتن. وسارعوا إلى توجيه جيوشهم إلى البغدان في ٢٢ رجب من عام ١٢٦٥ هـ الموافق ٢٠ حزيران عام ١٨٤٨ م (١٢٦٤) هـ. وطردوا الحكومة الموقته واحتلوا إمارة الأفلاق. واحتجت الدولة على هذا العدوان. وأوشكت الحرب على الوقوع بين العثمانيين والروس. ثم بدأت مفاوضات. وجرى الإتفاق على أن يحتفظ الباب العالي بحق تعيين أمراء الولايتين حسب ما كان يجري سابقاً، وأن تخضع البلاد لحكم عثماني روسي مشترك مدته سبع سنين حتى تستتب الأمور. وسمي هذا الإتفاق. بإتفاق «بلطه ليمان»(٩) نسبة للمحل.

رفع الطلبة الرومانيون أثناء الأيام الثورية في باريس، العلم الروماني فوق أحد الفنادق. وبثت المنظمة السرية «ڤراتريا» أي الإخوان، الحماسة

---

(٩) بلطة ليمان: تقع بجانب استانبول على الجانب الأوروبي من البوسفور.



الثورية داخل البيوت. ولكن الإنتفاضة التي حدثت في البغدان أخمدت. ونجحت نظيرتها في الأفلاق. وتجمع أربعون ألف فلاح فوق حقل «الحرية» في ترانسلڤانيا وطالبوا بالإصلاحات الليبراليه.

ثم انفجرت الحرب الأهلية فوع ربوع ترانسلڤانيا بين الرومانيين والمجر. وتمخضت عن منازعات قوميه واجتماعيه. ولكن الحركة الثورية الوطنية توقفت عن المسير للإجتياحات العسكرية العثمانية الروسية: وهرب الكثير من قادتها. واحتل الروس الإمارات الدانوبية أثناء حرب القرم في البداية. وتلى هذا الإجتياح احتلال نمساوي. وبادرت فرنسا وبروسيا وسردينيا لدعم المسألة الرومانيه إبان انعقاد مؤتمر باريس السلمي عام ١٨٥٦ م الموافق ١٢٧٦ هـ.

ونهض مؤتمر باريس بأعباء الإنتخابات في كلتا الإمارتين في محاولة لتحقيق رغبات السكان الوحدوية. ومما جاء في بنود معاهدة المؤتمر بصدد الولايتين، إصدار منشور عثماني لصالح النصارى، وجرى تعديل في الحدود الروسية في بسارابيا. كما نصت المعاهدة على إلحاق الأراضي التي تخلت عنها روسيا بولاية الأفلاق لسيادة الباب العالي، وللسكان حق التمتع بالحقوق والخصائص الممنوحة للولايات. أما الأفلاق والبغدان فتبقيان متمتعتين بالإمتيازات والإعفاءات الحاصلة لهم الآن تحت رئاسة الباب العالي وبكفالة الدول المتعاقدة. كما تعهدت الدولة العثمانية بأن تحفظ لهم إدارة أهليه مستقلة. وأن لهم حرية التدين وممارسة الأحكام الشرعية والتجارة والسفر البحري والنهري. وأن تبحث أمور أحوال الولايتين دون إبطاء وباطلاع الدول. كما جاء في المادة ٢٤، أن يعقد في الحال، ديواناً خاصاً في كل من الولايتين، لإيصال النفع والخير لجميع الناس على اختلاف درجاتهم. وأن تبين مقاصد الأهلين. ونصت أخيراً على تأمين قوة مسلحة أهلية لحفظ الأمن فيها. وبذا فقد قضت بعدم تمكين الدولة العثمانية من التدخل العسكري حين الخلل بالأمن إلّا بموافقة الدول.

وانتخبت كلا الجمعيتين الوطنيتين من الولايتين عام ١٨٥٩ م (١٢٧٥) هـ أميراً واحداً هو «اسكندر كوزا» خلافاً لشروط معاهدة باريز.

ولد (اسكندر أيون كوزا) في ٢٠ آذار ١٨٢٠ م (١٢٣٥) هـ، في بلدة ياشي[١٠] «هوشي» في رومانيا. وهو سليل أسرة نبيلة قديمة. ودرس أثناء صباه في باريز وبعض المدن الأخرى. واشترك في الهياج الثوري المضاد للحكم العثماني الروسي في بلاده مولداڤيا عام ١٨٤٨ م (١٢٦٤) هـ. وسرعان ما حقق شهرة عندما أوفد إلى الجمعية البغدانية عام ١٨٥٧ م (١٨٧٣) هـ. ثم انتخب بعد سنتين بنجاح أميراً على البغدان في كانون ثاني عام ١٨٥٩م (١٢٧٥)هـ ثم أميراً على الأفلاق أيضاً في شباط من عام ١٢٧٥هـ ١٨٥٩م على الرغم من تصميم القوى الكبرى على ارتباط الإمارات الدانوبية باستقلال ذاتي منفصل.

وهكذا أعلنت الوحدة الرومانية بعد هذا الإتحاد الحكومي عام ١٨٦١ م (١٢٧٧) هـ. وحاول كوزا أن يحكم حسب الطريقة الإستفتائيه التي لجأ إليها الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث. وأظهر التودد نحو الفلاحين بشكل واضح. وصادر الأراضي الشاسعة التي يمتلكها رهبان الأفلاق والبغدان عام ١٨٦٣ م (١٢٧٩) هـ، ووزعها في السنة التالية على الفلاحين. ومنح الحرية العامه والتعليم الأساسي وبنى المدارس حسب كافة الإختصاصات. وادخل البرامج الدراسية على شكل منح للفقراء. وأصلح قانون الانتخابات، وغير في بناء أجهزة الدولة في محاولة لتدعيم سلطته. ولكن الملاك الكبار وقفوا ضد سلطته وعضدهم بعض ابناء الطبقة الوسطى. واخيراً أرغمته مجموعة من الضباط التخلي عن الحكم ومغادرة البلاد.

وفي الواقع فإن طغيان هذا الأمير، جعله ينحرف متردياً إلى الحضيض، رغم الإصلاحات الضخمة التي قام بها. فالضرائب الفادحة التي فرضها، في الوقت الذي لا تتوفر في البلاد الثروة الكافية، واستعماله الشدة في معاقبة كل من أظهر عدم الرضا، جعل الصدر الأعظم «فؤاد باشا» يكتب إليه متدخلاً

(١٠) ياشي: وهو بلدة رومانية تقع شمال شرقي البلاد قرب الحدود الروسية.



لرفع الظلم عن الأهلين لو استمر الحال على هذا المنوال.

واجتمع مندوبون عن الدول المصادقة على معاهدة عام ١٨٥٦ م (١٢٧٢) هـ في باريس. للنظر في انتخاب خلف للأمير (كوزا). وأجمعوا أمرهم عدا روسيا، على وجوب توحيد حكومة الولايتين، خلافاً لما جاء في المعاهدة المذكورة، شريطة كونه من أشراف البلاد وليس أجنبياً. ولم يذعن سكان رومانيا لهذا القرار، وانتخبوا في ٣ ذي الحجة الموافق ١٩ نيسان الأمير «شارل دي هوهنرولن». وهو الأمير كارول الذي يرجع نسبه إلى العائلة البروسيه الملكية، أميراً عليهم.

ولد شارل الأول «كارول» في عشرين نيسان عام ١٨٣٩م (١٢٥٥) في ألمانيا الغربية. وأدى حكمه الطويل إلى حدوث تطورات اقتصادية وعسكريه هامه. ولكنه فشل في إيجاد حلول للمشكلة الزراعية الأساسية. وقد حصل تعليمه في «درسدن» و«بون» في المانيا ثم خدم كضابط في الجيش البروسي إبان الحرب ضد الدانمرك. وبالموافقة الضمنية التي أشار بها ابن عمه نابليون الثالث، منح عرش رومانيا بعد خلع «كوزا» ثم انتخب أميراً عن طريق الاستفتاء الشعبي وتزوج عام ١٨٦٩ م من الأميرة «اليزابث» أميرة «ويد». وأدت به عاطفته الألمانية إلى فقدانه الشعبية خلال الحرب الفرنسية عام ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ م [١٢٨٧ ـ ١٢٨٨]. أجبر «شارل الأول» على التنازل عن الحكم بسبب ثورة محلية، ولكنه استعاد دعمه الشعبي بسبب قيادته العسكرية أثناء معركة «بلفنا»[١١] في الحرب الروسية التركية ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ م [١٢٩٤ ـ

(١١) معركة بلفنا: تقع بلفنا في شمالي بلغاريا. وتبعد بضعة أميال عن أحد فروع نهر الدانوب. كانت أحد الحصون المنيعة في الدولة العثمانية. شهدت بطولات خارقة أثناء الحرب التركية الروسية، قام بها الغازي عثمان باشا وجيشه. فبعد ان عبر الجيش الروسي بأكمله نهر الدانوب، احتل ترنوة نيكوبلي، ومضائق البلقان الموصلة إلى مضيق شيبكا المهم. وعندها حضر عثمان باشا من معسكره في مدينة «ودين» لمساعدة نيكوبلي التي سقطت بأيدي الروس. وعسكر في بلفنا المحصنة والمتمتعة بالموقع الحيوي. وهاجمها الروس عدة مرات بقوة تفوق القوة العثمانية أضعاف مضاعفة. ولكن عثمان باشا هزمهم. وعندما حضر أمير=

١٢٩٥] هـ. حيث جاء إلى ميدان القتال بنحو مائة ألف مقاتل. وجرى أخيراً تتويجه ملكاً في عام ١٨٨١ م (١٢٩٨) هـ. وعقد تحالفاً مع ألمانيا وامبراطورية النمسا والمجر في عام ١٨٨٣ م بقي سراً حتى نشوب الحرب العالمية الأولى. واستمر حكمه حتى عام ١٩١٤ م.

## العثمانيون والسياسة اليونانية:

ذكرت سابقاً أنه تم التوقيع على معاهدة أدرنه في عام ١٨٢٩ م، الموافق عام ١٢٤٥ هـ. وكيف قبل السلطان العثماني، بموجب نصوص معاهدة، التصديق على كل ما جاء في اتفاق لندن لعام ١٨٢٧ م (١٨٤٣) هـ. وبتعيين مندوب من قبله. بعد إتمام الصلح للإتفاق على حدود مملكة اليونان الجديدة بالإشتراك مع فرنسا وروسيا وانكلترا. والجدير أن هذه الدول هي التي أوجدتها، وهي التي حرضت على الإستقلال. كما اتفقت الدول على استقلال موره بعد هزيمة العثمانيين والمصريين. وأن تستقل وتشكل منها حكومة برئاسة نصراني تنتخبه الدول، ويقع تحت حمايتها. ولكن الباب العالي رفض ووقعت الحرب. رافق الإدارة الحكومية الجديدة في الدولة اليونانية، عاملين هامين. الأول هو الصراع بين اصحاب الإتجاهات المختلفة من أنصار المركزية واللامركزية، وثانيهما التدخل الأجنبي.

= رومانيا مع قوة كبيرة المحت اليها سابقاً، الى ميدان القتال لدعم الروس، تحول الموقف لصالحهم. وحاصروا بلفنا لفشلهم في احتلالها. واستمر القتال حولها. وعندها قرر عثمان باشا إخلاء القلاع والخروج من حصنه المحاصر، واختراق صفوف العدو بعملية انتحارية بطولية. واخترق الخطوط الدفاعية العدوة والموت يحصد جنده حتى جرح وظن أنه استشهد، فانهارت الروح المعنوية العثمانية. ثم ألقي القبض عليه. وحضر قادة العدو وهنأووه على بسالته بما فيهم القيصر الروسي الذي انتابه العجب من بطولته. والجدير بالذكر أن عدد جنوده كان في هذه المعركة لا يزيد عن خمسين ألف جندي و٧٧ مدفعاً فقط، في حين أن الجيش الروسي المهاجم لبلفنا بلغ ١٥٠ ألف و ٦٠٠ مدفع. ولم يسلم العثمانيون أعلامهم مطلقاً بل احرقوا بعضها، ووضع البعض الآخر في صناديق من حديد ودفنت في باطن الأرض.



وبعد أن جرى اغتيال الرئيس اليوناني الأول الكونت «كابود يسترياس» عام ١٨٣١ م (١٢٤٧) هـ، فرضت الدول الأوروبية في العام اللاحق أمير بافاريا «أوتو» الذي أصبح يلقب بالملك (أوتو).

ولد أوتو في ١ حزيران عام ١٨١٥ م (١٢٣٠) هـ في مدينة «سالزبرغ» في النمسا. وتولى الملك في اليونان الحديثه من عام ١٨٣٢ ـ ١٨٦٢ م [١٢٤٨ ـ ١٢٧٨] هـ. فحكم بطريقة اتوقراطيه إلى أن أجبر على التحول إلى الدستوريه عام ١٨٤٣ م (١٢٥٩) هـ. وحاول أثناء حكمه، توسيع رقعة البلاد على حساب الدولة العثمانية، ولكنه فشل وحصل انقلاب ضده.

اختير أوتو ـ الإبن الثاني للملك باڤاريا لويس الأول ـ ملكاً على اليونان من قبل الدول الكبرى أثناء انعقاد مؤتمر لندن في مايس عام ١٨٣٢ م (١٢٤٨) هـ. وأقرت الجمعية الوطنية هذا القرار في آب من عام ١٨٣٢ م. ثم وصل إلى اليونان في ٦ شباط عام ١٨٣٣ م (١٢٤٩) هـ، برفقة بعض المستشارين الباڤاريين. ونظم الجيش لكن حكمه المطلق الذي مارسه، والضرائب الباهظة التي فرضها، أدت إلى تذمر الأهلين، فلجأ ألى إقالة مستشاره (جوزيف لودفيغ) عام ١٨٣٧ م الموافق ١٨٥٣ هـ.

وأدى ذلك الإستياء العام، إلى حدوث ثورة في عام ١٨٤٣ م (١٢٥٩) هـ. وأجبر الملك على طرد الباڤاريين من أعوانه، والموافقة على دستور جديد.

كانت موجة القومية اليونانية في تصاعد بين أوساط اليونان وعلى شواطىء الأدرياتيك الشرقية. ونتيجة لهذا المد الجارف، وضعت برامج التحرر الوحدوي المعروف باسم الفكرة العظمى أو فكرة «ميغالي» التي تدعو إلى إقامة يونان عظمى يحدها الأدرياتيك والبحرين الأبيض المتوسط والأسود وعاصمتها القسطنطينيه.

وكرست التنظيمات السرية جهودها لخدمة هذا الهدف. وتحفزت انطلاقات من أبيروس وتيسالي ومكدونيا وجزيرة كريت. وتوترت نتيجة

لذلك، ونتيجة الأعمال التخريبية الثورية النشطة في أبيروس وتيسالي خلال حرب القرم، العلاقات مع العثمانيين وبريطانيا وفرنسا أيضاً.

انعكس سريان الأفكار القومية الليبرالية، التي عمت كافة أرجاء البلقان في الستينات من القرن التاسع عشر في محاولات تحريضية يونانية، لاستئناف الإنتفاضات البلقانية وإقامة العلاقات الودية مع الصرب، وبخلع العائلة الباڤارية المالكة عام ١٨٦٤ م (١٢٨١) هـ.

وأخيراً حدثت انتفاضة دموية ضخمة، عمت جزيرة كريت عام ١٨٦٦ م (١٢٨٣) هـ سنتكلم الآن عنها:

بعد أن نالت اليونان استقلالها، لجأت إلى المناورات وتحريض سكان كريت، للقيام بثورة ضد السلطة العثمانية، وهي تسعى جاهدة كي تضمها بعد سلخها عن جسم الدولة العثمانية. ولكن اللعبة الدولية اقتضت آنذاك عدم دعم اليونان في مطلبها. وسرعان ما وجه الباب العالي جيشاً لإعادة استتباب الأمن في الجزيرة. وفي الوقت ذاته تحرك جيش من الجنوب أرسله خديوي مصر اسماعيل باشا لمساعدة الباب العالي. وسرعان ما تحققت انتصارات عثمانية في عدة مواقع وخاصة موقعة «أركاديون».

ثم أرسلت الدولة العثمانية مندوباً سامياً للتفاوض مع الثائرين وهو «كريدلي محمد باشا» ولكنه لم يوفق. وفي ٦ شوال من عام ١٢٨٣ هـ الموافق ١١ شباط عام ١٨٦٧ م، استقال الصدر الأعظم محمد رشدي باشا، وعين السلطان عبد العزيز[١٢] مكانه «محمد أمين عالي باشا» وأبقي محمد رشدي في

(١٢) السلطان عبد العزيز: وهو ابن السلطان محمود الثاني. ولد في استانبول عام ١٨٣٠ م (١٢٤٥) هـ. كان متديناً وورعاً ووطنياً. تآمر في عهده من سموا انفسهم بالوطنيين الأحرار وعلى رأسهم مدحت باشا وحسين عوني باشا ومحمود باشا وخلعوه ثم قتلوه وقالوا أنه انتحر. وضع هذا السلطان الدولة العثمانية في الصف الثاني او الثالث من حيث القوة العسكرية العالمية. توفي عن عمر يناهز السادسة والأربعين عاماً.



منصب السر عسكر. وأعاد الصدر الأعظم الأسبق «محمود فؤاد باشا» إلى نظارة الخارجية.

وافتتح ناظر الخارجية الجديد أعماله باستدعاء «كريدلي محمد باشا» من الجزيرة، وتعيين «عمر باشا»[١٣] بطل القرم مكانه كقائد عام. وتمكن القائد العثماني من إخضاع الثائرين بقوة.

وعندما شعرت الدول الأوروبية بخطر انتصار عثماني جديد. تدخلت وطلبت إرسال لجنة دولية إلى الجزيرة بهدف التسوية. ورفض الباب العالي هذا التدخل الفاضح في شؤونه، واقترح إرسال مندوب سامي سياسي للنظر في شؤون الجزيرة. وسافر الصدر الأعظم عالي باشا في ١٤ تشرين الأول عام ١٨٦٧ م (١٢٨٤) هـ. وأعاد الأمور إلى نصابها، وأقال عمر باشا للخلاف الناجم بينه وبين رجال البحرية العثمانية هناك، وعين مكانه (حسين عوني باشا) كوال للجزيرة وعاد إلى الآستانه. وبذلك انحدرت العصابات المتمردة واستمرت اليونان في مطالبتها بالجزيرة.

(١٣) عمر باشا: وهذا القائد العثماني الشهير وهو نمساوي الأصل. ولد في كرواسيا عام ١٨٠٣ م وخدم في الجيش النمساوي، ثم اهتدى الى الإسلام بعد ان هاجر الى البوسنه ودخل الخدمة العسكرية في الجيش العثماني. رقي تدريجياً حتى وصل الى رتب عاليه. هزم الروس في مواقع عدة ومنها حرب القرم. توفي عام ١٨٧١ م الموافق ١٢٨٨ هـ.

# الباب التاسع

## البلقان في أواخر عهد الغروب العثماني

١ ـ التأثير الأوروبي الإستعماري.
أ ـ البلقان والحرب التركية الروسية.
ب ـ البلقان بعد الحرب التركية الروسية.
٢ ـ العثمانيون والبلقان قبل الحرب العالمية الأولى.
أ ـ البلقان مسرح الصراع العالمي.
ب ـ حوادث عام ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩ الموافق ١٣٢٦ ـ ١٣٢٧ هـ.
جـ ـ حروب البلقان.
٣ ـ العثمانيون والبلقان والحرب العالمية الأولى.
أ ـ الأتراك والبلقان أثناء الحرب.
ب ـ الأتراك والبلقان بعد انتهاء الحرب.
جـ ـ نتائج مؤتمر السلم على الأتراك والبلقان.

## ١ ـ التأثير الأوروبي الاستعماري:

أ ـ البلقان والحرب التركية الروسية: قلنا سابقاً أن الهجوم الروسي، عاد بعد اندحار إلى معاودة الكرة بالتعاون مع جيش أمير رومانيا، وبذلك استؤنف الهجوم على الأراضي العثمانية. وتمكنت الكثرة العددية والعتادية التي تمتع بها الأعداء. من اقتحام «بلفنا» بعد المقاومة الشديدة التي أبداها عثمان باشا وجيشة لآخر رمق. وكان النصر قد تحقق في البداية للعثمانيين، واندحر الروس وتعقبهم المسلمون إلى أعماق بلادهم. وأرسل السلطان العثماني «عبد الحميد الثاني»[1] رسائل إلى القادة العثمانيين يهنئهم ويستحثهم على الجهاد

(١) السلطان عبد الحميد الثاني: وهو ابن السلطان عبد المجيد. ولد في ٢١ أيلول عام ١٨٤٢ م الموافق ١٢٥٨ هـ. وحكم الدولة العثمانية ٣٣ عاماً. أي من عام ١٨٧٦ م الموافق ١٢٨٩ هـ حتى عام ١٩٠٩ م الموافق ١٣٢٧ هـ. وهو أعظم سلاطين بني عثمان في العصور المتأخرة. امتاز بالتدين والتقى والشجاعة والدهاء والحنكة السياسية. وقف حائلاً دون انهيار الدولة العثمانية طيلة حكمه. واعتقد باحتمال قيام حرب عالمية. وقف في وجه اليهود ورفض منحهم وطناً في فلسطين بقوة. ألف محكمة نظرت في قضية خلع ومن ثم موت عمه السلطان عبد العزيز. وتبين أن مدحت باشا وحسين عوني باشا كانوا وراء اغتياله. انشأ المصانع وافتتح المدارس والجامعات والمعاهد العسكرية ودعم الجيش، ونشط التجارة والصناعة والزراعة. تآمرت جمعية الاتحاد والترقي على خلعه. وكان لليهود دوراً في مؤامرة إقصائه. نفي إلى سالونيك حيث بؤرة المؤامرات التي حيكت ضده. وعندما أصبح احتلالها من قبل الأعداء محتملاً، نقل إلى قصر بكلربك في العاصمة استانبول. توفي رحمه الله في ١٠ شباط عام ١٩١٨ م الموافق ١٣٣٦ هـ. ودفن إلى جانب عمه السلطان عبد العزيز في تربة السلطان محمود في استانبول.

والاستبسال والشهادة. ولكن الروس عاودوا الهجوم في القوقاز بعد أن وصلتهم تعزيزات ضخمة. وتراجع القائد العثماني «مختار باشا» وجيشه حتى ارضروم[٢] وسقطت بأيدي الروس. ولم يتمكن الجيش العثماني من تقديم العون.

وعلم الصرب بسقوط «قارص»[٣] وتحققوا من نجاح الروس. وانتهزوا الفرصة وأعلنوا الحرب على الدولة العثمانية، صاحبة السيادة على بلادهم. وهي التي لم تكنّ إلا منتهى الإحترام لعقائدهم ولغتهم.. وعلم الباب العالي بالنبأ عن طريق السفير الصربي في الآستانة يوم ١٤ كانون أول عام ١٨٧٧ م (١٢٩٤) هـ، أي بعد سقوط «بلفنا» بأربعة أيام فقط. وهكذا ظهرت خيانة الأمير «ميلان» الذي تواطأ مع القيصر الروسي وانحاز إلى جانبه.

وقدّم الباب العالي في الحال مذكرة نشرت ليطلّع عليها سكان الصرب. أظهرت غدر حكومتهم وخيانتها، وأنها لا تبغي إلا دمارهم، وأن السلطان قد أمر بعزل الأمير الذي عفت عنه الدولة أكثر من مرة. ولكن الأمير لم يعبأ بهذا العزل، واستمر في غيّه حتى انتهاء الحرب، ومنح نفسه لقب ملك زيادة في التحدي. أما الجبل الأسود، فلم يتوصل مع الباب العالي إلى اتفاق على الصلح قبل إعلان روسيا الحرب. وعلى هذا فإن جيشها اشترك في القتال ضد العثمانيين، فعطّل جزءاً ليس بقليل من جنود الدولة، لاشتغاله في قتالهم بدل التصدي للعدو الخارجي الرئيسي. وهكذا وقفت الدولة العثمانية وحيدة، لا صديق لها، بل الكل ضدها، وجميع النصارى يدعمون المتمردين البلقانيين، ومع ذلك كان المسلمون يحققون الإنتصارات بشجاعة.

وطلب الباب العالي من الدول التوسط بينه وبين الروس حقناً للدماء.

---

(٢) ارضروم: بلدة في شرقي تركيا اليوم. اصبحت جزءاً من الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الأول.

(٣) قارص: بلدة تقع اليوم شرقي تركيا قرب الحدود الروسية. اصبحت جزءاً من الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الأول.



ولكن أوروبا لم تلق بالاً لهذا الطلب، واستمر القتال طيلة الشتاء. ووجهت روسيا. جميع جيوشها إلى ما وراء جبال البلقان كي تحتل بلغاريا والروملي الشرقية بمساعدة الجيش الصربي. ودخلوا صوفيا في ٤ كانون ثاني عام ١٨٧٨ م (١٢٩٥) هـ. ثم احتلوا (فيليبه) ودخلوا ادرنه، وساروا منها باتجاه الآستانة ووصلوا إلى مسافة خمسين كيلومتراً منها فقط.

في ذلك الوقت، احتل سكان الجبل الأسود مدينة «آنتيباري»، ووصلوا ضواحي «أشقودره» أما الصربيون فدخلوا «نيش». وبهذا كان لا بد للدولة العثمانية، عندما تكاثرت عليها الأمم كما تتكاثر الأكلة إلى قصعتها، من طلب الصلح، لعدم قدرتها على الاستمرار، وللوضع الجديد الذي نشأ على الأرض.

لقد تحمل المسلمون في بلغاريا ما يندى له الجبين، من صنوف الغدر والوحشية والقسوة. فما أن علم النصارى البلغار بتقدم الجيوش الروسية، حتى أظهروا منتهى الهمجية، وكشروا عن أنياب الحقد واللؤم والتعصب الدفين الذي يضمرون. ولقد صدق الله عز وجل إذ يقول «كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلّا ولاذمه». واضطر المسلمون إلى النزوح والهجرة باتجاه الآستانه، خوفاً على أعراضهم ودمائهم وأطفالهم. وغصت شوارع العاصمة باللاجئين. وامتلأت المساجد في ذلك الشتاء القارس. ولم تتمكن الدولة من تقديم المأوى والمسكن لهذه الأعداد الهائلة، رغم التبرعات الكبيرة والتعاطف الأخوي. وسرعان ما تفشت الأمراض نتيجة البؤس والبرد الشديد وسوء التغذية. ثم وزعتهم الدولة إلى ولايات الأناضول. ويجدر بالذكر في هذا المقام أن العدو بالأمس واليوم واحد. والخطة والهدف لم تتغير. ولست أدري متى يتعظ قادة المسلمين وتعي شعوبهم؟ ألم يقرأوا التاريخ القريب والمعاصر؟. ولم تنج الولايات البلقانية من الفتن التي قام بها النصارى ضد المسلمين في مكدونيا وتساليا وجزيرة كريت ولكن الأمر هنا كان بصورة أقل.

ثم بدأت المفاوضات في شهر كانون ثاني عام ١٨٧٨ م (١٢٩٥) هـ.

وعين الباب العالي مندوبيه العسكريين والمدنيين.

ووصل العسكريون العثمانيون والمفاوضون برفقة الأمير الروسي إلى مدينة «أدرنة» المحتلة من قبل العدو الروسي. ثم بدأت المفاوضات، وجرى توقيع اتفاقين. وانتهت العمليات العسكرية في ٣١ كانون ثاني عام ١٨٧٨ م (١٢٩٥) هـ، وأعلن الباب العالي رفع الحصار عن سواحل روسيا والبحر الأسود وطلبت النمسا من إنكلترا الإشتراك في عقد مؤتمر لمندوبي الدول الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ م (١٢٧٦) هـ، للنظر في شروط الصلح، خوفاً من أن تمس حقوق الدول، وقبلت انكلترا. ولكن المفاوضات كانت قد توقفت لرغبة الروس في إخضاع الدولة العثمانية دون تدخل الدول.. وفي ذلك الحين راجت شائعة مفادها أن الروس قد احتلوا الآستانة لحماية رعاياهم. وكانت مجرد شائعة. ومع ذلك فإن الإنكليز أمروا أساطيلهم بالتوجه إلى الآستانة لحماية رعاياهم. وفي الحقيقة فإن هدفهم كان مراقبة التحركات الروسية، ومنعها أذا اقتضى الأمر من احتلال الآستانة. واقتحم الانكليز بالقوة مضيق الدردنيل، واكتفى الباب العالي بالإحتجاج. ودخلت السفن الانكليزية البوسفور ووقفت أمام الآستانة.

وحاول الروس بالفعل احتلال العاصمة العثمانية، بعد التوقيع على المعاهدة والصلح في أدرنه، متذرعين بحجة وصول السفن الأنكليزية إليها. وطلب القائد الروسي إدخال بعض فرق المشاة إلى المدينة، واحتجت أنكلترا، فأحجم الروس وانتهى الإشكال. وبقي الروس معسكرين خارج العاصمة العثمانية.

ووصل الغراندوق «نيقولا» من (سان بطرسبرغ) إلى أدرنه لإقرار الصلح النهائي. وعين المندوبون العثمانيون، وقبل الروس بعدم احتلال الآستانة خوفاً من المقاومة الشعبية وابتدأت المفاوضات في «سان ستيفانوس» الواقعة على بحر مرمرة، بعد أن تدفق الجنود الروس إلى قرب العاصمة العثمانية بكثرة، بحجة حماية الغراندوق، حتى بلغ عددهم قرابة العشرين ألف مقاتل، والدولة لا



تستطيع إيقاف تقدمهم وتدفقهم. وجرت استعراضات للجنود الروس، احتفالاً بيوم عيد جلوس الإمبراطور، تحدياً وإثارة للشعور. واضطر المندوبون العثمانيون التوقيع على المعاهدة. وخرج الجنرال «اغناتيف» ومعه صورة المعاهدة موقعة إلى الغراندوق الذي كان واقفاً أمام الجيوش وتحف به أركان حربه، وسلمه الصورة فصاح الجند صيحة الاستبشار. وأقام لهم أحد القساوسة قداساً حافلاً في مكان الاستعراض ونزل جميع الضباط والقادة عن ظهور خيولهم، وجثوا على الأرض شكراً لله على هذا النصر المفاجيء. ولنرجع الآن قليلاً إلى المعاهدة، ونستعرض بعض ما يخص البلقان منها:

١ ـ تعديل حدود الدولة العثمانية والجبل الأسود وإعلان استقلاله. وإعادة المجرمين من كلا الطرفين. وتنظيم المشكلات العسكرية والمدنية. وتحكيم الروس والنمسا إذا نشب الخلاف.

٢ ـ الإعلان عن استقلال الصرب استقلالاً تاماً، وتعديل حدودها بدعم وتأييد من الروس. أما المسلمون المقيمون هناك، فلهم الخيار في الإقامة. وتفصل لهم لجنة شؤون أموالهم.

٣ ـ الإعلان عن استقلال رومانيا، بولايتيها «الأفلاق والبغدان» ودفع ضمانات لها. كما يعطى شبه استقلال لبلغاريا، وتعدل حدودها بمعرفة مندوبين عن الدولة العثمانية وروسيا قبل خروج الجنود الروس من الروملي. وينتخب أمير بلغاريا بحرية تامة، مع إقرار الباب العالي على هذا الانتخاب. وتؤسس تنظيمات للطوائف هناك. ويزال الوجود العسكري العثماني من بلغاريا، وتزال التحصينات العثمانية. ولكن الوجود الروسي يحتفظ به على شكل قوام عدده خمسين ألفاً ولمدة سنتين. كما يتوجب معرفة الروس بالبنك الذي يدفع فيه البلغار للدولة المرتب السنوي. أما حق المرور العثماني عبر الأراضي البلغارية، والمواصلات السلكية والبريه، فيجري تنظيمها. وتوضع تنظيمات تخص المسلمين وإقامتهم وأملاكهم، تحت أمرة روسيا، التي لها حق البت في شؤون أموالهم.

٤ ـ أقر الطرفان، وجوب هدم القلاع الموجودة على نهر الطونه. وحددت السفن التي تتواجد في مياه رومانيا والصرب وبلغاريا، وحصرت بالسفن الصغيرة الخاصة بالإنضباط. وعهد إلى الباب العالي أمر تنظيف مضيف «سنه»، كي يعود إلى حالته السابقة صالحاً للملاحة، وضمان العطل والضرر الذي لحق بالتجار بسبب منع مرور سفنهم من نهر الطونة اثناء الحرب.

٥ ـ أما بشأن البوسنه والهرسك، فيجب عدم مطالبتهما من قبل الدولة العثمانية بالأموال الميريه. وأن لا يؤخذ شيء من الواردات إلى بداية شهر آذار من عام ١٨٨٠ م (١٢٩٧) هـ، بل تصرف كلها في الإحتياجات المحلية. ثم بعدها يحدد المبلغ الذي يجب أن يدفع للحكومة المركزية العثمانية، بالإتفاق مع الروس والنمسا. وأما بشأن (كريت) فتنفذ الأنظمة السابقة بناء على طلب السكان بالتشاور طبعاً مع الروس.

وفرضت على الدولة العثمانية، غرامة حربية مقدارها ٩٠٠ مليون روبل روسي، كمصروف للجنود واستهلاك العتاد. و ٤٠٠ مليون روبل أيضاً، للأضرار التي حدثت في سواحل روسيا الجنوبية، نتيجة الحرب. ويكون مجموع المبلغ ٢٤٥ مليون و ٢١٧٣٩٣ ليرة عثمانية وريال مجيدي أبيض ونصف. ووافق القيصر على أخذ بعض الأراضي مقابل التنازل عن بعض المال.

ووقعت المعاهدة في ١٩ شباط الرومي و ٣ آذار الافرنجي عام ١٨٧٨ م (١٢٩٥) هـ في استيفانوس. والملاحظ لدى النظرة الأولى، أن هذه المعاهدة، سلخت من جسم الدولة العثمانية كامل ممتلكاتها الأوروبية، عدا بعض الأراضي الصغيرة، التي لا ترتبط ببعضها، والتي لا يزيد اتساعها في بعض المواضع عن خمسة كيلومترات فقط، بحيث يمكن منع الجيوش العثمانية من الدخول إليها، وابتلاعها بسهولة حين الحاجة. وهذه القطع هي: مدينة الآستانة وضواحيها، ومدينة سلانيك وجزيرة البحيث القريبة منها. ثم بلاد



أبيروس وجزء من ألبانيا، وأخيراً إقليمي البوسنه والهرسك. أما الباقي من الأملاك، فإن جزءاً منه أعطي للصرب، وآخر للجبل الأسود، والباقي شكّل إمارة بلغاريا التي تحيط بمدينة الآستانة، من جميع جهاتها البريه. واعترف الباب العالي بموجب هذه المعاهدة، باستقلال الصرب والجبل الأسود ورومانيا بصورة تامة. وتنازل لمملكة رومانيا عن إقليم (الدوبردجه)، مقابل سلخ اقليم «بسارابيا» من رومانيا، وضمه لروسيا.

ولم يراع صالح الشعوب في هذه التقسيمات المجحفة. ولا حتى الحدود الجغرافية. فمثلاً أضيف إلى إمارة بلغاريا كثيراً من البلاد التي معظم سكانها هم من الأروام والصرب. وأضيف إلى الصرب والجبل الأسود بلاد فيها كثير من الأرناؤوط من مسلمين ونصارى.

ولم ترضى الأمم عن هذه التقسيمات التي لم تراع سوى المصلحة الروسية. وأرسلت كثير من الكتب إلى سفراء الدول للنظر في شؤون هذه التقسيمات. ونقم الرأي العام الأوروبي على الروس لأن إمارة البلغار التابعة للروس اصبحت تحيط بالآستانة. وخافت انكلترا من هذه المعاهدة لوجود الروس قرب البوسفور. ولاحتمال ازدياد النفوذ الروسي في الهند. وعارضتها كثيراً. أما النمسا فعارضت لعدم مشاركتها في المكاسب وخاصة في سلانيك. وعرضت ألمانيا على النمسا احتلال البوسنه والهرسك برضىً من الروس، ولكنها رفضت الإحتلال إذا لم يكن يرضى الدول، وقنعت بالمساعدة الأدبية للروس. أما فرنسا فكان موقفها حيادياً، فهي في مرحلة لم الشعث بعد الحروب الطاحنة. وانشغلت إيطاليا بالوحدة الإيطالية، ولذا وقفت أيضاً على الحياد.

وفي ٧ آذار، دعت النمسا جميع الدول ثانية لعقد مؤتمر في برلين، ليكون المؤتمر تحت رئاسة بسمارك الذي يدعو إلى احتلالها للبوسنه والهرسك. وقبلت الدعوة من كافة الدول عدا انكلترا التي علّقت قبولها بوجوب النظر في جميع نصوص معاهدة سان ستيفانوس. وعارضت روسيا هذا الشرط. وجرت

مفاوضات، وتوترت العلاقات بين انكلترا وروسيا، وأخذ الطرفان يستعدان للحرب. وجلبت انكلترا بعض الألوية العسكرية إلى مالطا. وكبح الروس جماح ثورة المسلمين في بلغاريا، الذي انبروا للدفاع عن أنفسهم ضد التعديات النصرانية والظلم الذي حاق بهم. واعتصموا بالجبال وتعذر قمعهم. وامتدت الحركات الثورية إلى كافة بلغاريا وضواحي صوفيا وإلى حدود الصرب. واستمر الأمر على هذه الحال إلى أواخر شهر مايس، والجنود الروس يحتلون جميع ضواحي الآستانة، والسفن الحربية الإنكليزية أمامهم من جهة البحر.

وأراد الروس الخروج من حالة اللاسلم واللاحرب. ووسّطوا الإمبراطور غليوم الأول بينهم وبين الإنكليز. وتجددت المفاوضات، وجرى تعديل المعاهدة بتعديل حدود إمارة البلغار وتصغير مساحتها، بحيث يشكل الجزء الجنوبي منها، ولاية مستقلة تقريباً، لا تلبث أن تنضم إليها فيما بعد. واحتفظ التعديل بسواحل البحر المتوسط تابعة للدولة العثمانية، خوفاً من أن يتخذها الروس مع مرور الزمن مرسى لسفنهم. ووافقت انكلترا على ذلك، حيث تحفظ سيادتها على البحار. واحتلت قبرص بإبرامها معاهدة مع الدولة العثمانية لصد روسيا إذا تقدمت تجاه الأناضول أو بلاد ما بين النهرين وتهديد طريق الهند. واظهرت نفسها صديقة للدولة العثمانية. وضحَّت الدولة بهذه الجزيرة. رغبة في حفظ باقي أراضيها وتعديل معاهدة سان ستيفانوس لمصلحتها.

وما أن انتشر نبأ المعاهدة المبرمة بين الدولة وانكلترا حول قبرص، حتى كانت أعمال مؤتمر برلين قد أشرفت على نهايتها، وانكلترا تخفي نبأها.

وفي ٣ حزيران عام ١٨٧٨ م (١٢٩٥) هـ دعا «بسمارك» الدول الكبرى لإرسال مندوبين للاجتماع في برلين يوم الثالث عشر من الشهر ذاته. وفي اليوم المحدد، عقد المؤتر تحت رئاسة بسمارك وعضوية المندوبين، ومندوبين آخرين عن بعض الدول الأخرى التي لها طلبات ورغبات. وأرسلت رومانيا مندوباً، كما أرسلت الصرب مندوباً، وكذلك الجبل الأسود واليونان، وطائفتا



الأرمن واليهود وشاه إيران. واستمرت الجلسات شهراً كاملاً.

وفي بداية المؤتمر إشتد الخلاف بين روسيا وانكلترا حول مسألة سحب القوات والسفن، وتدخل بسمارك وأزال الإختلاف. كما بحثت مسائل بلغاريا، وحدود صربيا، ومسألة احتلال النمسا للبوسنه والهرسك، وموضوع المملكة اليونانية، والولايات اليونانية المتبقية للدولة العثمانية، وولاية الروملي الشرقية، وحرية الملاحة في الدانوب والحصون والغرامات الحربية. واعترف مندوب الدولة العثمانية باحتلال النمسا ولايتي البوسنة والهرسك. ونوقشت مشاكل الطوائف الدينية غير الإسلامية وخاصة الأرمن، ومسائل المضائق، والجلاء الروسي وتحسين أحوال النصارى المتبقين تحت حكم الدولة العثمانية. وتحددت تخوم روسيا في جهات آسيا. ثم وقع المندوبون على نصوص المعاهدة.

ويلاحظ للقاريء بإلقاء نظرة بسيطة فقط، أن الدولة العثمانية لم تربح شيئاً يذكر، وأن أهم ما جاء في نصوص المعاهدة أن أصبحت إمارة بلغارية مستقلة إدارياً وداخلياً وتابعه بالإسم للدولة العثمانية، وصار تعيين واليها باتفاق الدول. وردت سواحل الأرخبيل، بما فيها ميناء (قوله) إلى الباب العالي، فاتصلت الأجزاء الأوروبيه من الدولة العثمانية ببعضها. وسلمت ولاية البوسنه والهرسك، إلى النمسا والمجر، لأجل غير محدود، باتفاق جميع الدول. وأضيف إلى اليونان جزءاً من الأراضي، كي توسع حدودها شمالاً، مع أنها لم تشترك في الحرب، ولم يكن لها حق في طلب أي تعويض، سواءً أكان نقدياً أم أراضي. ووسعت حدود الصرب والجبل الأسود، فأعطي للجبل ميناءً مهماً على ساحل الأدرياتيك هو ميناء «أنتيباري» - باري -.

والغريب في المعاهدة، أنها أجبرت الدولة العثمانية على القبول بحق مراقبة الدول لأمورها الداخلية، بحجة حماية النصارى وخاصة الأرمن، وحمايتهم من تعدي الأكراد والشراكسة. وبذا فإن تلك المعاهدة كانت أكثر ظلماً وإجحافاً بالدولة العثمانية من سابقتها. وكان الأوروبيون كالذئاب

تتصارع على فريسة طرحت أرضاً. كما يبدو غريباً سخاء الأوروبين وعطاءاتهم الوافره لغير المشتركين بالحرب، على حساب الدولة العثمانية ومن ملكها الخاص؛ إضافة إلى التدخل الفاضح في شؤونها الداخلية. ولكن البعض قد أخلّ بهذه المعاهدة مع ذلك. فبلغاريا طردت أميرها «اسكندر دي باتمبرغ» وانتخب الأمير «فردينان» دون موافقة الدول. كما أنها ضمت الروملي الشرقية إليها أيضاً. أما روسيا فلم تحترم نصوص المعاهدة إطلاقاً، وحصنت ميناء «باطوم». واحتلت فرنسا تونس والإنكليز دخلوا مصر لإخماد ثورة عرابي.

ب - البلقان بعد الحرب التركية الروسية:

أصبحت البلقان في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر جزءاً من النظام السياسي والإقتصادي الأوروبي. فالإحتلال الروسي الذي سلك طريقه، أدى إلى عداء وتنافس مرير بين الروس وامبراطورية النمسا والمجر.

وتدخلت الأسر الأوروبية الحاكمة في شؤون البلقان. فالباڤار والدانمرك، تدخلوا في اليونان. وتدخلت أسر باتنبرغ وساكسوكو برغ في بلغاريا، واسرة هوهنز ولبرن في رومانيا. ويرجع التدخل الأوروبي إلى الإتجاهات الاستعمارية التي وجهت شطرها صوب شرقي البحر الأبيض المتوسط، والى الضعف والانحطاط المتزايد في جسم الدولة العثمانية. كما لا يخفى الدور المهم الناجم عن افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ م (١٢٨٦) هـ وإلى تزايد حركة المرور في الدانوب، ومد السكك الحديدية، إذ أصبحت البلقان تدريجياً عقدة مواصلات برية هامة.

وكانت مسألة مكدونيا، عنصر نزاع واسع في البلقان. ساعد في تأجيجه طبيعتها الجغرافية والعرقية السكانية والسياسية. واختلف البلقانيون باختلاف مطاليبهم فيها. فالبلغار ادعوا أنها بلغاريه. وطالب فيها الصرب من نقطة مفادها أنها صربية، وبدأ بعض المؤرخين اليوغوسلاف يكتبون عن القومية المكدونية وعن وجودها في القرون الوسطى. إن موقع مكدونيا الجغرافي جعلها في مركز الوسط من شبه الجزيرة البلقانية. ومخرجها إلى بحر إيجه يشكل العمود الفقري



الاستراتيجي لشبه الجزيرة أيضاً.

واثناء العقدين الأخيرين من القرن، شجعت النمسا الصربيين وأيدت مزاعمهم حول مكدونيا بينما دعم الإنكليز اليونان. وتطور الصراع من أجلها حتى أخذ شكل نشاط مكثف لعصابات مسلحة.

وفي هذه المدة مزقت الصراعات مكدونيا. وأخمد العثمانيون انتفاضة دموية جرت عام ١٩٠٣ م (١٣٢١) هـ ونجم عنها انتقامات ضد السكان.

أما ما جرى بين العثمانيين والألبان فيجدر اعطاء لمحة عن الطبيعة السكانية للبلاد. فالأمة الألبانية كانت مجزأة بين قبائل (التيجيين) في الشمال الجبلي، و ( التوسكانيين ) في السهول الجنوبية، إضافة إلى بضع مستوطنات مشتتة في أقاليم «قوصوه» و «مكدونيا» الغربية وأبيروس. وكان سكان الشمال من الروم الكاثوليك، بينما شكل المسلمون أهل الجنوب. واستوطن اليونانيون الأرثوذوكس في أبيروس. وشكل المهاجرون ممن تركوا بلدهم، جيوباً قومية وطنيه في أقطار بلقانية أخرى وفي شرقي البحر المتوسط وإيطاليا. وفي عام ١٩٠٠ م (١٣١٢) هـ كان يوجد ٢٠٠ ألف الباني يقيمون في ايطاليا فقط.

ارتبط المسلمون الألبان بالعثمانيين برابطة العقيدة. ووجد هؤلاء بالدولة العثمانية أكبر ضامن لمصيرهم وافضل مدافع عنهم في وجه النصارى البلقان. أما القبائل الشمالية فكانت تعارض الإتجاهات المركزيه العثمانية.

وحدثت خلال القرن بعض الثورات المحلية ضد العثمانيين. ولكن القومية الألبانية هاجم تيارها الزاحف تلك البلاد أيضاً. ثم نشأت رابطة للدفاع عن ما دعي بحقوق الأمة الألبانية عام ١٨٧٨ م (١٢٩٥) هـ في إقليم (قوصوه). فكانت أول حركة ثوريه ألبانية منظمة جاءت كرد فعل على القرارات التي اتخذت من قبل مؤتمر برلين. وحاربت هذه الرابطة ضد التنازل للجبل الأسود عن أية أراض ألبانية. وتصدى الأتراك لهذه الحركة وأخمدوها عام ١٨٨١ م (١٢٩٨) هـ. أما في يوغوسلافيا فمن المعلوم أن الأراضي هناك

كانت قد جزئت عام ١٨٦٧ م (١٢٩٣) هـ. وفي سلوڤينيا عارض النمساويون السياسة الهادفة كي تجعلهم ألمان. وانضم الليبراليون إلى المحافظين في البحث عن الإستقلال الذاتي السلوڤيني المنفصل. ثم حدثت الإنتفاضة الإسلامية الصربية عام ١٨٨٢ م (١٢٩٩) هـ، وبرهنت على استياء الفلاحين من النظام الإجتماعي والسياسي الجديد. ونادت صربيا بالملكية عام ١٨٨٢ م (١٢٩٩) هـ. وقاد الملك ميلان اوبرينوفتش الرابع وبدعم من الأقلية المحافظة، حرباً غير موفقة ضد الإتحاد البلغاري مع الروملي الشرقية في عام ١٨٨٥ م (١٣٠٢) هـ وفقد نتيجة لهزيمته أمام البلغار الكثير من شعبيته، وأجبر بعد أقل من أربع سنوات على التنازل عن العرش لابنه اسكندر. ولكن الحياة الصربية كانت مضطربة فالابن اتبع مثل أبيه سياسة مدمرة.

وفي بلغاريا حدث تغير هام في البناء الإجتماعي أثناء الحرب التركية الروسية. فما أن ترك العثمانيون من ملاك الأراضي البلاد، حتى تبعهم عدد غفير من الفلاحين الأتراك. فقبض الفلاحون البلغار من النصارى على زمام الأمور واحتلوا الأراضي، واقاموا المزارع الصغيرة والمتوسطة الحجم. وفي الروملي الشرقية التي انفصلت عن بلغاريا عام ١٨٧٨م دعمت حركة الوحدويين بشكل عام. وجرى انقلاب عسكري وانتفاضة شعبية أديا إلى إعلان الإتحاد بين الروملي الشرقية وبلغاريا في شهر أيلول من عام ١٨٨٥ م. وحاولت صربيا منع الإتحاد بالقوة ولكنها منيت بهزيمة عسكريه.

وبعد عام ١٨٨٥ م، ظهر عدد من الأحزاب السياسية، نتيجة الإنشقاق في صفوف الليبراليين. ونما دور الجيش والحركات المكدونية. وفقد «باتنبرغ» الدعم الروسي وأجبره الجيش المتآمر مع الروس على التنازل عام ١٨٨٦ م (١٣٠٣)هـ. ومرت بعض الأزمات انتخبت الجمعية الوطنية إثرها الأمير «فرديناند ساكسي كوبورغ غوثا» كخليفة له في شهر حزيران عام ١٣٠٤ هـ. واتخذت الحكومة التي شكلها «ستيڤان ستامبولوف» [١٨٨٧ - ١٨٩٤] م (١٣٠٤ - ١٣١١) هـ وضعاً متعاطفاً مع النمسا. ولم تكن الحياة السياسية، كما





هو الحال في صربيا مستقرة عند نهاية القرن. فالمؤامرات تحاك ضد الحكومة، والإغتيالات السياسية تجري على نطاق واسع، والنمو المتصاعد للعصابات المكدونية يزداد يوماً بعد يوم في الخفاء، والعديد من الإنتفاضات الفلاحية تحدث هنا وهناك. واخيراً ماذا حدث في اليونان في المدة التي تلت الحرب؟ أن الجدب والفقر الذي حل في ارجاء البلاد وخاصة ما نجم منه عن تزايد السكان، والتعرفه الفرنسية التي فرضت على العنب، ادى إلى هجرة الأعداد الغفيرة من أبناء البلاد في التسعينات.

وفي مجال السياسة الخارجية، حاولت اليونان دمج مكدونيا شمالاً وابتلاع كريت جنوباً. وفكرة الإتحاد كانت قد هيأت لها بعض العوامل أدت إلى تمردات محلية هناك سحقها العثمانيون . ولكن انتفاضة جديدة حدثت عام ١٨٩٦ م (١٣١٣) هـ. وادت هذه الانتفاضة الى المطالبة، بالإتحاد مع اليونان في شباط من عام ١٨٩٧ م الموافق ١٣١٤ هـ.

وحاولت اليونان دعم الجزيرة، وأرسلت قوة مسلحة كي تضمها بالقوة، ولكن الدول الأوروبية تدخلت. ثم هاجمت القوات اليونانية العثمانيين في (تيسالي) في نيسان من عام ١٨٩٧ م (١٣١٤) هـ. ولكنها منيت بهزيمة مرة. وطلبت مقررات السلم من اليونان دفع تعويض عن أضرار الحرب أدى إلى الإفلاس التام. ومع ذلك فقد حصلت الجزيرة على استقلالها الذاتي، وسمي الأمير «جورج الثاني» ابن ملك اليونان مفوضاً للجزيرة.

## ٢ - العثمانيون والبلقان قبل الحرب العالمية الأولى:

### أ ـ البلقان مسرح الصراع العالمي:

شكلت البلقان في بداية القرن العشرين الميلادي مسرح الصراع العالمي. وكان للدول الأوروبية مصالح عسكرية واقتصادية وسياسية متضاربة. وليس أكثر من مشروع سكة حديد بغداد، دليلاً رمزياً على مدى المطامح

الألمانية في نهاية القرن التاسع عشر، تلك المصالح التي كانت تتدفق بسرعة باتجاه الشرق. وتتحدى السيطرة والإشراف المالي الفرنسي في الدولة العثمانية.

ان الضعف الروسي المتزايد، أدى إلى قلب الموازين في حلبة الصراع النمساوي الروسي هناك. وحفزت القوة الإيطالية المتصاعدة، الجهود المبذولة من قبل النمسا والمجر، للوصول إلى ميناء سالونيك وبحر إيجه.

وكانت نقطة التحول، باتجاه التحرر السياسي والاقتصادي قد بدأت في بلاد اليوغوسلاف. وكان عام ١٩٠٣ م هو العلامة المميزة. فقوات كرواتيا السياسية، بدأت تنظم نفسها ضد السيطرة المجرية، وظهر استياء مشابه في البوسنه. وهيأ السبل لسياسة حركية قومية أجنبية «تحت حكم بطرس الأول قره جورج ڤتش» أدت الى اغتيال الملك اسكندر اوبرينوڤتش في صربيا.

وبرزت في مكدونيا عام ١٩٠٣ م (١٣٢١) هـ حركة «ايلندين» وظهر إثرها ضعف الدولة العثمانية على ضفاف البوسفور. اما في كرواتيا ودالماشيا، فإن ائتلاف الأحزاب السياسية، كان قد وضع برنامجاً يدعو للوحدة اليوغوسلافية، وللإصلاحات سياسية واجتماعية. وقد تسلمت الحركة الدعم من صربيا والجبل الأسود وابتدأت تجميع قوتها. وبدأت دول البلقان بالتسلح وشراء المدافع والذخيرة من أوروبا.

وكانت توجد في البلقان نزعتين أولاهما تعود للمنافسات على الأرض بين الدول البلقانية، وثانيهما نزعة العداء المشترك ضد تدخل الدول الأجنبية. وهكذا فقد حصل صراع داخلي متصاعد فيما بعد من أجل مكدونيا، وتجلى هذا الصراع في نشاطات العصابات المسلحة في الدول المجاورة، ذلك الذي أدى إلى معاناة كبيرة لدى السكان المحليين. وادى الخوف من التدخل الأوروبي، والحاجة إلى الدفاع المشترك، وجوب التقارب السياسي، وإقامة العلاقات الودية بين صربيا وبلغاريا في عام ١٩٠٤ م (١٣٢٢) هـ وانضم إليه الجبل الأسود فيما بعد.



واخيراً ظهرت الثورة الفلاحية في رومانيا عام ١٩٠٧ م (١٣٢٥) هـ ولكنها أخمدت عسكرياً. ودفع الألوف أرواحهم ثمناً لهذه الثورة الفاشلة. وأبدت ببرهان أكيد وقاطع، أن المشكلة الزراعية الرومانية كانت لا تزال بعيدة المنال عن طريق الحل.

**ب - حوادث عام ١٩٠٨ - ١٩٠٩ الموافق ١٣٢٦ - ١٣٢٧ هـ.**

ابتدأ الصراع الديبلوماسي بين دول أوروبا عام ١٩٠٨ م، من أجل مشروع سكة حديد البلقان. وعبرّت مشاريع السكك عن النزعة السياسية للدول المتورطة.

واندفعت النمسا باتجاه بحر إيجه بتبني مشروع سكة حديد «نوڤي بازار». وخطط الروس والصرب للوصول إلى الأدرياتيك عن طريق مشروع «الدانوب - الأدرياتيك». وعن طريق سكة حديد «فلورا مناستر» تجلى الإختراق الإيطالي باتجاه جنوبي ألبانيا، واخيراً لا يخفي جهود اليونآن والبلغار لابتلاع وسط مكدونيا.

وتمردت الحامية العثمانية في سالونيك في حزيران من عام ١٩٠٨ م (١٣٢٦) هـ، ويعود سبب التمرد الظاهر للفعاليات الثورية النشطه التي قامت بها جمعية تركيا الفتاة. واضطر السلطان العثماني عبد الحميد الثاني نتيجة حركة الضباط إعلان فترة دستورية. وأراد الإتحاديون حكماً يمنح الحرية والمساواة لكافة القوميات في داخل الدول العثمانية.

وانتهز البلغار فرصة الفوضى التي حدثت في ٥ تشرين الأول، واعلنوا استقلالهم التام. وفي اليوم التالي، أعلنت امبراطورية النمسا والمجر ضم البوسنه والهرسك. ثم أعلن الكريتيون بعد يومين اتحادهم مع اليونان. وبذلك انهار النظام السياسي الذي أقره مؤتمر برلين. وكانت أهم الحوادث ما جرى في البوسنه والهرسك. فقد احتج الصربيون بعنف ضد ضم البوسنه والهرسك. وعارضت انكلترا النمسا على هذا الإجراء. ودعم الروس صربيا

وبلغاريا. ووضعت تسوية سلمية للتعويض عن الأضرار بين الدولة العثمانية والنمسا. ودفع النمساويون بموجبها تعويضاً للدولة. ولكن الصراع النمساوي الصربي، جر أوروبا إلى حافة الحرب. واجبر الضغط الموجه من قبل برلين في آذار من عام ١٩٠٩ م (١٣٢٧) هـ الروس على الموافقة. وحذت صربيا حذو المثال الروسي، وقبلت بضم البوسنه والهرسك من قبل النمسا والمجر. والقت حوادث عام ١٩٠٨ - ١٩٠٩ م بظلالها السوداء على الحوادث المقبلة.

**جـ حروب البلقان ١٩١٢ - ١٩١٣ م الموافق ١٣٣٠ - ١٣٣١ هـ.**

كانت الحركات المتمردة والحوادث الانفصالية، تتوالى في الروملي وألبانيا، وكان التوتر يزداد في معظم أجزاء شبه الجزيرة البلقانية. وفي ذلك الوقت جرى الإنقلاب العسكري ضد حكم السلطان عبد الحميد الثاني. وكانت اليهودية العالمية وراء هذا الإنقلاب كما هو معروف. وتقدم الجيش العثماني المرابط في سلانيك ومن بين قادته إضافة إلى الضباط الإتحاديين تواجدت بعض العناصر المشبوهة التي ارتدت الزي العسكري، وبعض زعماء عصابات البلغار وعلى رأسهم «ساندانيسكي» ذو اللحية الصفراء. وأسعد طوبطاني، الألباني الخائن. وآرام أفندي الأرمني، وعمانويل قراصو اليهودي. وتسلم الإتحاديون السلطة.

ودعت تركيا الفتاة البرلمان العثماني لعقد جلسة في العاصمة «استانبول». واقتضى الأمر حضور مندوبي البوسنه والهرسك. باعتبار كونهما لا يزالان يعدون رسمياً من الرعايا العثمانية. وكان على وفد تلك الولاية الخيار بين أمرين، إما السفر إلى العاصمة العثمانية وحضور جلسات المؤتمر، أو رفض الدعوة والإنحياز إلى جانب نظرائهم الصرب المعادين للنمسا، الأمر الذي أدى إلى إثارة النمسا والمجر، التي رأت ضرورة ضم البوسنك والهرسك فوراً إلى بلادها. وللحصول على الموافقة الروسية حول هذه الخطوة، قام وزير خارجيتها بإجراء محادثات مع وزير الخارجية الروسي. وقدم للروس تأييد بلاده لاقتراح يقضي بفتح المضائق أمامهم لأمد طويل، مقابل دعم هذه



الخطوة. وبعد ذلك اعلنت النمسا ضم البوسنه والهرسك. وبصورة عاجلة لكي لا تمكن الروس من كسب تأييد القوى الكبرى الأخرى إلى جانبهم في موضوع فتح المضائق، ذلك الأمر الذي لم يكن في الحقيقة قريب المنال. ومضت أسابيع من التوتر. والروس في ضيق شديد. واندفعوا نحو تأييد الصرب الناقمين. ولكنهم من ثم سرعان ما انحنوا أمام الإصرار الألماني، واعترفوا بالأمر الواقع، أمام تزايد مشاعر الغضب والعداء الصربي للنمسا والمجر.

وأغاظت مشكلات البوسنة، من جهة أخرى إيطاليا وقادتها، نظراً لتوقيع إتفاق سري مع الروس، ضد أي تدخل نمساوي أبعد مدى في البلقان.

وكان الوضع في البلقان يبدو عسيراً للغاية. واستمر الأمر كذلك. فالألبانيون بعد أن أمضوا مدة من الإئتلاف القصير الأمد مع الإتحاديين، انبروا للثورة ضدهم وذلك من عام ١٩٠٩ - ١٩١٢ م ودعاة الوحدة بين اليونان وكريت فشلوا في الجزيرة لمداخلات أوروبا ومعارضاتها. وأدى هذا الأمر إلى استياء عام في اليونان، ومهد الطريق لانقلاب عسكري، تولى إثره القائد العسكري «الثيريوس فينزيلوس» مهام رئاسة الوزارة. ولكن مكدونيا استمرت مركزاً لجذب الطموحات القومية الصربية والبلغارية واليونانية. وقام الأتراك العثمانيون بإلغاء الأحزاب السياسيه والمنظمات القوميه في مكدونيا عام ١٩٠٩ م (١٩٢٧) هـ. وفي الحال ابتدأت العصابات المسلحة المختلفة بنشاطاتها التخريبية. أما إيطاليا فقد انتهزت الفرصة وشنت غاراتها العسكرية على طرابلس وبرقه، بعد انذار أبلغته الباب العالي في ٢٨ أيلول عام ١٩١١ م (١٣٢٩) هـ. واستمرت الدولة العثمانية نحواً من سنة في حربها مع إيطاليا، وانعقد بينهما صلح لوزان في عام ١٩١٢ م (١٣٣٠) هـ. وخسر الأتراك العثمانيون ما تبقى لهم في أفريقيه.

إن الحرب ضد الدولة العثمانية، تطلبت تحالفاً بلقانياً شاملاً. وكان الأمر

كذلك. فالفرص المتاحة لهم من جراء الحرب التركية الإيطالية مكنتهم من التحرك وبالتالي شن الهجوم. وبدأت المفاوضات الصربية البلغارية، ولكنها تعرضت لعراقيل وخلافات حول تقسيم مكدونيا. وتوصل اليونانيون والبلغار إلى اتفاق لم يمس المشكلة المحددة. واخيراً انضم الجبل الأسود إلى التحالف الذي جند اي ذلك التحالف ـ قوة عسكرية بلغ قوامها ٧٥٠ ألف رجل. وابتدأت الحشود العسكرية والهجوم بعد التصريحات المعلنة.

واعلن كل من ملك اليونان وملك البلغار منشوراً على العالم، يذكر فيه كل واحد منهما الأسباب التي دعت النصارى إلى حمل السلاح لمقاتلة العثمانيين. وأشار إلى مصارعة الصليب للهلال، وغيرها من العبارات التي استعملها فيما مضى ملوك النصارى أثناء الحروب الصليبية.

ثم تبعهم ملك الصرب، وسرد تاريخ الصراع بين بلاده والأتراك وزعم زوراً وبهتاناً أن تركيا كانت لا تعترف بديانة الصرب وتعارض حريتهم الدينية وتجبرهم على الاستسلام، وغير ذلك من العبارات المحرضة.

وفي حين كانت روح التعصب والحقد والكراهية ضد المسلمين تفوح من بيانات هؤلاء الملوك الدمى في يد الأجنبي، كان السلطان العثماني «محمد الخامس»[٤] يصدر منشوراً يحث على حفظ ذمار السلطنة العثمانية وتوطيد نفوذ الحكومة ويدعو إلى الرفق بالنساء والشيوخ والأطفال، والتحرج عن سفك الدماء بدون موجب والمحافظة على الأموال والأرواح وأماكن العباده. ولم يكن في بيانه أية كلمة أو إثارة أو تهيج.

(٤) السلطان محمد الخامس: وهو السلطان محمد رشاد ابن السلطان عبد المجيد. ولد عام ١٨٤٤ م الموافق ١٢٦٠ هـ. وتولى السلطنة بعد خلع أخيه عبد الحميد. لم يكن ذا تأثير قوي على الدولة العثمانية والقادة الاتحاديين. وفي عهده أخمد التمرد الألباني ونشبت حرب البلقان. اهتم بالشعر وقراءة التاريخ والعلوم الشرقيه. وقد فقد الإنكليز والفرنسيون في عهده ١٣٠ ألف قتيل على ايدي العثمانيين في الدردنيل. كما استرجعت باطوم وأردخان وقارص من أيدي الروس. توفي عن عمر يناهز ٧٢ سنة ودفن في مقبرة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه في استانبول في ٣ تموز عام ١٩١٨ م الموافق عام ١٣٣٦ هـ.



وبدأت الحشود العسكرية البلقانية على الحدود العثمانية. وفي الوقت ذاته قدمت مذكره إلى الباب العالي تطلب منح السكان النصارى، الحق في الحكم الإداري الذاتي. ورفضت الدولة الطلب بطبيعة الحال. وكان ذلك الرفض سبباً لإعلان الحرب.

وبدأ ملك الجبل الأسود، فأعلن الحرب على الدولة العثمانية في ٨ تشرين الأول من عام ١٩١٢ م. ثم تبعه ملوك البلغار والصرب واليونان واعلنوا الحرب في ١٨ تشرين الأول، واحتل البلغار جسر مصطفى باشا، بعد أن بدأت القوات الصربية واليونانية والبلغارية الزحف من عدة مناطق باتجاه الحدود التركية. وكانت أهمية بلغاريا التي تعد أكبرهم من حيث السكان والمساحة. تكمن في موقعها الاستراتيجي وجاهزيتها القتالية. وهذا ما مكنها من تحقيق انتصار فتح الطريق أمامها إلى بحر مرمره. وقد انتصروا في (لوله برغاز)[٥] في ٢٨ تشرين الأول ودخلوا عمق البلاد التركية وفرضوا الحصار على عدة مدن.

وكان الصرب قد استولوا على «بريشتينه» في ٢٠ تشرين أول. ثم حققوا انتصاراً بعد يومين فقط في «كوما نوقو». وانهزم الأتراك في «قرق كليسه» واستولى الصرب في ٢٦ من الشهر ذاته على «أسكوب».

أما اليونان فقد فازت يوم ٥ تشرين ثاني على العثمانيين في موقعه «بنتبغاديا» ثم سرعان ما سقطت سلانيك بعد ثلاثة أيام فقط، وجرت معركة (مناستر) و«شتالجه» في غضون أيام قليلة. واتجه جيش الجبل الأسود في ١٨ تشرين ثاني واحتل «آلسيو». لقد حقق أعضاء التحالف البلقاني نصراً على العثمانيين، فالغرب كان وراءهم وهو الذي كان يعدهم ويزودهم بالعتاد

(٥) لولي برغاز: وهي بلدة تقع في وسط تركيا الأوروبية إلى الشمال الغربي من استانبول على الطريق الرئيسي الموصل الى أدرنه وأوروبا.

والسلاح الحديث. فالطائرات استعملت لأول مرة هناك، وقد جهزهم بها أعداء الدولة العثمانية وقد قصفت بها (أدرنه).

وانضمت قوات الجبل الأسود إلى قوات الصرب، ودخلوا (سكوبيا) معاً وحققوا نصراً في «موناستر» ووصلوا إلى الأدرياتيك.

واستطاعت بلغاريا هزم القوة العثمانية في «قرق لارلي» و«لولي برغاز» كما ذكرت. ثم تقدمت إلى خطوط «جاتالكا» أمام العاصمة (استانبول). وفقدت الدولة العثمانية سيطرتها على كافة أراضيها في أوروبا عدا شريطاً صغيراً حول العاصمة. وجرت الموافقة على استقلال ألبانيا، وقسمت الأراضي الباقية، بين قوى البلقان الحاقدة.

ثم اجتمع مندوبوا الصلح يوم ١٦ كانون أول في لندن. ورفضت بادىء الأمر الدولة البلغارية طلب الصلح والسلام وواصلت حربها. وسرعان ما تعرضت لضغط عثماني شديد فوافقت على الإقتراح المقدم لها من أجل الصلح. والتقى المندوبون على مائدة المفاوضات ولكنها سرعان ما قطعت فجأة.

ففي نهاية كانون الثاني من عام ١٩١٣ حدث انقلاب في العاصمة العثمانية قام به ضباط تركيا الفتاة. وتمكن أنور باشا ومن معه في ٢٣ من الشهر من إسقاط كامل باشا. وارادي ناظم باشا قتيلاً. وتألفت في اليوم التالي وزارة برئاسة (محمود شوكت). وبعد يومين قطعت المفاوضات في لندن ورفضت تركيا التخلي عن أدرنه وعادت المعارك لتستأنف. ثم قبل العثمانيون في أول آذار وساطة الدول الأوروبية.

ثم قامت اليونان في ٦ آذار من العام ذاته باحتلال (يانيا). واشتدت المعارك إثرها في «شتالجه» واستسلم بعد ذلك جاويد باشا للصرب في «سكومبي» وسلمت أدرته في ٢٦ آذار ورضيت تركيا باقتراحات الدول في أول نيسان.



وبعد عشرة أيام عادت الدول فحاصرت ساحل الجبل الأسود واحتل الجبليون في اليوم التالي «أشقودره» وإثرها اجبرت الدول ملك الجبل الأسود على إخلائها وعقدت بعدها مواد الصلح الأساسية في ٣٠ نيسان عام ١٩١٣م الموافق ١٣٣١ هـ.

وبموجب نصوص معاهدة السلام، فإن كافة الأراضي الواقعة غرب خط [أنيز - ميدي] أعطيت للحلفاء البلقانيين. ومن نتائجها اتحاد كريت مع اليونان. كما حصلت اليونان على سالونيك وكاڤالا؛ وعلى جزء كبير من ساحل مكدونيا. وحصل الصرب على الجزء الشمالي والأوسط من مكدونيا. وكسب الجبل الأسود جزءاً من سنجق «نوڤي بازار» وشكلت حدوداً مشتركة مع الصرب. واحتفظت بلغاريا بجزء من مكدونيا ألشرقيه كما حصلت رومانيا على «دوبرجه».

ويمكن القول أن خلاصة الأمر انحصرت في أن الدولة العثمانية تخلت عن جميع الأراضي الواقعة شمالي خط يمتد من أنوس إلى ميديا[٦] عدا ألبانيا. كما ترك لامراطور المانيا وامبراطور النمسا والمجر ورئيس جمهورية فرنسا وملك انكلترا وامبراطور الروسيا وملك ايطاليا الاعتناء بتحديد حدود ألبانيا مع البلاد المجاورة.

وفقد الأتراك بموجبها ٨٣٪ من الأراضي و٦٩٪ من السكان في الولايات الأوروبية.

وبقيت المعاهده دون تطبيق لنشوب القتال بين الدول البلقانية فيما بينها، وهي التي نشب الخلاف بينها على تقاسم الأرض.

لقد نشب الخلاف الحاد بين الدول البلقانية الثلاث المتحالفة: صربيا -

(٦) خط أنيز - ميديا: وهو الخط الفاصل بين ميديا أو «ڤيقوي» الواقعة على ساحل البحر الأسود في تركيا الأوروبية إلى الشمال الغربي من استانبول، و(أنيز) الواقعة ايضاً في تركيا الأوروبية إلى الجنوب عند الحدود اليونانية التركية.

اليونان - بلغاريا. وتحول بسرعة إلى صراع عسكري. وادعت كل دولة أحقيتها في السيطرة على الأراضي المكدونية. وطالب الصرب واليونان بجعل قضية مكدونيا قضية قائمة بذاتها. والتقت الآراء أخيراً حول المطالبه بالحكم الذاتي لكل المناطق البلقانية المحرره بواسطة الحرب البلقانية، بما في ذلك الأراضي المكدونية. وكان هدف الصرب واليونان، جلب سكان مكدونيا نحوهما مع مرور الزمن، وبالتالي الإستيلاء على الأراضي وضمها.

وحرضت بلغاريا حرب العصابات في مكدونيا. وتركت المسألة للمنظمات التخريبية الثورية ودعمتها خوفاً من وقوع البلاد المكدونية بأيدي الصرب واليونان. وأرسلت بعض زعماء العصابات للعمل مع هذه المنظمات وشكلت الأندية الدستورية البلغارية داخل الأراضي المكدونية.

وانتهزت أوروبا الفرصة السانحة للتدخل. وعملت على تعميق الخلاف. وشجعت رومانيا على المطالبه بمنطقة الدوبرجا. وسعت كل دولة اوروبية بالوقوف الى جانب اخرى بلقانية وقدمت لها الوعود بالدعم والتأييد بهدف الحصول على تأييدها ومحالفتها في هذه المدة بالذات.

وفي عشية الحرب العالمية الأولى، تراجعت الدولة العثمانية. عن كل الأراضي التي احتلتها تقريباً في شبه جزيرة البلقان وبحر إيجه. وتزايدت حدة التناقضات بين الدول. وتحولت الى حرب باردة لم تلبث ان تحولت إلى ساخنه، وتمهد السبيل لنيران الحرب العالمية الأولى.

واخيراً أنقل عن كتاب حاضر العالم الإسلامي - تعليقات شكيب ارسلان ما قاله تحت عنوان سيطرة الغرب على الشرق: «.... وللدلالة على مبلغ الكشاحه والعداوة اللتين اتقدت نارهما في قلوب المسلمين، نورد كلمة قالها أحد كتاب الترك، بعد أن وضعت الحرب البلقانية أوزارها «أجل إننا قد بؤنا بالكسرة والحيف؛ بعد أن هب العالم بأسره يجادلنا ويقاتلنا. والسَبب في ذلك إنما هو لأننا قد صرنا ألف التأني في آرائنا نبتغي تهذيب عقائدنا متقربين من الحق معرضين عن الباطل في سبيل الحضارة الإنسانية. إن الجيش



البلغاري قد علمنا درساً لا ننساه. وهو أنه يجب على كل جندي في ساحة الحرب ان يقاتل مقاتلة البربرية والوحشية، ويشرب الدماء كالماء، ويذبح النساء والأطفال والشيوخ الشيب تذبيحاً. ويسلب وينهب السكان الآمنين، ويمتهن حرمتهم وشرفهم ويزهق أرواحهم. وعلى ذلك فلنبح هراقة الدماء والبغي ثم نصرخ من بعد ذلك: الوحشية الوحشية. كما فعل جيش الملك فرديناند. لسرعان ما يلتفت العالم المتمدن إلينا. ويرعى من كرامتنا ويعلي من مقامنا ويحبنا حباً جماً».

ويعقب فيقول بأن إحدى الجمعيات الأميركية، أرسلت بعثة إلى البلقان للفحص، عما روي من الفظائع التي ارتكبها البلغار واليونانيون والصرب بالمسلمين عام ١٩١٢ م. فثبت لديها كل ما قيل بل زيادة على ما شاع. وحررت خلاصة الفحص وقررت أن الترك كانوا أرحم جداً وأرأف وأشرف في حربهم من الأمم البلقانية المسيحية. لكن الصحف الأوروبية لم تنشرهذا التحقيق ولا أشارت إليه. وكان أكثر الأوروبيين ينظرون إلى ما حل بمسلمي الروملي بنظر شماته ونادر منهم من قبح الفظائع أو احتج عليها».

### ٣ - العثمانيون والبلقان والحرب العالمية الأولى:

#### أ - الأتراك والبلقان أثناء الحرب:

إن المشكلات القومية التي زرعتها أوروبا في جسم شبه الجزيرة البلقانية، والتي استخدمتها في فصل تلك البلاد عن الدولة العثمانية، هي ذاتها المشكلات التي أدت إلى نشوب الصراع بين تلك الدول التي تأسست بعد حكم المسلمين العثمانيين، وهي ذاتها المشكلات التي كان لها دور تفجير الحرب العالمية الأولى.

إن تحطيم النظام التقليدي، الذي ساد أوساط الجماهير الصربية الجنوبية، كان عاملاً في إذكاء نار تلك الحركات. واندفعت الأعداد الغفيرة من جموع أبناء الفلاحين للانخراط في صفوف المنظمات الثورية. فالحياة في المزرعة غدت غير ممكنة. واندفع الناس للحصول على قسط أوفر من التعليم

كي يؤهلوا أنفسهم لعمل مكتبي في المدن. وتعذر الحصول على هذا العمل. ودب اليأس وفرغ الصبر وطال الإنتظار. ورنت الأبصار الى رجال العصابات، كي تعمل شيئاً.

إن النجاح الذي تحقق بعد أفول نجم الخلافة العثمانية هناك، والذي قاده دعاة الأفكار القومية، سرعان ما حرك الأطماع القومية الصربية الشديدة الإندفاع وأغراها من ثم بتقطيع اوصال أسرة «هبسبورغ».

وفي الثامن والعشرين من حزيران عام ١٩٠٠ م (١٣١٢) هـ، تزوج الأرشيدوق النمساوي «فرانسوا فرديناند» من الكونتيسه «صوفيا شوتيك» وسط جو من الكآبة والغم، فالعريس وهو ولي عهد امراطورية آل هبسبورغ، يأتي ترتيبه الثاني لارتقاء العرش، أما العروسة فكانت مجرد كونتيسه. ليس لها من ألقاب الشرف ما يؤهلها الاقتران برجل مثل فرديناند العاشق الذي داس على تقاليد أسرته. فهي لا يحق لها أن تجلس الى جانبه في أية حفلة رسمية فما العمل؟ وكان اللجوء لاستعمال رتبته العسكرية «فيلد مارشال» التي تخوله منحها امتيازات حين يكون قرينها منتدباً بصفته العسكرية.

وقرر الأرشيدوق، القيام بجولة تفتيشية عسكرية في البوسنة، عام ١٩١٤ م (١٣٣٢) هـ، يوم عيد زواجهما وسار موكب الأرشيدوق وزوجته عبر الشارع الرئيسي في (سيراجيفو) فألقيت عليهما قنبلة من قبل أحد الطلاب القوميين المتهورين. ولكن المحاولة فشلت. وتابع الموكب طريقه الى قاعة الاستقبال المخصصة، وكانت إهانة كبيرة لشخصه. وقرر مغادرة المدينة. وفي إحدى المنعطفات أبصر أحد التلامذة وهو «جافريلو برنسيب» العربة الرسمية أمامه. ولم يتمالك نفسه وقفز إليها وصرع الأرشيدوق بطلقة واحده.وأصيبت زوجته الجالسة في المقعد الخلفي. وماتت الكونتيسه في الحال. وهكذا تم اغتيال ولي عهد النمسا.

لقد شعر الموظفون النمساويون أن عليهم أن يصفوا حسابهم مع صربيا. وفشلت التحقيقات الأولى في الكشف عن دليل مقنع محدد، يثبت



ارتباط الحكومة الصربية بعملية الإغتيال. ولكن المؤرخين أشاروا إلى علم رئيس الوزراء الصربي بما كان يجري، وقد حاول بصورة غير مباشرة تحذير النمسا وسلطاتها من هذه العملية. فقائد المنظمة التي خططت للإغتيال، رئيس مخابرات أركان صربيا هو أحد خصومه السياسيين. وعمل رئيس الوزراء الصربي اقصى ما يستطيع ولكن الاغتيال حدث. . ودب الذعر في قادة أوروبا.

وأرسلت حكومة هبسبورغ، تطلب إخماد المنظمات القومية في صربيا، ومعاقبة المسؤولين عن تنظيم الإغتيال، واعلنت الحرب ضد صربيا في ٢٨ تموز، أي بعد حادث الإغتيال بشهر واحد فقط.

وسيطر التحالف الأوروبي، في خلال أسبوع واحد فقط، ووقفت روسيا وفرنسا وبريطانيا في جانب صربيا، ضد ألمانيا وامبراطورية النمسا والمجر. وخططت النمسا لسحق صربيا. ولكن تدخل الروس ودخولهم الحرب، قلب الخطط النمساوية رأساً على عقب. فعلى القوات النمساوية الآن التوجه إلى الجبهة الروسية. وتوقف القتال بعد اشتباكات عند حدود جبهات ما قبل الحرب.

وأظهرت حدة العداء نشاطاً ديبلوماسياً وعسكرياً محموماً في كل مكان من البلقان. وفي ١١ آب من عام ١٩١٤ م (١٣٣٢) هـ التجأ طرادان ألمانيان ـ وفي بعض الروايات أنهما وقعا في شرك ـ في بداية الحرب إلى العاصمة العثمانية. وانتقلا من ثم إلى ايدي الأتراك بعد عملية خيالية لبيعهما. وأبحرا في تشرين الأول إلى البحر الأسود لضرب الموانيء الروسية الساحلية. ومن غير إبطاء اعلن الحلفاء الحرب ضد تركيا «٤ ـ ٥» كانون أول عام ١٩١٤ م الموافق ١٣٣ هـ.

وهرعت كل من قوى الحلفاء والمحور، لخطب ود دول البلقان. وابتدأت المساومات. وأرادت بلغاريا الجزء من الأراضي الذي ألحق بالصرب واليونان من تراقيا ومكدونيا بعد حرب البلقان الثانية عام ١٩١٣ م. وأرادت

رومانيا جزء ترانسڤانيا والأقاليم المجاورة في بوكوڤينا وبانات من أراضي هيسبورغ.

أمااليونان فإن أطماعها تركزت على الأناضول وعلى امتلاك العاصمة العثمانية «استانبول» وكانت دول المحور قادرة على إعطاء وعد لتلبية معظم رغبات البلغار، فصربيا بنظرهم ستكون الخاسر الرئيسي. وكان الحلفاء قادرون أيضاً على تهدئة شره رومانيا. وبقيت مطامع اليونان هي العقبة الكأداء. فروسيا تتوق لامتلاك القسطنطينية.

واينعت جهود الحلفاء والمحور في تكتيل دول البلقان ببطء شديد امتد حتى عام ١٩١٧ م (١٣٣٥) هـ. وكان البلغار أول من بدأ الدخول في حلبة الصراع بالتحالف مع المحور في عام ١٩١٥ م (١٣٣٣) هـ. وبذا تغير الوضع الاستراتيجي لدرجة كبيرة في البلقان. وكان أول تحرك عسكري هو ما قام به الانكليز. ففي شباط من عام ١٩١٥ م، ضرب الأسطول الملكي القلاع العثمانية في الدردنيل. وحاولت بعد شهر، السفن الحربية البريطانية شق طريقها عبر المضائق. ونزلت في ٢٥ نيسان من عام ١٩١٥ م على الجانب الأوروبي من غاليبولي، كي تأخذ الدفاعات التركية، وتفتح الطريق إلى القسطنطينية أمام الأسطول. ولكن الأتراك كانوا قادرين على ايقاف التقدم قبل أن يتمكن من تحقيق نصر استراتيجي.

وكان التحرك الثاني الكبير من إيطاليا. فعلى الرغم من التحالف الدفاعي مع ألمانيا والنمسا والمجر، فإن الحكومة الإيطالية بقيت تقف على الحياد طيلة عام ١٩١٤ م (١٣٣٢) هـ. ورغب القوميون الإيطاليون بضم دالماسيا ومقاطعات نمساوية أخرى إلى بلادهم. ورغم الممانعات الصربية فقد وافق الحلفاء على معظم المطالب الإيطالية في معاهدة لندن السرية التي وقعت عام ١٩١٥ م (١٣٣٣) هـ. وأعلن الطليان الحرب طبقاً لذلك. وفتحوا جبهة جديدة ضد النمسا في الألب. وعبرت قواتهم أيضاً بحر الأدرياتيك لتحتل ألبانيا.



وأتت أخيراً المساعدات للحكومة الصربية من القوات الفرنسية والبريطانية التي نزلت في المدينة اليونانية سالونيك. واثار هذا أزمة كبيرة في داخل اليونان أدت إلى مواجهة مباشرة بين رئيس الوزراء المناصر للحلفاء «فنزيلوس» والملك (قسطنطين) الذي فضل استمرار الحيل حتى ينجلي الموقف ويتبين الرابح من الخاسر في الحرب. وتمكن الحلفاء في النهاية، وعن طريق قصفهم القصر الملكي في أثينا من إجبار الملك على التنازل عن العرش في حزيران عام ١٩١٧ م (١٣٣٥) هـ.

### ب ـ الأتراك والبلقان بعد انتهاء الحرب:

انتهت الأعمال العسكرية الطويلة التي اكتنفت ربوع البلقان في ٣٠ أيلول عام ١٩١٨ م (١٣٣٦) هـ. وقرر البلغار قبول الهدنة. وتقدمت القوات الحليفة من سالونيك بقيادة فرنسا باتجاه الشمال قاصدة الدانوب. وعندما اقتربت، عادت رومانيا ـ وهي التي كانت قد وقعت اتفاقية سلام مع المحور ـ عادت لتدخل الحرب مع الحلفاء في تشرين الثاني. واستغلوا ظروف الحرب كي تعتبر من الدولة الحليفة المنتصرة في أثناء انعقاد مؤتمر السلام.

وحذت الدولة العثمانية حذو بلغاريا. وقبلت شروط الهدنة في ٣٠ تشرين الأول. وكانت شروطها قد سمحت للقوات البريطانية التقدم عبر الدردنيل واحتلال العاصمة العثمانية في ١٣ تشرين الأول.

أما امبراطورية النمسا والمجر، فكانت من بين الممالك التي تحطمت. وهي التي وقعت على الهدنة في ١٣ تشرين الثاني. وتجرد الامبراطور من قوته وفعاليته، نتيجة للأحداث التي وقعت. واسرع الرومانيون الذي كانوا من تابعي ممتلكات مقاطعة «بسارابيا» من قبل، ووضعوا إيديهم على: ترانسڤانيا ـ بانات ـ بوكوڤينا، بأقصى ما يستطيعون من قوة. وتحركت القوات الصربية، داخل أراضي هبسبورغ السابقة، بينما حاول الإيطاليون السيطرة على السواحل الأدرياتيكية.

وتحت تلك الظروف. لم يتح إلا مجالاً ضيقاً أمام الكروات والسلوفين يسمح بالمناورة. ثم أعلن المجلس الوطني القومي، في اجتماعه المنعقد في زغرب في ٢٩ تشرين أول عام ١٩١٨ م (١٣٣٦) هـ، استقلال يوغوسلافيا، وهي تعني الأراضي التي يسكنها السلاف الجنوبيون من بلاد امبراطورية النمسا والمجر. وقبل التمكن من الوصول إلى إقرار تسوية مع الصرب، فقد جرى تحقيق اتفاق مبدئي في جنيف. ولكن هذا الإتفاق رفض وانتهك جزئياً، وانهار مجلس زغرب. واختيرت مجموعة عمل لإقامة الاتحاد العاجل مع صربيا. واعلنت مملكة للصرب والكروات والسلوفين الذين اختاروا بلغراد عاصمة لهم.

ثم جرى انقلاب سياسي في الجبل الأسود، وخلع أميره، واندمجت دولته في كيان الدولة الصربية الجنوبية الجديدة. وبقيت بعض المشكلات دون تسوية. مثل موضوع اتبّاع الدولة الجديدة نظاماً اتحادياً فدرالياً أو اندماجياً وقضية الصرب والكروات.

**جـ - نتائج مؤتمر السلم على الأتراك والبلقان:**

رسم مؤتمر السلم الذي انعقد في كانون ثاني من عام ١٩١٩ م (١٣٣٧) هـ في باريس، معاهدات منفصلة لكل دولة انهزمت في الحرب العالمية الأولى. وبموجب معاهدة - سانت جيرمن - التي وقعت في ١٠ أيلول من عام ١٩١٩ م (١٣٣٧) هـ. تخلت النمسا عن الأراضي السلوفينيه والدالماسيه لصالح المملكة الصربية الكرواتية السلوفينيه الجديدة. وبموجب معاهدة - ينوللي - التي جرى التوقيع عليها في ٢٧ تشرين الثاني عام ١٩١٩ م (١٣٣٧) هـ، تخلت بلغاريا عن شريط ساحلي يشرف على بحر إيجه، كانت سابقاً قد ربحته عام ١٩١٢ م (١٣٣٠) هـ أثناء الحرب البلقانية لليونان. كما أنها أعطت منطقة حدودية صغيرة لصربيا.

أما معاهدة - تريانون - التي جرى التوقيع عليها في ٤ حزيرات عام ١٩٢٠ م (١٣٣٨)، فبموجبها تخلت المجر عن ترانسلفانيا. كما سلمت كرواتيا



وسلوفينيا وباقي بانات للدولة السلافية الجديدة.

وأخيراً فبموجب معاهدة سيفر، التي وقعت في ١٠ آب عام ١٩٢٠ م (١٣٣٨) هـ، تنازلت تركيا عن معظم تراقيا وأراضي (سميرنه) أي (إزمير) في آسيا الصغرى لليونان. وسوّت هذه المعاهدة العديد من المسائل المتعلقة بالأراضي. تلك المشكلات الإقليمية التي شغلت السياسات البلقانية ووضعتها في طريق طويل وشاق.

ولكن سياسة تقرير المصير القومي عانت من اختبارات صعبة للغاية في بلاد تعاني من مشاكل وقوميات مختلفة.

ولم تحل مسألة تخطيط الحدود الإيطالية اليوغوسلافية في مؤتمر السلام. وبدلاً من ذلك فقد قررت مفاوضات عاجله في عام ١٩٢٤ م (١٣٤٢) هـ، تخطيط حدود أقنعت كلا الطرفين - أما في البانيا، فإن تخطيط الحدود لم يجر حتى بدأ موعد استئناف لجنة دولية قديمة من عام ١٩١٢ م (١٣٣٠) هـ. وتضمنت أخيراً تمثيلاً للعمال مما أدى إلى بعض الخلاف السياسي الطفيف - واستمر حتى إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

شاركت الأقليات التركية والتتارية الإسلامية القاطنة على طول الساحل الروماني والبلغاري من البحر الأسود، في إقرار الوضع الشرعي لألبانيا. واختلفت اوضاع القوميات البلقانية إلى درجة كبيرة، تلك التي كانت تنعم في السابق بالمركز القيادي في الدولة والمجتمع. ووجدت نفسها فجأة أمام وضع جديد سلبت فيه امتيازاتها السابقة. واصبح من غير الممكن تحمل هذا الوضع وقام المنتصرون في الحرب بتسليط جام غضبهم على المنهزمين. وجرى الإنتقام بصورة خاصة من ابناء الأقليات التركية والمجريه والإيطالية. وخضعت لتمييز وتفرقة إدارية فظيعة. ومن هنا فإن التسوية الإقليمية التي جرت بين العام ١٩١٩ (١٣٣٧) هـ وعام ١٩٢٠ (١٣٣٨) هـ، كان لها أكبر الأثر في نقل العديد من المشكلات القومية، التي كانت مصدر الإزعاج والبلاء داخل امبراطورية النمسا والمجر وخارجها، والمشكلات والعلل المستعصية التي

أضعفت كيان الدولة العثمانية وهزت أوصالها قبل عام ١٩١٤ م، إلى رومانيا والمملكة الصربية الجديدة. ففي رومانيا، كان عدد الأقليات التركية والتتارية والبلغارية والأوكرانية والمجرية والألمانية واليهودية يربو على الأربع ملايين والنصف من السكان المقدر عددهم في ذلك الحين بحوالي ١٨ مليون نسمة. ومع ذلك استمر الرومانيون الذين يشكلون الأغلبية في تشكيلهم النواة الصلبة للدولة الجديدة.

وكان الوضع في المملكة الصربية الكرواتية السلوڤينية، يبدو أقل استقراراً. فعلى الرغم من أن الصرب هم أبناء القومية الأكثر عدداً هناك، فإنهم كانوا لا يزالون أقلية نسبة لمجموع شعوب الدولة ككل. فالأقليات الألمانية المجرية الألبانية الرومانية. كان يربو عددها عن ١,٦٠٠٠٠٠ نسمة منهم اكثر من ثلث مليون مسلم يشكلون كتلة أخرى تتكلم الصربية والكرواتيه. وشكل السلوڤين الذين يبلغ عددهم ١,١٠٠٠٠٠ نسمة قومية أخرى متميزة. ولكن المسألة الحقيقية الصعبة، كانت العلاقة بين الكروات البالغ عددهم ٣,٥ مليون نسمة، والصرب البالغ عددهم ٥,٥ مليون. وقد وضع دستور جديد عام ١٩٢١ م (١٣٣٩) هـ نص على إقامة دولة وحدوية ترتكز على أسس ديموقراطية.

وشعر الكرواتيون أن إعلان (كورڤو) لعام ١٩١٧ م (١٣٣٥) هـ. يحيل الصرب الى فدرالية. ورفضوا قبول الترتيبات الجديدة. وكان هذا بالطبع خطرٌ على كيان الدولة الجديدة، لأن الحكومة الإيطالية لم تكن مقتنعة بالتسوية السلمية في الأدرياتيك. وقامت بجهد محموم في محاولة لتشجيع القوى المختلفة. ثم مات الملك بطرس عام ١٩٢١ م (١٣٣٩) هـ فحدث خلاف وخلفه الملك اسكندر الذى حكم من عام ١٩٢١ م حتى ١٩٣٤ م (١٣٥٣) هـ وقد تدرب على شؤون الحكم والملك لعدة سنين.

كانت أوضاع البلقان الجنوبية في سني ما بعد الحرب من أكثر المشكلات التي أدت إلى الحيرة والإرتباك. فالحركة القومية التركية التي تزعمها كمال أتاتورك، رفضت بنود معاهدة (سيڤر). وهاجم اليونانيون الذين أغرتهم شهوة



التوسع وابتلاع الأراضي، البر التركي في الأناضول. وكلهم أمل في إجبار الأتراك على قبول الهزيمة، ولكنهم لاقوا الهزيمة المرّة، وأجبرهم الأتراك الغاضبون على التقهقر والإرتداد. ولحق بهم أفواجاً حاشدة من النصارى القاطنين هناك. وبذلك فقد هرب قرابة ١,٥ مليون يوناني ونصراني عبر بحر إيجة في اتجاه الغرب وذلك في ما بين عامي ١٩٢١م - ١٩٢٢م. ثم عقد مؤتمر آخر للسلم هذه المرة في مدينة لوزان السويسرية في تموز من عام ١٩٢٣م. وانتهت بموجبه حالة الحرب مع تركيا. وخططت الحدود بين بلغاريا واليونان. وجلت بمقتضى نصوص بنوده القوات الفرنسية والبريطانية والإيطالية عن الأراضي التي كانت تحتلها من تركيا.

وقرر المؤتمر مبدأ تبادل السكان بين تركيا واليونان تحت إشراف عصبة الأمم. واستثني اليونان والنصارى القاطنين في استانبول. ووعدت اليونان السماح لفلاحي تراقيا الغربية الرجوع إلى أراضيهم. وانتهت مطالب اليونان المعلنة في البر الأناضولي، وأعادت تراقيا الشرقية إلى الأتراك.

وجرت أيضاً عملية مقابلة لتبادل السكان مع بلغاريا بموجب اتفاق آخر منفصل. وانتهت في عام ١٩٢٧م عملية النزوح الكبير الذي حركته المشاعر القومية والأحقاد الصليبية.

وبذلك جرت التصفيات الأساسية للمشكلات القومية البلقانية. وأتاح هذا الاستئصال الجذري بعض الهدوء لبركان الصراع القومي. رغم أن لهيبه المحرق لم يخمد في الشمال. واستمرت المشاحنات والاحتكاكات يزداد أثرها طيلة سني ما بعد الحرب.

# المصادر

## ١ ـ المصادر العربية:

تاريخ الدولة العلية العثمانية. تأليف محمد فريد وجدي ـ دار الجيل ـ بيروت.

تاريخ الدولة العثمانية ـ تأليف علي حسون ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق.

تاريخ عصر النهضة الأوروبية ـ تأليف نور الدين حاطوم.

الشقائق النعمانية. في علماء الدولة العثمانية، تأليف طاشكبري زاده ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

العثمانيون والروس. تأليف علي حسون ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت.

العرب والعثمانيون. تأليف عبد الكريم رافق. مكتبة أطلس ـ دمشق.

تاريخ الإسلام. حسن ابراهيم حسن. مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة.

الكامل في التاريخ لابن الأثير. دار صادر ـ بيروت.

خطط الشام. محمد كرد علي. دار العلم للملايين. بيروت.

التفسير الإسلامي للتاريخ. تأليف عماد الدين خليل.

تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. تأليف عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي.

منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت

التاريخ المعاصر: أوروبا، من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الأولى تأليف نوار ونعنعي. ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت.

محاضرات في نشوء الفكرة القومية. تأليف ساطع الحضري. دار العلم للملايين بيروت.

جمهورية رومانيا الإشتراكية. بقلم أحمد بهجة قنصه.

لمحات من تاريخ بلغاريا. تأليف حسن سعيد اللمع. مطبوعات دار الثقافة. دمشق ١٩٨١.

السلطان محمد الفاتح. تأليف عبد السلام عبد العزيز فهمي.

بين العقيدة والقيادة. تأليف محمود شيث خطاب.

الحرب العالمية الأولى. تأليف عمر الديراوي.

## المصادر الأجنبية المعربة:

تاريخ القرن الثامن عشر. تأليف ماتيو اندرسن. تعريب نور الدين حاطوم.

حاضر العالم الإسلامي. تأليف لوثروب ستودارد. نقله الى العربية عجاج نويهض تعليقات شكيب أرسلان. دار الفكر ـ بيروت.

قصة الحضارة. تأليف وول ديورانت. الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ـ القاهرة.

تاريخ الشعوب الإسلامية. تأليف كارل بروكلمان. دار العلم للملايين ـ بيروت.



## المصادر الإنكليزية:

1 —ISlam: From The Prophet Muhammad to the Captur of Contantinople. Bernard Lewis. (1 — 2) votumes puplihed by the Macmillam press L T D London.

2 — Danismend Ismail Hami. The Detailed Chronicle of the Ottoman history (1 — 6) Volumes Istanbul 1971.

3 — Danishman Zouhouree. The history of the Ottoman Empire (1 — 4) Volumes. Istanbul 1965.

4 — Album of the ottomans. Abdulkadir Dede Oğlu. Translated in to English by H. Ismail Ercan. Publishing house IStanbul 1982.

5 — TUrKey. by M. Ali Birant. published and distributed by A N D.

6 — Britanica Encyclopeadia:
The history of Balkan.
History of the ottoman Empire and Turkey.

# فهرست الموضوعات